الأزرق بين السماء والماء

لمؤلفة الرواية الأكثر مبيعًا
"بينما ينام العالم"

مكتبة | 220



سوزان أبو الهوى





الأزرق بين السماء والماء

شارك في تحرير هذا الكتاب
فخري صالح، خلود عمرو، آلاء حيمور، مايا الحاج، جميلة سلطان الماس

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

The Blue Between Sky and Water
First published in 2015 by Bloomsbury.



مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة– أثناء– النشر (فان)

أبو الهوى، سوزان، مؤلف.

[The Blue between Sky and Water]. Arabic

الأزرق بين السماء والماء / تأليف سوزان أبو الهوى ؛ ترجمة د. محمد عصفور. – الطبعة العربية الأولى.

الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-118-80-7

ترجمة كتاب: .The Blue between Sky and Water

1. الحياة المستقبلية – قصص. 2. الأسرة – قصص. 3. الفلسطينيون -- قصص – مترجمات إلى العربية. ب. عصفور، محمد، مترجم. ج. العنوان.

PS3601.B86 B58125 2018 201826235195

813.6– dc23

الأزرق بين السماء والماء

سوزان أبو الهوى

ترجمة:

د. محمد عصفور



دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS


تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

خالد

«الفكرة هي أن نجعل الفلسطينيين يتّبعون نظام حمْيَة غذائية.»

– دوف فايسغلاس

من بين كل الأشياء التي اختفت، كانت شوكولاتة «بيض الكندر» أكثر ما افتقدتُه. وعندما ضاقت الأسوار على غزَّة، وأخذت أحاديث الكبار تزداد حدَّة وأسى، رُحتُ أحسبُ قسوة الحصار بتناقص أعداد بيض الكندر اللذيذ، والمغلف بورق ملوَّن، يرتص لامعًا على رفوف الدكاكين، وفي داخله ألعابٌ رائعةٌ. ولكن حين اختفى ذلك البيض وصارت تحدِّق بنا الرفوف الصدئة وهي خالية مما كان عليها، أدركتُ أن بيض الكندر هو ما كان يجلب الألوان إلى العالم. من دونه، أصبحتْ حياتُنا ذات لونٍ معدني داكن، ثم مالت إلى الأسود والأبيض، على غرار ما كان العالم عليه في الأفلام المصرية القديمة، زمن ستي نظميَّة التي كانت أكثر فتيات بيت دراس جرأة ونمردة.

وحتى بعد حفر الأنفاق تحت الحدود بين غزة ومصر لتهريب ضرورات الحياة، ظلَّ بيض الكندر عزيز المنال.

عشتُ أنا في زمن الأنفاق، تلك الشرايين والأوردة الأرضية التي تتصل بالحبال والرافعات والعتلات، وتضخ في غزة الطعام، وحفاضات الأطفال، والوقود، والأدوية، والبطاريات، وأشرطة الموسيقى، والفُوَط النسائية، وأقلام التلوين التي تستعملها رِتْشَلْ. كنا نشتري كل ما يخطر على البال من المصريين، على مدى ساعات الأسبوع كاملةً.

هكذا أفسدت الأنفاق خُطط إسرائيل في فرض نظام حِمية غذائية، ولهذا قصفوا الأنفاق وقتلوا أعدادًا كبيرة من الناس. لكننا حفرنا أنفاقًا أخرى أكبر وأطول وأعمق. فعادوا وقصفونا وقتلوا أعدادًا أكبر. إلا أن الحياة ظلت تسري في تلك الشرايين والأوردة تحت الأرض.

وفي يوم ما، أقنعت إسرائيل الولايات المتحدة ومصر بضرورة بناء جدارٍ فولاذي منغرس في الأرض على امتداد حدود رفح بغية سد الأنفاق. ظلَّ الناس يراقبون ما يحدث من فوق كثبان الرمل في رفح بالمناظير، وظلوا يتضاحكون على مدى شهر بينما كانت وحدة المهندسين التابعة للجيش الأمريكي منشغلةً بإنشاء ذلك الجدار. رآنا الأمريكيون، ومع أنهم ذهبوا مثلما أتوا، بلا اكتراث، فقد كنا واثقين من أن ضحكنا تناهى إلى أسماعهم عبر الحدود وأغضبهم. وما إن مضوا في حال سبيلهم، حتى ذهب شبابنا متسلحين بمعدَّات صهر المعادن، فقطَّعوا صفائح الجدار الذي كان سيقطع عنا الغذاء. ليس هذا فحسب، بل أصبحت تلك الصفائح غنيمة ثمينة لنا، لأن الجدار الذي أقيم تحت سطح الأرض صُنع من فولاذٍ عالي الجودة، فأعدنا تصنيعه لأغراضٍ أخرى. كنا معتادين على أن نكون الطرف الخاسر دائمًا، لكننا فزنا هذه المرة: تفوَّقنا على إسرائيل ومصر والولايات المتحدة العظيمة. آنذاك ابتهجت غزة كلها، وكأنها في حفل كبير، ونشرت صحفُنا رسومًا كاريكاتيرية لمبارك وبوش ونتنياهو، وهم يحُكُّون رؤوسهم ومؤخَّراتهم، أما نحن فنبدو من فوق كثبان رفح الرملية ضاحكين وممسكين بما صنعناه من ذلك الفولاذ الممتاز: قطع غيار للسيارات، ومعدات لملاعب الأطفال، وعوارض حديد للبناء، وصواريخ.

قالت ستي نظميَّة: «يا ربِّي سترك! كفانا الله شر هذا الضحك يا أولاد، يا خوفي لا يعقبه إلا العويل والنواح.» لا بدَّ أنها كانت تفكر في أختها مريم.

بعد تلك الأحداث لم يطل الوقت بي حتى مضيت إلى الأزرق الهادئ، ذلك المكان الذي لا زمن فيه، حيث أمتصّ كل عصارات الحياة وأدعها تجري في جسدي كالنهر.

ثمَّ جاءت نور وهي تُثرثر بكلمات عربية، كأنها نُشرت بمنشار ونُعّمت حواف حروفها بورق الزجاج، ترطن بلكنة الأجنبيِّ الغريب. أقبلت بحماسة الأمريكي، صاحب النوايا الطيبة، الذي يريد المساعدة، يظن في نفسه القدرة على إصلاح أمثالي من الناس المكسورين، وشفاء الأمكنة الجريحة مثل غزة، لكنها كانت محطَّمة أكثر من أيٍّ منّا.

في كل مساء وبعد أن تضع نور أختي رِتْشَلْ في فراشها، كانت ستي نظمية تسحب السماء إلى مكانها الصحيح، فتقوم أمي لتطرز عليها قمرًا ونجومًا. وعندما تصحو رِتْشَلْ كلَّ صباح، كانت هي من يعلِّق الشمس فوقنا. هكذا كانت تسير الأمور عندما عادت نور.

هؤلاء هن نساء حياتي وأغاني روحي. غاب من أحببنهم من الرجال بطريقةٍ أو أخرى، ما عداي. لقد بقيتُ بينهن ما أمكنني البقاء.

I

كان نهر سُكرير يجري عبر بيت دراس بينما كان تاريخنا
يمضي متثاقلًا ومتثائبًا فوق التلال وتحت ظلال الأشجار.




تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

(1)

كانت خالتي مريم، أخت جَدَّتي، شغوفة بالألوان، تجمعها وتنسقها وترتبها. وبعد جيلين أطلقوا عليَّ اسم صديقها المتخيَّل. ولكن ربما لم يكن هو من نسج الخيال. ربما أكون أنا هو حقًّا، لأننا نلتقي عند النهر في هذه الأيّام لأعلِّمها القراءة والكتابة.

كانت قرية بيت دراس في القرن الثالث عشر تقع على طريق البريد ما بين القاهرة ودمشق. وكانت من تلك القرى المحاطة بالجنائن وبساتين الزيتون، تحدُّها من الشمال بحيرة وفي وسطها خان يخدم سيلا لا ينقطع من المسافرين عبر الطرق التجارية الواصلة بين آسيا وإفريقيا وأوروبا. فقد شيدها المماليك في سنة 1325 للميلاد إبان حكمهم لفلسطين، وظلَّت تُعرف بين القرويّين على مدى قرون باسم «الخان». تطلُّ على بيت دراس بقايا قلعة بناها الصليبيّون في أوائل القرن الثاني عشر، وقد رفعوها فوق آثار حصنٍ شيّده الإسكندر الأكبر. لكنّ التاريخ هدّمها بعدما كانت محطَّة للأقوياء، وظلَّ ما بقي منها واقفًا بحُنوّ؛ متشبِّثًا بالزمن كلِّه، يحتضن الأطفال في لعبهم، ويواري العشاق.

وكان ثمة نهرٌ يعجُّ بما أنعم الله من أنواعِ السمك والنباتات، يجري عبر بيت دراس جالبًا لها البركات، وناقلًا ما تخلِّفه القرية من أوساخٍ، وأحلام، وأقاويل، ودعواتٍ، وقصصٍ ليلقيَها في المتوسِّط إلى الشمال من غزَّة. وكان الماء الذي يجري فوق الصخور يغمغم بأسرار الأرض، فيما يترنم الزمن على إيقاعات الحيوات التي تحبو، وتتقافز، وتئزُّ، وتطير.

عندما كانت مريم في الخامسة من عمرها سرقت كحل أختها نظميَّة، خطت

به دعاء على ورقة رمتها في النهر. رَجَتْ الله أن يهبها قلمًا حقيقيًّا ويمهد لها سبيل دخول المبنى الذي يذهب إليه حملة الأقلام. لم يكن ما كتبته سوى خرابيش، إذ لم يكن لمثلها من الفتيات مكان في مدرسة القرية التي تتألف من غرفتين فقط وأربعة معلِّمين تُدفع رواتبهم ممّا يُجمَع من جيوب الأهالي. لطالما راقبت مريم بحسرة أخاها وغيره من التلاميذ أثناء سيرهم نحو قمة التل بزيهم الموحّد، كل منهم يحمل كتبًا وقلمًا - رمز المكانة - يقصدون ذلك المبنى الساحر بغرفتيه ومعلميه الأربعة وأقلامه الكثيرة.

لكن تبيَّن فيما بعد أن مريم لم تكن بحاجة إلى مدرسة لتتعلَّم: يكفيها القلم والورق، لأن خيالها ابتدع لها صديقًا اسمه خالد، كان ينتظرها كلَّ يومٍ عند ضفة النهر لكي يعلِّمها الكتابة والقراءة.

احتارت مريم في لون النهر فكلّما تأمَّلته تيقنت بأنه يبدو وكأنه لا لون له، كأنّه يستعير الألوان من كلِّ ما يحيط به. ففي الأيام المشرقة يكون أزرق فاتحًا بلون السماء. وحين تكتسي الأرض بخضرة الربيع يصير أخضر. وفي أوقات أخرى، يصفو ماء النهر أو يتعكَّر. وتساءلت كيف يمكن للنهر أن يتَّخذ كلَّ هذه الألوان بينما يبقى البحر فيروزيا، إلا في الليل طبعًا حين يرتدي كل شيء الأسود النقي لتخلد الدنيا للنوم.

استنتجت مريم الصغيرة، بعد طول تفكير، أنّ بعض الأشياء فقط يتغيَّر لونها. وأدركت باكرًا أنها ترى ما لا يراه غيرها. فألوان الناس تتغيَّر بتغيُّر أمزجتهم. أختها نظميَّة قالت إن تلك التغيُّرات لا يدركها أحد سوى مريم. درجاتٌ من الأزرق تظهر عند أداء الناس للصلاة، لكن ليس في كلِّ الأوقات. كذلك لم تكن تعابير وجوههم تطابق ألوانَهم بالضرورة. الهالات البيضاء تنمُّ عن نيّات خبيثة، حتى وإن كانت تحيط أحيانا بوجوه مبتسمة. الصفراء تظهر مع الصدق والرضا. وتظل السوداء هي الأخلص والأنقى من بينها كلها؛ فهي هالة الرُّضَّع، ودليل الطيبة الخالصة، والقوَّة العظيمة.

تلوَّنت الأزهار والفواكه بتلوُّن المواسم، وكذلك فعلت الأشجار. وهذا

ما حدث لجلد مريم أيضًا. تغيّر لون ذراعيها من الأسمر إلى الأسمر الغامق في فصل الصيف. أما شعرها فظلَّ أسود على الدوام، وبقيت عيناها كما كانتا دائمًا: إحداهما خضراء والأخرى عسلية تميل إلى لون البندق. كانت تفضل عينها اليسرى الخضراء لأن الجميع يحبون النظر إليها. وهذا الفضول كان يقلق نظميَّة التي كانت تخاف على أختها من شر الحسد وأهله.

(2)

ستّي نظميَّة قالت لي إنها كانت أجمل فتاة في بيت دراس. وقالت أيضًا إنها كانت أشدهن شقاوة، وقد حاولتُ أن أتصوَّرها وهي في عز شبابها وشقاوتها.

انشغلت نظمية بمَهَمَّة حماية مريم من شرِّ الحسد. فبعض العيون شرّيرة طمّاعة تتسبب بالمصائب حتى وإن لم تكن لأصحابها نية بذلك. أصرّت نظميَّة على أن ترتدي أختها مريم تميمةً زرقاء تقي عينيها الفريدتين من شر الحسد، وإمعانا في رد السوء ظلت تداوم على قراءة القرآن على رأس أختها الصغيرة.

وفي يوم ما، خطرت سيرة عيني مريم على بال صديقات نظمية وهن يغسلن الثياب على ضفة النهر. كنَّ في معظمهن متزوجات حديثًا أو حبالى تنتظر الواحدة منهنَّ مولودها الأوّل، فيما بعضهنَّ ما زلن عزباواتٍ مثل نظميَّة. سألت إحداهنَّ: «كيف يعني مريم لها عين خضراء واحدة فقط؟»

ألقت نظميَّة بطرحتها جانبا، فانفلت شعرها الكثيف، تماوجت خصلاته ببريق خضابها من الحناء، غطَّست قميص أخيها الأبيض في طشت الغسيل وقالت مازحةً: «بسيطة يا بنات، ربما في الزمنات دس فحل روماني عضوه في سلالتنا وهو الآن يطل برأسه من عين أختي المسكينة».

ضحكن في خلوتهن النسائية المعتادة في الساعات الأولى من الصباح فيما أذرعهن غارقة في طشوت الغسيل. قالت أخرى: «والله مسكينة! فقط لو كان عضوه برأسين لكانت عينا مريم الاثنتين خضراوين».

وتابعت أخرى: «لا والله، ستك يا نظمية هي المسكينة، لو كان عضوه له رأسان لاستمتعت كثيرًا».

راحت قهقهاتهنَّ تعلو أكثر وقد أطلقن عنان ألسنتهن في هذه الثرثرة الخليعة. فبراعة نظميَّة في كسر قيود الاحتشام اللفظي تتيح لمن حولها البوح بما يختلج في صدورهن. كانت جراءتها من ذلك النوع الذي يذهل صديقاتها ويسبب لهن الحرج في الوقت نفسه. لكن قليلات منهن تجرأنَ على توبيخها أو نهيها، فكما يمكن للسانها أن يفيض سحرًا يذيب القلوب، يمكنه أيضًا أن ينفث السمَّ أو يفيض بطوفان من الفحش والبذاءات التي لا طاقة لأحد بمواجهتها. ولهذا السبب أحبَّها الناس وكرهوها في الوقت ذاته.

ظنت نظميَّة أن لون عيني أختها متصل بقدرتها على كشف المحجوب. لكن مريم لم تكن من أصحاب القوى الخارقة، وإنَّما كان جل ما بوسعها فعله هو رؤية وهج الآخرين.

سألتها نظميَّة يومًا: «ماذا تعنين عندما تقولين الوهج؟»

فقالت مريم: «الوهج!» ورسمت بيدها هالة حول رأس نظميَّة: «هنا.»

بمرور الوقت فهمت نظميَّة أن النيّة تشكل هالات تحيط برؤوس أصحابها، لا يراها أحد سوى أختها مريم. حاول أفراد العائلة بعد ذلك اختبار قدرة مريم تلك على مدار أيام عديدة. سألها أخوها ممدوح عند عودته إلى البيت إثر عراك بينه وبين أولاد الحارة المجاورة: «طيِّب! قولي لي الآن بماذا أحس؟» فردت عليه مريم: «أنت أحمر وأخضر»، ثم عادت إلى ما كانت مشغولة به. تدخلت نظميَّة ساخرة: «أحمر وأخضر معًا يعني أنت خائف وممحون.»

فقال ممدوح: «مستحيل أن تعرف مريم معنى ممحون. أنت كذابة وقليلة حياء!» وضرب نظميَّة على رأسها من الخلف وفر هاربًا.

«من الأفضل لك أن تهرب!»

قال ممدوح محتميًا بالباب: «والله مسكين الحمار الذي سيتزوجك.»

ضحكت نظميّة، فأثار ضحكُها استياءه أكثر.

مع أن قدرة مريم الخاصة ضعفت مع الزمن، إلا أنها ظلّت سِرًّا من أسرار العائلة، سرًّا استخدمته نظميَّة لمصلحتها. فعندما تزورها والدةُ أحد خطّابها وأخواتُه، كانت نظميَّة تعاملهن باستعلاء وتهكُّم، لأنّ حدس مريم يُنبئُها أنهنَّ لن يجدنها صالحة لابنهن. وفي السوق أيضًا فضحت كثيرا من التجّار الذين حاولوا أن يغشّوها. كانت موهبة مريم سلاحًا لنظميَّة، ولذلك منعت ذِكْرَه خارج نطاق العائلة مثلما منعت أي حديث عن سليمان.

(3)

عاشت أم ممدوح، أمُّ جدَّتي نظمية، قبل أن أولد. كانوا يسمونها الست المجنونة، لكنها كانت تفيض حبًّا هادئًا وغامضًا. كانت ترى أشياء لا يراها الآخرون، وإن بطريقة تختلف عن طريقة مريم.

كان في بيت دراس خمس حمائل كبيرة، لكلٍّ منها حارتها الخاصَّة بها. يأتي في مقدمة هؤلاء آل بارود والمقادمة وأبو شمالة الذين ملكوا معظم البساتين والمزارع والمناحل والمراعي. أما عائلة نظميَّة وممدوح ومريم فهي «برَكَة»، ولكنها لم تكن من العائلات الكبيرة. فهي تعيش في حارة المصريين التي تعتبر أفقر حارات بيت دراس. كما يسكنها خليط من أصحاب الأصول المتواضعة ممن وفدوا على بيت دراس من مصر قبل خمسة قرون. لجأ هؤلاء

إلى إخفاء أسماء حمولاتهم أو إسقاطها هربًا من ثارات قبلية، أو لأنهم لطَّخوا شرف عائلاتهم بطريقة ما فاضطرّوا إلى النزوح.

عُرف ممدوح ونظميَّة ومريم خلال فترة طويلة من حياتهم في بيت دراس بأنهم أولاد المرأة المجنونة. ومع أنهم عاشوا بلا أب، لم يكن أحدٌ يتجرّأ على السخرية من أمهم في حضورهم. كانوا يعلمون جميعا أنهم إن فعلوا فإن نظميَّة ستلحقهم إلى منازلهم وتشويهم بلسانها السليط الفضّاح الذي يصعب لَجْمُه. ورغم أن أبناء أمّ ممدوح ساءهم حال والدتهم وحاولوا حمايتها من ازدراء الآخرين، إلا أن ذلك لم يكن دائما بالأمر الممكن. كانت أمّ ممدوح غالبا ما تُحدِّق في المدى البعيد، تشغلها الريح، وتتحدَّث بلغة غريبة مع لا أحد، ثم تنفجر أحيانا في الضحك دون سبب مفهوم. وذات يوم شاهد الناس أم ممدوح وهي ترفع ثوبها وتتغوَّط في النهر. وهو ما حمل ممدوح، ابن الحادية عشرة، على أن ينهال ضربًا على صبيٍّ أكبر منه تجرأ على ذكر الحادثة. وهناك أيضا تلك الليالي التي يستميت فيها أبناؤها الثلاثة لثنيها عن النوم في المراعي بين الغنم.

قيل إن أباهم تركهم قبل أن يكون بوسع أحد أن يتذكَّره، ما عدا نظميَّة، الأكبر سنًّا فيهم.

قالت نظميَّة: «جاء أبونا مرَّة وتغدى معنا». لم يتذكَّر ممدوح، ولكنه صدَّق نظميَّة لأنها حلفت على القرآن. كما لا بدَّ وأن يكون ذلك قد حصل بالفعل، وإلا فكيف حملت أمُّه بمريم؟

لكنَّ ممدوح شعر بغصة وتمنى لو أن ذاكرته حفظت له شيئًا عن أبيه.

(4)

لا أريد أن أستبق الأمور بالحديث عن نور. كانت ما تزال على مبعدة جيلين عندما ذهب جدّي ممدوح، أخو جدّتي، ليعمل عند النحّال. ولكن إن كنت تؤمن مثلي بأن الناس هم بعضُ الحب، وشيءٌ من اللحم والدم، إضافةً إلى كلِّ ما عدا ذلك، فإن ذكر اسمها الآن عند الحديث عن الجانب المتعلق بالحب يغدو أمرًا مفهومًا.

شدّت الأيام عضلات ممدوح، وطالت قامته، واخشوشن صوته، حتى صار يوحي بالثقة. استطاع أن يجد عملًا ثابتًا عند نحّالٍ كانت «مرطبانات» عسله تباع في كلِّ أنحاء البلاد، بل كانت تشق طريقها إلى أسواق مصر وتركيا، وحتى في مالي والسنغال. أدرك النحّال العجوز من الشهر الأوَّل أنه عثر على ضالته في من يربّيه ليحلَّ محلَّه في تجارته التي ورثها عن أجداده منذ أجيال. كان لديه ثلاث زوجات، ولدت له اثنتان منهن خمس بنات وولدًا واحدًا توفّي بعد ولادته بمدَّة قصيرة. ولم تبدِ أيٌّ من بناته، ما عدا ياسمين أصغرهن، أية مهارة في العناية بالنحل. لم يكن النحَّال يعلم أن القُرون التي انقضت في تربية النحل، والعناية بالمناحل، والشمع والخلايا وأقراص العسل، والمشتغلين بصناعة العسل، وكل ما تشكَّلت منه حياته، ستذهب أدراج الرياح. وكأن التاريخ لم يمرَّ من هناك، وأن كلَّ ما سيبقى هو حبه للنحل، وهو الحبُّ الذي ستنقله ابنته الأثيرة ياسمين في قلبها وتزرعه في قارَّة أخرى. ولكن لم يكن بمقدور أحد أن يعلم بذلك آنذاك. كان مستقبل أهالي بيت دراس يبدو من البُعد عن مصيرهم إلى حدٍّ أنه لو أخبرهم به من كُشف عنه الحجاب لما صدَّقه أحد.

هكذا أخذ النحّال يعلّم ممدوح كلَّ ما يعرفه عن فنّ تربية النحل. كانت ابتسامته تكاد تخلو من الأسنان بسبب داء هشاشة العظام. ولم يكن يرتدي

قفّازات لحماية يديه من قرصات النحل، بل يصر على أنه لا يحبُّ أبدا عزل نفسه عن نحله. هذا رغم أنه كان يحتفظ بقبّعة وقناع ووعاء دخان خشية هجوم نَوْلٍ من النحل. أصرَّ على ارتداء ممدوح قفازات في يديه إلى أن يعتاد على الشعور بالاتّصال مع النحل في كلِّ جزءٍ من جسمه، ابتداءً من قلبه، مرورًا بأعضائه الأخرى ووصولا إلى الجلد. قال وهو يربُت على كتف ممدوح: «فقط عندما تحس بذلك بتشلح الكفوف».

لم يكن ممدوح في الحقيقة يحسُّ بذلك الاتّصال الحميم مع النحل أو تربيته كما يظن معلمه. صحيحٌ أنه كان يصل باكرًا صباح كلِّ يوم ويتأخَّر حتى آخر النهار ويصغي للنحّال ساعاتٍ طوالًا، لكنّ حماسة ممدوح وحرصه على الإصغاء كان نابعا من جرح اليتم وتلك الرغبة العميقة بين فخذيه. لم يكن في حقيقة الأمر يُنصتُ كثيرًا لحكايات النحّال، بل كان يستشعر دفء معاملته، وكان أيضا منشغلا في تقليب النظر هنا وهناك علّه يحظى بلمحةٍ من ياسمين، ابنة النحّال الصغرى. وبما أن من شأن الذاكرة أن تخضع في أحيان كثيرة لسطوة الأشواق والتمنيات، فإن ممدوح اخترع ذكريات عن أبٍ له ملامحُ النحّال وصفاتُه، يراه في خياله يحتسي الشاي بعد الغداء ويتحدث عن العسل، بينما يتشمم هو في أرجاء الغرفة هبّات من عبق الحب.

قبل أن يشتغل مساعدًا للنحّال، كان أهل ممدوح يتعيّشون على ما كان يكسبه من أعمال بسيطة، إضافة إلى الصدقات التي تُجمع في المساجد. لكنّ ذلك لم يكن كافيًا أبدًا خاصة بعدما أصاب أمه نهم عجيب.

في يوم من الأيام، حصل ممدوح على نصف خاروف لعائلته من الجامع. كان حينها طفلًا لما يبلغ الثانية عشرة. يومها، ورغم وفرة الطعام، ازداد نهم أمّه فلم تشبع، فاضطُر الى صفعها قبل اختفاء كامل حصتهم من اللحم. لم يكن راضيا عن نفسه، فالجنة تحت أقدام الأمهات، ولطمه لأمه هو تذكرة الدخول إلى جهنم. ولكنه رجا الله المغفرة، باعتبار أنه تصرّف لا بصفته ابنًا وإنما كرجل البيت الحريص على حصول كل فرد في العائلة على نصيب من اللحم. كانت

تلك الحادثة بداية انقلاب ممدوح وأختيه ضدَّ سليمان، وهو السرُّ الثاني للعائلة، لأنهم كانوا يدركون أنه سبب نهم أمِّهم. كانوا يشعرون بوجوده عندما تنفتح شهيَّة أمِّهم، أو حينما تنقلب عيناها فلا يبين منهما سوى البياض، أو عندما تهب رائحة احتراق دون نار.

(5)

مع مرور الوقت، علِم كل من عرف جدتي بأمر سليمان. وهناك أشخاص لم يعرفوها إلا بعد أن سمعوا بأمر سليمان. كانوا في تلك الأيّام يذكرون الآيتين اللتين تردان في سورة الحِجْر: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حَمَإٍ مسنون. والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّموم.» (26 - 27)

خرجت أمُّ ممدوح في ليلة غائمة معتمة من ليالي كانون الأوَّل سنةَ 1945 بحثًا عن القمر، فوجدته هلالًا نحيلًا معلقًا بين النجوم فوق بيت دراس. كان سليمان معها، إذ لم يكن يفارقها في تلك الأيّام. وسمعت، وهي تحدِّق في السماء المعتمة، أنينًا وضحكًا مكتومين خلف جدارٍ من بقايا حمَّام روماني قديم. اتَّجهت صوب الأصوات فتبينت ملامح أربعة من المراهقين، أجسامهم تتألق تحت لمعة القمر والنجوم. كانوا يلهثون ويرتجفون في الظلمة الباردة، جلابيبهم مرفوعة وهم يستمنون، مدفوعين بروح التنافس وليس الاستمتاع كما يبدو. راحت تصبُّ عليهم اللعنات لارتكابهم تلك الخطيئة الشنيعة. تملَّكهم الخوف فارتخت أعضاؤهم وأسرعوا لستر أنفسهم بجلابيبهم. غير أنَّ واحدًا منهم تعرَّف عليها فصاح: «هذه أمُّ ممدوح المجنونة» فتنفَّسوا الصعداء وضحكوا ضحكًا ملؤه اللؤم.

صاح أحدهم: «ارجعي لحارة المصريين»، بينما قال آخر: «المجانين ممنوعون من المجيء هنا. شو؟ أتريدين أن تتغوطي في النهر مرة ثانية؟»

تراجعت أمّ ممدوح وهي تلوِّح بيديها وقالت: «يكفي، بس! سليمان بدأ يغضب، وهو لا يغضب أبدا! خلص يكفي».

لكنَّ ضحكهم ازداد. «ومن هو سليمان هذا؟ هل هذا لقب ابنك الدلُّوع؟ أم أنه هو الآخر سيتغوط في النهر؟»

فجأة أخذ سليمان يظهر من ثنايا وجهها قبل أن تتمكَّن من إيقافه. وأخذت نتف من نجوم سماء سوداء تشع حول محيط رأسها، ثم على اتساع كتفيها شَخَصَ سليمان على هيئة كيان هائل أسود تمور عيناه بنيران حمراء. راح فمه يبصق حممًا من كلام غير مفهوم بصوت يهدر كرعد مطبق من كل جانب. فاحت رائحة كريهة وكأنها تحرق وتلوّث الهواء. تسمَّر الأولاد في أمكنتهم، وشدّ الخوف أرجلهم، مانعًا إياهم من السقوط أرضًا. ارتخت أرواحهم كارتخاء أعضائهم، فبال اثنان منهم على نفسيهما، ونزل الغائط من أحدهم بينما ارتعب عطية، أكبرهم سنًّا، وهو الذي كان أشدَّهم غطرسة وقسوة على أم ممدوح، حتى أن لسانه انعقد.

ظلّ هؤلاء الصبية يتذكَّرون تلك اللحظة ويقارنونها بما صادفوه في بقيَّة حياتهم، واتَّفقوا على أنه لم يرعبهم شيء في الدنيا مثلها، ولا حتى العصابات اليهودية أو الجيش الإسرائيلي الذي أتى جنوده بعدهم بالبنادق والبلطات، ثمَّ بآلات قتل تفوق الخيال. لقد رأوا سليمان في لحظة غضب نادرة، وسليمان هذا ليس بأي أحد، بل إنه حقا من الجن.

يقول القرآن إن الله خلق الجنَّ من نار لا دخان فيها. هذا معروف. وهناك من يعطي الجنَّ مكانةً عاليةً ومنهم من يخشاهم، غير أنهم جميعًا يحترمونهم وينحنون أمام بأسهم. أما من يتصل بالجن من الإنس فبعض الناس يتفادونهم، وآخرون يجلّونهم، لكن الغالبية تهابهم وتحسب لهم ألف حساب.

تجمَّع وجوه العوائل في اليوم التالي وذهبوا إلى بيت أمِّ ممدوح. استقبلهم آل برَكَة في بيتهم الصغير المبنيِّ من الحجارة. دُعيت النساء الى الداخل، بينما جلس الرجال الذين اصطحبوا الولد الذي أصيب بالرعب وانعقد لسانه في الساحة حيث استقبلهم ممدوح. قدم لهم الشاي والتمر والنراجيل المزوَّدة بالتنباك والمعبَّأة بالليمون وماء الورد. كانت العائلة تتوقَّع هذه الزيارة، إذ أن ظهور سليمان أمام الآخرين دفاعا عن أمهم يعني أن سرَّ العائلة قد انكشف. توقَّع ممدوح أن القرية ستأتيهم، فاستعار النراجيل من النحّال الذي أعارها عن طيب خاطر ظنًّا منه أن الزوّار قادمون لخطبة نظميَّة.

في الداخل، كانت مريم الصغيرة تراقب توافُد الزوّار بشيءٍ من الريبة، بينما قدّمت نظميَّة الشاي المحلّى بالنعناع. كانت ترتدي منديلا مزينا بقطع معدنية رخيصة، تخرخش دون حياء كلما حركت رأسها، وتركت بعض شعرها ينفلت من عقاله ليرى الجميع سحر لفائفه النحاسية. تعمّدت نظميَّة التحرك بخطوات بطيئة لأنها تعلم أن النسوة يتبعنها محدقات النظر في دشداشتها الخضراء البرتقالية التي تلتصق بثدييها الكبيرين وردفيها المتغطرسين وفخذيها المتفرّعين من خصرها النحيل. كانت ذات حضور طاغ قادر على ملء كلِّ غرفة تدخلها وشفط كلِّ ما فيها من هواء.

قالت أخيرًا وهي تبتسم ابتسامةً سمحت لنساء الغرفة بالتنفُّس: «يا أهلا وسهلا، شرفتنّ ونورتنّ بيتنا. تفضلن بالهناء والشفاء».

فقلن بصوتٍ واحد: «زاد الله فضلك يا مزيونة».

لم تكن نظميَّة حلوة أو جذابة من النظرة الأولى، أما من يراها ويحتكُّ بغطرستها وصَلَفها الأنثويين فلن يستطيع مقاومتها. كانت بشرتها غامقة أقرب إلى لون الجوز، ولكنها مع ذلك لم تكن تتوارى عن الشمس لتلطيف حدة اسمرارها. كما لم تجهد نفسها أيضا فيما تفعله أخريات حريصات على تسبيل شعورهن بلفِّه أو شدِّه أو كيِّه خاصة عند حضور الأعراس، بل تركت خصل شعرها الملتوية على حالها، تفصحُ عن ثورتها وغرورها كما يحلو لها. ومهما قال الناس عنها فقد كان من الصعب تجاهلها. بل كانت موضوع كثير من الأقاصيص والأحلام في بيت دراس.

جلبت النسوة معهن هدايا من الفاكهة والخضروات الطازجة وزيت الزيتون والعسل والحلويات. واعتذرن نيابة عن أبنائهن، وأكَّدن لـ «الحجَّة أمّ ممدوح»، أنّ كلًا منهم قد تلقّى عقابًا قاسيًا، وأنهم سيأتون للاعتذار منها شخصيًّا إن هي سمحت بذلك. كانت الحجَّة أمّ ممدوح جالسة بهدوء ودون كلام إلا حين يُوجَّه لها الحديث مباشرة. طمأنت ضيفاتها بالقول إن الله غفور رحيم، وأنها قد سامحت الأولاد فعلًا. ولكن ما ظل حبيس الصدور، ولم يُقَل، لكنه مفهوم للجميع هو أن المسامحة الحقيقية المطلوبة كانت مسامحة سليمان. مضت ساعات طويلة قبل أن تشرح إحداهن حالة عطيَّة المصاب بالرعب.

قالت الحجَّة: «أحضروا لي الولد هنا. وإن شاء الله خير.»

وما إن دخل عطيَّة حتّى حدجته نظميَّة بنظرة غضب وحقد كاوية. توقَّف للحظة وقد تملَّكه الارتباك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كان قد بلغ الخامسة عشرة للتوّ مع أن مظهره يدلُّ على أنَّه أصغر من ذلك بكثير. أمّا نظميَّة فكانت في السابعة عشرة بينما تبدو أكبر من ذلك بكثير. سرى شعور طاغٍ بالخجل في جسد عطية، ثم اختلط في جوانحه بدشداشة نظميَّة الخضراء البرتقالية المشدودة على صدرها وردفيها. حينها ضغطت أضلاعُه على قلبه من الارتباك – وأيضًا من الحبّ: كان واثقًا من ذلك. ورغم كل العيون المسلطة عليه

فإنه شعر بأن عضوه راح ينتصب، فانحنى بسرعة على يد أم ممدوح ليقبّلها علّه يخفي ورطته. لكنه عجز عن الكلام، فأخذت الحجّة رأسه بيدها وشدّته إلى الخلف، وأخذت تدمدم بكلامٍ غير مفهوم. دارت عيناها في محجريهما وفاحت أنفاسها برائحة كريهة لفحت من كانوا حولها. وفجأة توقّفت فصفت عيناها وعادتا إلى وضعهما الطبيعي. وقف الصبي، أطول فيما يبدو مما كان عليه قبل أن يركع، كأنه عَبَرَ في تلك اللحظة العتبة الأخيرة صوب الرجولة. نظر باتّجاه نظميَّة بعينين سيطرتا على نظراتها وأكّدتا لها أنه أقوى منها. لم يكن بوسع أحد أن يلحظ تلك النظرة الخاطفة رغم أنها طالت إلى الأبد بينهما. ثم خرج كأنه لم يكن مرتبكًا ولا مربوط اللسان، كأن لم يحصل له شيء. وكان ذلك دليلًا كافيًا على أنَّ أمَّ ممدوح، تلك المرأة الغريبة التي لا زوج لها ولها ثلاثة أولاد في حارة المصريّين، والتي تغوَّطت يومًا في النهر ونامت في حظائر الغنم، كانت في واقع الأمر من «المخاويين»، الإنس القادرين على الاتّصال بالجنّ في عالم آخر.

انتشر الخبر بسرعة في كل أنحاء بيت دراس والقرى المجاورة، فراح الناس يتقاطرون على بيت الحجَّة أمّ ممدوح، وجاء كثيرون لمعرفة ما يحدث في ذاك العالم غير المرئي. هل ثمّة في بيت دراس جنٌّ آخرون؟ هل ينوي الجن إيذاءنا؟ هل هم أخيار أم أشرار؟ هل صحيح أن الجنَّ يتمتَّعون بحرّيّة الإرادة؟ هل يشبهوننا؟ هل يعيشون أكثر من ألف سنةٍ؟ غير أن أكثر النساء جئن لكشف أسرار الحبّ. هل يحبُّني حقًّا؟ مَن أفضلُ الخُطّاب لابنتي؟ هل ينوي زوجي الزواج من امرأة ثانية؟ أو ثالثة؟ وكنَّ يأتين دائمًا بالبخور لإشعاله لأن الحجَّة أمّ ممدوح أخبرتهن بأن الجنَّ يحبّونه. وفي إحدى المرّات أتت إحداهن بزجاجة عطر من ليتوانيا فظلَّ سليمان بعيدًا، نافرًا من الكحول في مكونات العطر. بعدها اعتقد كثيرون بأن سليمان ربما يكون من الملائكة.

(7)

في تلك الأيام ببيت دراس حصلتْ خالتي مريم على صندوق الأحلام الخشبي. وتمكّنتُ أنا من عبور الزّمن والموت قبل أن أولد لكي أنتظرها بجانب النهر، حيث علّمتها الكتابة، وحدّثتني هي عن الألوان وألّفنا معا الأغنيات.

كانت مريم فرحة لكثرة من يزورون بيتهم طالبين مشورة والدتها. يأتونهم بالهدايا ويجلبون معهم نبض القرى وقصص العائلات المحترمة في بيت دراس. وكانوا يسبّحون الخالق عندما يرون عيني مريم اللتين لا مثيل لهما. عندئذٍ كانت نظميّة تأخذ مريم جانبًا وتقرأ المعوِّذتين على رأسها خوفًا من الحسد. بل كانت أحيانا تفعل ذلك أمام النسوة لتُشعرهنّ بالخجل من الجرأة على كيل المدائح لغير من خلق عيني أختها الصغيرة. لكن مريم لم تكن تأبه لذلك، إذ راقها ما تلقى من اهتمام وأحبّت أن يكون الضيوف من نصيبها وحدها، ولذلك نازعت نظميّة على مهمة تقديم الشاي، ووصل الأمر بها إلى التهديد بكسر أواني البيت كله إن لم تَسمح لها بذلك. فلانت نظميّة وقالت: «مثل ما بدك حبيبتي، كنت خائفة فقط من أن تكون الصينية ثقيلة عليك»، فتحوّلت الشدة التي كانت تملأ عيني مريم مختلفتي اللون إلى ابتسامة وهي تحمل الصينية.

لكنّ قدرة مريم على رؤية الهالات ضعفت مع الزمن. لم تعد الآن وقد بلغت السادسة قادرة على رؤية شيءٍ سوى دفقاتٍ من المشاعر الحادّة. لكنها ظلت في عالمها الداخلي تصنِّف الأشياء بالألوان. وهكذا تجرّأت بعد أسابيع واستجمعت كل ما لديها من شجاعة وطلبت قلما من النساء، قلمًا أزرق فاتحًا، لون خالد، صديقِها الذي كان ينتظرها بجانب النهر على الدوام. فما كان من بعض النسوة إلا أن أتين بأقلامٍ ودفاتر ومحّايات وبرّايات في صندوق خشبي مزخرف تعلوه كلمة «الله» مطعمة بالصدف. تلقّت مريم هذه الهديّة بامتنان

عميق. احتفظت بذلك الصندوق الخشبي الذي حمل أحلامها حتى آخر يوم في عمرها.

بعد حصولها عليه صارت مريم تقضي وقتًا أطول بجانب النهر، ولم تفلح تهديدات نظميَّة وصفعاتها في ثنيها عن ذلك ما دام الوقت نهارًا. لم تعد تراقب تلاميذ المدرسة وصارت تغادر البيت كل صباح بعد انتهاء أعمال المنزل، حاملة معها صندوقها الخشبي إلى النهر حيث يعلِّمها خالد كيف تكتب اسمها وأسماء الله الحسنى. ولم يطل بها الوقت حتى فكَّت مغاليق اللغة، وتكاثرت الكلمات على ورقها.

تبعتها نظميَّة مرّات عدَّة لتقابل خالد. ولمّا فشلت في رؤيته، استنتجت أن مريم اختلقته لتفسِّر كيف علَّمت نفسها القراءة والكتابة، واستقرَّت حياتهما على هذا النحو. ربَّما كانت تلك أسعد أيّام عائلتهم الصغيرة معًا: فقد نالت أمّ ممدوح احترام الناس؛ وكان ممدوح سعيدًا بعمله في تربية النحل؛ وأخذت نظميَّة تستسلم للأحلام وتبدو أجمل من أيِّ وقتٍ مضى.

على مدى عامين، ظلَّت مريم تعود بلهفة إلى البيت في آخر النهار لتطلع أختها على ما تعلَّمته من خالد. تقلب نظميَّة صفحات دفتر مريم وقد طفح قلبها بالاعتزاز. كانت واثقة من أن أختها هي أوّل بنت تتعلَّم القراءة في بيت دراس. وفي إحدى المرّات فاضت دموع نظميَّة من فرط حبها لأختها الذكيَّة. أمسكت بحنو وجه مريم وانحنت كي تُدنيه إليها ثم قالت: «ياي يا مريم يا حبيبتي، أنتِ ما في مثلك! أنتِ لستِ كبقية الناس، أنتِ أحسن من كل الناس، إياكِ أن تنسي كم نحبك. سنظل معًا دائما ولن تفرقنا قوة عن بعضنا البعض.»

قالت مريم حين فاجأها هذا الدفق العاطفي غير المألوف من أختها: «ما بك يا خيتي، في إشي؟»

فهمست نظميَّة: «في يا حبيبتي في. أنا غارقة في الحب لأذني.» عندها شهقت مريم واتسعت عيناها، ثم وضعت نظميَّة إصبعها على شفتيها المبتسمتين وقالت: «ششش، يا مريومة! سأخبرك فيما بعد، لكن الآن ليبقَ هذا سرا بيننا فقط.»

كانت نظميَّة تقوم بدور الأم في صغر مريم، لكنّ علاقتهن باتت الآن تأخذ شكل العلاقة الطبيعية بين أختين يمكن أن تتآمرا وتكتما أسرار بعضهما البعض. ولذلك وبعدما بلغت مريم الثامنة قررت أن تخبر نظميَّة بهويّة خالد. أما الآن فقد كان عليهما أن تصليّا صلاة المغرب وتحضِّرا وجبة العشاء قبل عودة ممدوح من عمله في الـمَنْحَلَة.

(8)

لم تكن جدّة أمي، أمُّ ممدوح، قادرةً على التواصل بكل المخفي، ما عدا سليمان ذاك الجني العجوز الذي نبذته عشيرته لأنه وقع في غرام بنت من البشر. فهم القرويون ذلك، لكن تقديرهم واحترامهم لأم ممدوح لم يتأثر. ورغم أن زياراتهم لها قلّت مع مرور الوقت إلا أنها لم تنقطع تماما إلى أن هبّت ريح التاريخُ آخذةً معها بيت دراس وأهلها.

في شباط من سنة 1948 حضر إلى بيت آل بركة خمسة مخاتير من الحمائل الكبيرة في بيت دراس. كانوا شيوخا، أصحاب دين ومروءة لا يفكِّرون – في الظروف العاديَّة – بزيارة امرأة بلا زوج تخالط مخلوقات لا تُرى. وجوههم كانت صارمةً تعلوها كرامة سنّهم وتقاليدهم العشائرية. حيّوا ممدوح بحماس وقبَّلوه على الخدَّين تعبيرًا عن احترامهم لسيِّد البيت، رغم أن ممدوح كان حينها في السابعة عشرة فقط. كما عبَّروا أيضًا عن احترامهم للحجّة أمّ ممدوح بأن حيوها بغض بصرهم عنها وبوضع أيديهم على صدورهم.

رحب بهم ممدوح قائلا: «شرَّفتمونا وشرَّفتم حارتنا كلها»، ثمَّ دعاهم للجلوس على الطراريح المفروشة على السجادة بقرب والدته.

قال أبو نضال، مختار عشيرة آل بارود: «يا حجة الله يطول في عمرك، جئناك نطلب منك أن تساعدينا أنت وسليمان.». وقبل أن يضيف أحدٌ شيئًا، أغمضت أم ممدوح عينيها وكأن هالة عالمٍ آخر أحاطت بها، واستنشقت بقوة وهي تدمدم بكلام غير مفهوم إلى أن امتلأ جسمها بالأصداء وانبعثت من جلدها رائحة سخام. ثم فتحت عينيها وسألت: «جئتموني لتسألوا عن نوايا اليهود؟» فأومأوا لها بالإيجاب، فتابعت كلامها: «جيراننا المسالمون في الكيبوتْس هؤلاء ليسوا أصحابًا لنا، نياتهم خبيثة وشريرة وسيخونون بيت دراس».

«أنت متأكدة يا حَجَّة؟ نحن لم نقصر في جيرتهم أبدًا، دللناهم على ما يزرعون في هذه الأراضي وأعطيناهم البذار وعلمناهم كيف يفلحون تلك الأراضي. وأيضًا هم ساعدونا، عندما كنا نمرض كان حكيمهم يأتي ليعالجنا ويطببنا».

«أنا أخبركم بما يقول سليمان، وهو لا يكذب.»

«أخبرينا بالمزيد.»

«الله وحده يعلم الغيب، ولن يصيبنا إلا ما كَتَبَ الله. سيأتي جيراننا ومعهم أناس آخرون، ويسيلون دم البدرواسيين من بيت دراس»، مشيرةً إلى عائلة تُعرَف بالشجاعة والمهارة في القتال. «ستنتصر بيت دراس. وأنتم ستقاتلون وتعيشون إن شاء الله، لكن لكم إخوة وأولادا سيقتلون. وهذه لن تكون آخر مرة تقاتلون فيها، لأن اليهود سيرجعون بعدد أكبر ويجعلون السماء تمطر موتًا. لكن البدرواسيين رؤوسهم يابسة ولن يتنازلوا، مرة بعد مرة سيظلون يواجهون العدو. لكن شر العدو سيكون أقوى منهم، سيسيل دم أهل بيت دراس من التل ويجري في النهر، وننهزم».

أدركت نظميَّة، وهي قد بلغت العشرين من عمرها، أن تلك الزيارة ما كانت إلا لأمر جلل. دست نفسها في الكوة الضيقة للجدار المهدم بين المطبخ والغرفة الرئيسية، ولبثت دون حركة تصغي إلى ما يدور. وقفت مريم إلى جانبها تسترق السمع، ومع أنها لم تكن تفهم تماما معنى ما قالته أمها، إلا أنها شعرت بما

ولده من قلق. وعندما قدَّمت القهوة للضيوف لاحظت أنهم يجلسون بتصلب، أياديهم مشبوكة ببعضها في حجورهم، واقتصرت علاماتُ الحياة في الغرفة على حركاتٍ قلقة صغيرة وحشرجات بَلْعٍ صعْبٍ ترتفع معها جوزة الحلق صعودًا وهبوطًا. كان كل منهم يتحاشى النظر إلى الآخرين، لئلا تفضح عيونهم يأسًا يحاولون إخفاءه. سحبت نظمية أختها الصغيرة إلى جانبها وبقيتا على تلك الحال، تصغيان إلى صمتٍ مرتجفٍ يزحف على الأرض وينتشر على الجدران. أخيرًا ارتشف الرجال قهوتهم وعادت أمّ ممدوح إلى الكلام. «الله وحده يعلم الغيب. لكن هذه الأرض سترجع فلسطينية وستعمر من جديد، حتى لو انهزمنا».

لم يفهم كلامها أحد، لكن أيًّا منهم لم يجرؤ على أن يطلب منها تفسيرًا لما قالت. اكتفوا بعبارة «هذه الأرض سترجع فلسطينية وستعمر من جديد، حتى لو انهزمنا» وتشبثوا بتلابيب الأمل في تلك الكلمات وعاشوا عليها حتى آخر أيّامهم. بعضهم لم يطل به المقام إذ قضى في المعركة التي حدثت بعد فترة قصيرة، بينما امتدت أيام البعض الآخر ليعيش وسط ركام الحنين الذي عشش في مخيمات اللجوء.

قال أبو نضال وهو يضع عددًا من الليرات الفلسطينية أمامها: «الله يطول عمرك يا حَجَّة، خذي هذه لأننا أتعبناكِ معنا»، فرفضت قائلة: «توكل على الله يا أبا نضال. أنا لا أقبل نقودًا، الله يرزق ويحفظ الجميع. أنتم قاتلوا ونحن وراءكم، وابني ممدوح على رأس الكل، وأنا سأظل هنا أيضًا ليساعدنا سليمان. ويجب أن تعرف أن العدوَّ سيحضر معه عفاريت إبليس من أعماق جهنم. الله يطول عمركم ويحفظ بيت دراس وكل أهلها».

(9)

أصغت خالتي مريم وستّي نظميّة من خلف جدار المطبخ المهدم يومذاك إلى أمّهما وهي تتحدّث مع المخاتير، عن إبليس وعفاريته. لم تفهم مريم لم سيأتي هؤلاء المرعبون إلى بيت دراس، فالتصقت بأختها ودفنت وجهها في صدرها. أما نظميّة فطلبت من مريم أن تأتي بصندوقها الخشبي لتكتب رسالة نيابةً عنها. قالت الرسالة: «إن كنت تريد الزواج بي فإن على أهلك أن يأتوا غدًا.»

بعد أسبوع على شفاء عطية من صدمة رؤية الجني سليمان وانطلاق لسانه من عقاله على يد الحجة أم ممدوح صادف نظمية في السوق. التقت عيناه بعينيها من جديد، فرمته من قوسيها المكحلين بعتمة الليل بأشد ما في جعبتيهما من سهام قاسية عبر برقع نقاب كانت تجربه. لم يطرف له جفن، ورد لها الصاع صاعين، وحدجها بكل ما أوتي من بأس وشدة. ولما لاحظ أن جبينها يرتخي وأن عينيها تضيقان عرف بأن ثغرها يفتر عن ابتسامة ماكرة أخفاها ذلك البرقع المزركش بالخرز الملون. خلعت نظمية البرقع وردته إلى البائع، ثم أشاحت ببصرها عن عطية دارية بأنه يلاحقها بنظراته.

التقيا مرارا ولكن ظل حديث العيون وهمسها هو السبيل الوحيد بينهما. وبعد ستة أشهر، تواعدا والتم شملهما عند آثار القلعة الرومانية. وبعدها، ظلّت نظميّة طيلة سنتين ترفض كلّ من يتقدّم لخطبتها، تنتظر وعطية زواج من يكبره من إخوته ليحل الدور عليه. لكنهما ظلا يلتقيان أوّل خميس من كلّ شهر في بقعة من تلك القلعة اعتبراها ملكا لهما وحدهما. وبعدما أرهقهما الوجد وطول الاصطبار، وجد كفه طريقه إلى كفها، تعانقت راحتاهما، وتشابكت أصابعهما، وطبعت أنامله قبلا على أناملها. واختلقت لهما أيديهما لغة خاصة بحبهما توحي بما تواطآ عليه من وعود وعهود.

في عين المكان الذي مهره عطية ونظمية بصك حبهما، كان الإسكندر الأكبر قد بنى في سنة 332 قبل الميلاد تحصينات عدة أثناء حصاره لغزة التي لا تبعد سوى خمسة وثلاثين كيلومترا إلى الجنوب. لكن الغزيين صمدوا في وجه الجيش المقدوني وقاوموه طيلة خمسة أشهر. استشاط الإسكندر غضبا، ولما سقطت المدينة، أعمل سيفه في أهلها، فقتل الذكور عن بكرة أبيهم وباع النساء والأطفال في سوق النخاسة. بعد قرون وعلى تلك الأساسات المقدونية بنى الرومان قلعتهم في بيت دراس. وأصبحت آثار تلك القلعة بعد نحو ثلاثة آلاف سنة مكان نضج حب بين عطية ونظمية، حيث يحاولان تخفيف تباريح العشق ولواعج القلب بعناق الأكف وقبلات الأنامل في أوّل خميس من كلّ شهر.

أما الأيام ما بين لقائهما فكانت العذاب بعينه، فما كان الشوق ليهدأ وما كانت النفس لتستكين. وسط هذا السعير كان العاشقان في غفلة عما يدور حولهما من أحداث سياسية، لكن زيارة المخاتير لأم ممدوح نبهتهما إلى أن أجل الانتظار قد انتهى وأنه لا بد لهما من زواج سريع.

حاول أفراد من العائلة ثني عطيَّة عن التعجل في الزواج، لكن ذلك لم يأت بأيِّ طائل. أما كبيرهم، الذي سرَّه عزم حفيده على الزواج، فجمع رجال العائلة لخطبة نظمية. وعلى رغم المخاوف الممتدة في كل أنحاء فلسطين، وأخبار الفظائع اليومية التي ترتكبها عصابات الصهاينة ضدّ البريطانيين والفلسطينيين، ذهب الحاج أبو صرصور بستة رجال ومهرٍ من الذهب ليطلب يد نظميَّة لحفيده. لكنّ الجميع اتفق على أنّ الوقت غير مناسب لإقامة احتفال بالزواج في ظلّ تلك الظروف العصيبة. ولهذا أقسم أبو عطيَّة وجدُّه على أن يقيما أكبر عرس في حال عودة الهدوء الى البلد. هكذا أتوا بالمأذون لإتمام مراسيم زواج عطية ونظميَّة على سنَّة الله ورسوله. ولم يكن مثل هذا الزواج المستعجل بحفْلِهِ المؤجَّل أمرًا مألوفا، بيد أنّ الظروف لم تكن ظروفًا عاديَّة.

بدلًا من عرس، ذهبت نظميَّة وصديقاتها وأمهاتهن إلى الحمّام التركي في

غزّة. وهناك في غرف البخار عكفن على تجهيز العروس لليلة دخلتها. قضين النهار في نتف شعر بدنها، وفرك جلدها، وتدليك كل جزء من جسمها بزيت الخزامى. وبعد انتهائهن من مهمتهن تلك ألقين بظهورهن على البلاط الساخن، ورحن يتلذذن باحتساء الكركديه المثلج واستنشاق الهواء الرطب المفعم بعبير الكينا.

(10)

في تلك الأيام لم أكن قد ولدت بعد. لكنني بعدما آل حالي إلى ما آل إليه، دخلت في الأزرق، فكشف لي سليمان عن كل شيء. إنني لا أستوعب تماما كيف جرى ذلك ولا أتوقع منكم الأمر ذاته. لكن لعل في وسعكم التسليم معي بأن ثمة حقائق تدحض حقائق مقابلة حيث ينطوي الزمن على نفسه.

صدق ما قالته الحجة أم ممدوح، أغار اليهود فصدَّهم أهل بيت دراس بعديدهم الذي لا يتجاوز الألفين، ومعونة الجنّي سليمان المخلص. ثم أعادوا الكرة مرّات في آذار وكذلك في نيسان 1948، وكانوا في كل مرة يزدادون عنفا ويستشيطون غضبا. فكيف لقرية صغيرة ليس فيها سوى فلاحين ونحالين أن تتغلب على قوات «الهاغاناه» التي تتمتع بحسن التدريب وتمتلك أسلحة حديثة وطائرات حربية هربتها تحت سمع البريطانيين وبصرهم من تشيكوسلوفاكيا استعدادا للغزو. وفي هجوم في آخر نيسان، قتل خمسون من النساء والأطفال في يوم واحد. بعدها أمر الرجال عائلاتهم بالهرب إلى غزة بينما مكثوا هم دفاعًا عن القرية. قالوا: «ابقوا بغزّة حتى تهدأ الأمور. خذوا مؤونة تكفي لأسبوع أو أسبوعين».

أعدَّت نظميَّة على عجل بقجة من الطعام وحاجيّات أخرى تكفي لمدَّة أسبوعين وانطلقت لجلب مريَم. سارت نحو النهر عبر أزقّة القرية التي ازدحمت بأشباح الرعب، الهواء خانق يكاد لا يطاق، والأهالي تلبسهم الهول والذهول، يترنحون وقد تنازعتهم الخطى، واحدة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. نسوة تهرولن، حملن بقجا فوق الرؤوس، وشددن أطفالا على الجنوب، يتوقَّفن من حين إلى آخر لتعديل البُقج وجذب الأطفال. صغار انقطعت أنفاسهم في ملاحقة خطى الممسكين بأيديهم من الكبار. شق الفزع أخاديد في وجه كل من صادفته نظمية، وأحست رغم كل الضجيج والفوضى كما لو أنها تسمع نبض القلوب يقرع جدران الصدور.

عند النهر، كان الهواء ما يزال غضا طريا، يصعد بخفة، يدغدغ أغصان شجرة، فترتعش الأوراق. أما السماء فصافية الزرقة، تتمطى في أرجائها بعض غيمات كسلى. وهناك عند صخرتها التي حفرت عليها اسمها يوم حلت لغز الأبجدية، كانت مريم جالسة. ظهرها إلى الصخرة، وصندوق أحلامها بجانبها، دفتر في حجرها وقلم في يدها. شفتاها تتمتمان بحديث، كأنها تتكلم مع نفسها أو ربما تضحك.

قالت نظميَّة: «يلا يا مريم، يجب أن نذهب.» لكنّ مريم مضت في حديثها مع لا أحد كأنها لم تسمع أختها. فاقتربت نظميَّة منها أكثر وقالت: «تتحدثين مع من يا مريم؟»

فقفزت مريم من مكانها لتعانق أختها وقالت: «خالد». ولما لم تر نظميَّة أحدًا حولهما، هالها أن تكون أختها مصابة بالجنون الذي قلب حياة أمها رأسا على عقب.

«مريم قولي لي يا خيتي خالد من الجن؟»

«لا، خالد ابن بنتك يا نظمية. أنتِ يعني جدته»، أجابت مريم.

تعالت أصوات انفجارات في الأفق.

«قومي يا مريم! ألا تسمعين صوت القنابل؟ قومي هيا». شدّت نظميَّة أختها

من ذراعها وراحت مريم تلملم أشياءها وتضعها في الصندوق الخشبي وهي تدندن بالأغنية الغريبة التي سمعتها نظمية تغنيها من قبل:

جذني
أنا في الأزرق
بين السماء والماء
حيث الزمان كلُّه الآن
ونحن الأبدية
نجري كنهر.

صاحت نظميَّة: «خلص يكفي! يجب أن نهرب! الرجال سيظلون ليقاتلوا ونحن سنرجع بعد أن يذهب اليهود».

في القرية ألحّت مريم على نظميَّة أن تتركها لتغادر في الغد مع جيران سيهربون إلى غزَّة أيضا. ترجّتها: «من شان الله يا نظميَّة!». وقالت إنها تريد قضاء مزيد من الوقت مع أمّها وممدوح وعطيَّة، الذين كانوا ينوون البقاء دفاعًا عن القرية إن هاجمها اليهود. ورغم أن نظميَّة مرتبكة، شأنها في ذلك شأن سائر الناس، إلا أنها وافقت على مضض. لكنها تأكدت من رحيل الجيران باكرا في صبيحة الغد، وأخذت منهم وعدا باصطحاب مريم معهم، إن شاء الله.

وهكذا ذهبت نظميَّة مع عائلة زوجها: أختها ستلحق بها مع الجيران، أخوها وزوجها سيمكثان ليدافعا، وأمها ستظل أيضًا حتى يساعد سليمان بيت دراس. سارت نظمية مع الآخرين صوب غزة، لكنها دون الانشغال في الاعتناء بأي من أفراد عائلتها، ظلت صرخات قلبها تدوي على مسمعها طالبة منها العودة لجلب مريم.

في الصباح، عندما أفاق الجيران من نومهم، كانت مريم قد رحلت. تحايلت عليهم بإبلاغ ابنتهم ليلا بأنها قررت الرحيل مع نظمية. لكنها ذهبت إلى

أحد أطراف القرية واختبأت حيث يطيب لها الاختباء. دست نفسها في الفجوة الضيقة داخل بئر الماء، تلك التي لا تتسع إلا لبنت صغيرة متكورة على نفسها، وصندوق أحلام مزين بالصدف وكيس فيه القليل من الخبز والجبن. كان لا بد لها قبل الرحيل من لقاء خالد كي تخبره إلى أين هي ذاهبة فيعرف أين يجدها.

كان البئر بعيدا عن وسط القرية حيث تدور المعارك، ولو كان يومًا عاديًا، لاطمأنت مريم إلى أن الأنين والصراخ والأزيز والأصوات الآتية من بعيد ليست إلا أصوات حيوانات برية من كلاب وماعز وحمير وطيور وربما طلقات بنادق الصيادين. لكن ما تسمعه اليوم يلقي الرعب في قلبها الصغير، تنفجر القنابل فتزلزل الأرض، أما ما يعقبها من أصوات العذاب والألم فما هي إلا لبشر. بقيت مريم في مكانها داخل البئر، لا تتحرَّك طوال يومين، ولا حتى عندما وصل رجالٌ غرباء يتكلَّمون لغة غريبة لانتشال ماء من البئر.

(11)

الحرب غيَّرت الناس. أظهرت الجبن والشجاعة، وأنتجت الأساطير، فرويت حكاية أم جدتي، تلك المرأة الغريبة التي جبلت من الحب والحب فقط. لم تكذب ولو مرة واحدة في حياتها، وكانت في جميع أطوارها مثل عصفورة تغرد خارج السرب. تناقل الناس قصتها مرّات ومرّات، ومع تكرار الحكاية ما عادت تعرف بأم ممدوح، بل أصبحت أمّ سليمان، المرأة الباسلة من بيت دراس.

بدأت إرهاصات النكبة التي ستغير وجه فلسطين في سنة 1947 بتنفيذ عدد من المذابح بحق أهلها في كل أرجاء البلاد. أما معركة بيت دراس الحاسمة فوقعت في شهر أيّار من سنة 1948، وذلك بعد إعلان المهاجرين اليهود

الأوروبيين إنشاء دولة جديدة اسمها إسرائيل لتحلَّ محلّ فلسطين. تحوّلت القوات الإرهابية اليهودية إلى «قوّات الدفاع الإسرائيلية»، ودخلت تلك العصابات - كيفما تسمّى - بيت دراس بعد ساعات متواصلة من القصف المدفعي. جاءت كتيبة من الجيش السوداني لتشارك في المقاومة، لكنها وصلت متأخِّرة. اجتاحت النار الغابة وابتلعت البيوت في شمال القرية. غطت سحب الدخان الغليظ كل شيء بالسواد، ولفت الموتى بأكفان معتمة، وغزت رئات الأحياء، تركتهم يشهقون ويزفرون وهم في سكرات البحث عن النجاة يترنحون. عمّت الفوضى واشتدت بقصف لا مبرر له لأن بيت دراس تلاشت تحت ضباب الموت والهزيمة. أما من كان ما يزال فيها من أهلها فإمّا أنه قتل أو هرب أو وقع في الأسر ولم يره أحد بعدها أبدا.

تجمَّعت فلول الهاربين من القرى الأخرى في إحدى الطرق الرئيسة المؤدية إلى غزة. نجت الحجَّة أمّ ممدوح مع ابنها ممدوح وعطيَّة، والتحقوا بسيل اللاجئين. كان سليمان قد حال دون وقوعهم في الأسر. أمرت أمّ ممدوح الشابَّيْن أن يرتدي كلٌّ منهما عباءة نسوية، ثمَّ سحبت خيطين أحمرين من ثوبها وعقدتهما على رأسيهما. قالت: «سليمان لن يدع الجنود يرون شيئًا تحت هذين الخيطين. لكن أوعكم تقيموهم قبل أن تصلوا بر الأمان. وأوعكم يمّه تفكوا العقدة».

عندما خرج من مخبئه، كان ممدوح متخفيا في ثياب امرأة وعلى جبينه الخيط الأحمر، ينظر من تحت البرقع متأملًا هذا العالم الفظيع المتوحش. حرائق ونيران التهمت كل شيء ولفظته رمادا وكآبة، والتهب أنفه بروائح الخراب والموت، وتشرّبت رئتاه واقع دمار ناسه وبلده فراح يسعل. سرى غضب من رحم الأرض المتفحِّمة إلى رجليه، فبات يتخبط في مشيه حتى وجد نفسه في طابور عائلات ثلاث من النساء والأطفال، قبض جنود صهاينة عليهم وأمروهم بالتخلي عن كل ما يفرون به. رمت النسوة كل ما جلبنه في أكوام من الطعام والذهب والملابس وحتى الصور. وتمكّن ممدوح من المرور وقد

أنقذ الصورة الوحيدة لعائلته، تلك الصورة الغالية التي التقطها صحفي كان يزور بيت دراس أحيانا. وكان هذا يوم حاولت نظمية مباغتة مريم وهي تلتقي رفيقها المزعوم خالد عند النهر. يظهر ممدوح مطوقا بذراعه أخته نظمية التي وقفت بدلال وغنج، ويدها على خصرها. أمهم يلفها شرودها المعهود تقف في ثوب فلاحي جميل طرزته هي بمهارة فائقة. أما مريم التي ربما كانت في عامها الثامن فتبدو منهمكة في حديث عابر مع صديقها خالد، ذاك الصبي الذي ربما كان في عامه العاشر وتزين خصلة بيضاء سواد شعره. كان الاثنان يفترشان الأرض وقد تحلقا حول صندوق أحلام مريم الخشبي. عندما أعطاهم الصحفي تلك الصورة لم يستطع ممدوح ونظمية وحتى أمهما أن يتذكروا أن خالد كان موجودا معهم بالفعل حينها، وإلى أن أمسكوا بتلك الصورة كانوا يعتقدون دوما أن خالد ما هو إلا من نسج خيال مريم.

وسط جموع الفارين حملق ممدوح في الصورة، وهو يحاول أن يتلمّس الماضي، أن يُعيد عقارب الساعة إلى الوراء، لكن الخطى الذاهلة واصلت مسيرها إلى الأمام تغوص في مستنقع من الأسى. مشوا واجمين تاركين حياتهم وراءهم، فارين من غزاة ثملوا بكؤوس مترعة بأحقاد مغرقة في القدم، وسكروا بشراب يمزج الجشع والقوة بالدين.

تلبسهم الذهول وغشاهم الاضطراب من هول مصائر مباغتة لم تكن بالحسبان، أقدامهم تتحرك بلا وعي لقطع ما تبقى من الكيلومترات الخمس والثلاثين حتى غزة. تناهى إلى أسماعهم صوت طلق ناري آت من بعيد ثم زلزلتهم لجة من عويل نسائي ليس لها قرار. وسرعان ما انضمت قافلتهم إلى سيل عريض من بؤس إنساني يتدفق من شرايين القرى المنكوبة. بين الفينة والأخرى، يصوب قناصة متوارون عن الأنظار نيرانهم فيسقط الضحايا. ولم يكن ثمة من شيء يفعلونه سوى أن يحملوا القتلى والجرحى ويواصلوا المسير. اخترقت رصاصة ساق ممدوح فسقط وسقطت عنه العباءة، فحاول عطية المتخفّي بعباءة أخرى أن يحمله إلا أنه لم يفلح. جربت أم ممدوح دون

جدوى، فهي ليست بأقوى من زوج ابنتها. لكن سليمان ذو بأس وشدة، تلبس جسد أم ممدوح ورفع ابنها الذي يكاد وزنه وطوله يبلغ ضعف وزنها وطولها، ثم سار نحو غزّة مع جموع الفارين.

وفي الطريق كانوا شهودا على ما لحق بالقوات العربية من ذل ومهانة. فما تبقى من فلول الكتائب الهاربة كان يتوارى بعضه ببعض خجلا وقد جُرِّدوا من ثيابهم سوى ما يستر العورة. وبين حين وآخر، كان الصهاينة يطلون أيضا، يطلقون نيرانهم فوق البشر ليمنعوا من تسول له نفسه من العودة إلى بيته. وعندما صادفت جماعة منهم عجوزًا ضئيلة الحجم تحمل رجلًا جريحًا بين ذراعيها، بلا عناء، أمروها بالتوقُّف. استدارت وصوبت نحوهم بياض عينيها، فأشعل الخوف في أحشائهم جهنما. ضغط أحدهم على الزناد، فخرت مضرجة بدمائها وانطرح ابنها الجريح أرضا. تسمر الجنود في أماكنهم، تآكلت عظامهم، وتجمدت قلوبهم، امتقعت وجوههم ببياض الموت، ثم تفلقت عن لهيب التهمها وتركها متفحمة.

أما الجنود الذين هرعوا لإنقاذ قَتَلَة أمّ ممدوح فلم توفرهم النيران التي التهمت اثني عشر من جنود الدولة اليهودية الجديدة، وتركتهم بملابسهم العسكرية جثثا متفحِّمة تتمدد بقرب العجوز وابنها، هي ميتة وهو مصاب بجرح بليغ في ساقه.

لم يكن الفارون من بيت دراس بحاجة إلى من يفسِّر لهم سر ظهور تلك النار. فهم يعرفون أن سليمان هو من أشعلها. كان همهم الآن هو تعجيل المسير قبل وصول صهاينة آخرين للانتقام لتلك الجثث المحترقة. ألقى رجلٌ بما خف وزنه وغلا ثمنه من ممتلكات عائلته ليحمل جثمان أم ممدوح. فهم وإن كان بوسعهم غض الطرف عن الجثث الكثيرة التي سقطت على درب اللجوء الطويل فإن ترك صديقة سليمان تتعفن وتصبح جيفة لم يكن أمرًا مقبولًا. ألم يحارب الجني، فلم يكن إلى جانبهم؟

وفي تلك اللحظة سمع الفارون صراخ امرأة تصيح «ألوان»! التفتوا ليجدوا

نظميَّة وهي تركض نحوهم. كانت حاسرة الرأس، مهتوكة الستر، ملابسها ممزَّقة وملطَّخة بالدم.

(12)

حدَّثتني ستِّي نظميَّة عن كلِّ شيء في هذه الدنيا إلا عن اليوم الذي اختفت فيه مريم. إنه ذاك اليوم الذي انغرس فيه اسم «ألوان» في قلبها، ثم وبعد طول غراس قطفته وأطلقته على أمِّي.

حينما كانت غزَّة منارةً تضيء طرق التجارة بين شمال أفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا، كانت برمالها وخضرتها مركزا مهما لتجارة التوابل. ولم يكن على وجه البسيطة آنذاك، في العصور الوسطى، من تجارة نفيسة تضاهيها ربحا. كما عُرف أهل غزة منذ ألفي سنة قبل الميلاد بأنهم من أمهر الحرفيّين في صناعة المجوهرات. وغزة فوق ذلك، مدينة طالما اجتذبت النبلاء والحجّاج على مرِّ العصور، وكان لا بد للعلماء من كافة بقاع العالم من المرور بها وقطع «طريق البحر» للوصول إلى مكتبة الإسكندرية العظيمة.

غزة بشواطئها تلك كانت مقصد آل بَرَكة وغيرهم من القرويّين في أيّام الجمع للتنزُّه مع عائلاتهم. لكنّ الأحوال تبدَّلت الآن. مكانُ المرح والسباحة والشواء غدا مرتعًا للقلق والخوف والبؤس الذي كان يتبدّى في كل حركة من حركات نظميَّة، وفي كل محاولة للعثور على مريم بين حشود الناس. وعندما تمكَّنت من الاهتداء إلى مكان جيرانها وعرفت أن مريم لم تغادر بيت دراس تعمق شعورها باليأس. وبخت نفسها لأنها لم تجبر مريم على المغادرة معها، وصبَّت اللعنات على عناد أختها الصغيرة، وتصوَّرت نفسها وهي تجرّها من

أذنها عندما تجدها. إنها تعرف ما يتوجَّب عليها فعله، ولكن عليها الانتظار حتى حلول الظلام، حينها تنسل خلسة دون علم أصهارها، فهم سيمنعونها قطعا من العودة إلى بيت دراس. خلدت إلى النوم باكرا لتتقوى على أعباء قطع طريق العودة ثانية. لكنها استيقظت فزعة بين النائمين من حولها. حلم أجفلها ونبهها من رقادها. يا لعجبها! إنها وللمرَّة الأولى في حياتها تستعيد تفاصيل حُلُم من أحلامها. رأت بنتًا صغيرة تشبه مريم في ملامح الوجه، شعرها غامق ذو خصلات لولبية واسمها أجنبي، لكن عينيها ليستا متضاربتي اللون. عرضت عليها أوراقًا وقالت: «ستّي، هذه من خالد. أتودين أن أقرأها لكِ؟». أومأت نظمية بالإيجاب فقالت البنت الصغيرة: «تقول إن مريم تنتظركِ. وإنها خرجت من البئر».

رغم ما قطعته من وعد لعطية بانتظاره في غزة، بدأت نظميَّة رحلتها إلى بيت دراس تحت جنح الظلام. استلت نفسها وخرجت من بين كوابيس العائلات النائمة على الأرض.

كان الليل حالكًا وهي تغذ السير فوق الطريق الصحراوي إلى قريتها. ورغم لمعان النجوم في قبة السماء من فوقها، لم تكن ترى ما هو أمامها أو تحت قدميها. توقَّفت للصلاة، ركعت وسجدت بابتهال وخشوع، طلبت المغفرة، وتضرَّعت كي تجد أختها مريم على قيد الحياة. ثم توسلت في سرها لتبعد الأرض عقاربها ووحوشها عن دربها. وسرعان ما أبصرت في الأفق وهج نار، فاتجهت صوبها مقتنعة بأن الله ينير لها السبيل.

لم تكن نظمية وحيدة في طريقها، بل كان هناك آخرون. إنهم الفارون من أهوال القتل والدمار، يسيرون بعكس اتجاهها. كانت وسط الظلام تشعر بوجودهم كما يشعرون بوجودها. تعالى صوت امرأة متسائلة: «مين هان؟» هدأ روع نظميَّة وحمدت الله عندما سمعت اللهجة الفلاحية الفلسطينية، وقالت: «أنا راجعة لبيت دراس أبحث عن أختي». اقتربتا أكثر حتى صار بإمكان كلٍّ منهما رؤية الثانية. أبصرت نظمية صغارا يمسكون بتلابيب أمهم دونما صوت. تعانقت الغريبتان وكأنهما قريبتان التقتا بعد طول غياب. حذرتها المرأة من مغبة العودة

وحدثتها عن فظائع لا توصف وقعت في قريتها. قالت: «لن أستطيع حتى أن أخبرك بما يفعلون للنساء». لكنّ نظميَّة تمنَّت لها السلامة في رحلتها، ودعت كلٍّ منهما لنفسها وللأخرى قبل أن تذهبا في حال سبيلهما، إحداهما استجابة لنداء شاطئ غزّة والأخرى نحو النيران البعيدة.

أوشكت الشمس على البزوغ لدى وصول نظميَّة الى بئر الماء في بيت دراس. ذاك هو مكان مريم الأثير الذي تختبئ فيه عندما تلعب «الغماية» مع أطفال القرية. مدت نظمية عنقها في فتحة البئر، نادت أختها بصوت خفيض، فلم يجب نداءها أحد. وقفت هناك في حال يرثى لها، عطشانة، متَّسخة الثياب، متورمة القدمين وأنفها محشوٌّ بالرمل. جالت ببصرها وقد خفتت شدة الحرائق، فتبينت جنودًا ببزّاتهم العسكرية يتسكعون فوق الأرض المحترقة. أكثرهم فوق التل منهمكون في نهب البيوت الكبيرة. لم يصلوا بعد إلى حارة المصريين، لديها بعض الوقت إذًا لتشرب من البئر وتصل إلى بيتها دون أن يتنبه أحدهم إلى وجودها. فتَّشت في كلِّ الغرف، ورددت بهمس اسم أختها، لكن مريم لم ترد. بحثت في المطبخ والحمّام، ثم ذهبت إلى الكوة في الجدار بين المطبخ والغرفة الكبيرة، موقعهما المفضل لاستراق السمع. توقَّفت هنيهة، استبد بها الخوف. إنه آخر مكان يمكن أن تبحث فيه. يا ربّ، دعها تكن هنا!

وقد كانت. هناك على الأرض، مريم نائمة، متكورة على نفسها، بقرب صندوق أحلامها الخشبي. هبطت نظمية إلى الأرض واحتضنت أختها. هوى الخوف والإرهاق عن عاتقها، وشهقت بالبكاء قائلة «آه يا مريم يا حبيبتي».

استيقظت مريم، تشبثت بنظميَّة ودفنت دموعها في صدر أختها.

عبر النافذة شاهدتا الجنود يسمحون لبعض الأهالي بالرحيل بعدما استولوا على متاعهم وحليهم. تأملت نظمية خيرا. لقد كانت على صواب إذًا حينما توكلت على الله وقررت الرجوع. ستسير الأمور على ما يرام، ستعطيان الجنود كل ما لديهما وبعدها تمضيان نحو غزة. لن تعجز اليوم عن قطع الكيلومترات الخمسة والثلاثين مرة أخرى. ستكونان بأحسن حال. الحمد لله!

ضمت نظميَّة أختها بشدة، كأنما تريد أن تحتويها بين الحشى. قبَّلت وجهها، وسكبت دمعا شق خطين فوق السخام الذي يغطي خدود مريم.

لم ترَ أيٌّ منهما أو تسمع الجنديَّين حتى جذب أحدُهما نظميَّة من منديلها فخلعه عن رأسها. صرخت مريم فزعا حيث انفلت شعر نظمية الوحشي من عقاله، شهقت خصلاته النحاسية وزفرت، ثم أزَّت في الهواء مع استدارة نظمية الخاطفة لمواجهة المهاجمَيْن. الشرر الذي يقدح من عينيها أرغم الجنديَّين على التقهقر إلى الوراء، فتبادلا النظرات، ثم ابتسما. تكلَّما بلغات أجنبية، لا يبدو أن أحدا منهما يفهم ما يقوله الآخر. راحا يتفاهمان بالإشارة. وقفت نظمية أمام أختها، وخلعت أساور شبكتها الذهبية الثلاث. أخذها أحد الجنديين منها، لكنّ الآخر لم يكن مهتما بالذهب. كانت عيناه مسلطتين عليها. دنا منها، رفع خصلة من شعرها إلى أنفه، استنشق ما فيها من عبير وأسدل جفنيه. ثم قبض على رقبة نظمية من الخلف، دفع رأسها بقوة إلى أسفل، وراح يمرغ وجهها في ملتقى فخذيه.

وعندما أخذ الجنديّان يعبثان بجسدها ويمزِّقان ثيابها ويرغمانها على الاستلقاء أرضا ويعريان موطئها العزيز، أمرت نظميَّة مريم بأن تستدير وأن تغلق عينيها وأذنيها بكلِّ ما أوتيت من قوة. قالت لأختها محاولة طمأنتها إن الأمر سينقضي بسرعة وإنهما ستذهبان في حال سبيلهما. ظنت نظمية في قرارة نفسها أن بوسعها تحمل ما يجري.

لم تفهم نظميَّة ما صرخ به الجنديُّ آمرا قبل أن يقحم نفسه في حماها. صرَّت أسنانها لتطحن عذاب الاغتصاب حتى لا يفلت من فمها ويخترق أذني مريم.

«اصرخي!» صاح الجندي بلسانه الأعجمي وهو يكرر فعله فيها بوحشية وقسوة أكبر. «اصرخي! اصرخي!»، جذبها عن الأرض من شعرها، لكنّ نظميَّة لم تستوعب كلماته ولا رغبته في سماع صوت آلامها. وبدل أن تنصاع لما يريد، ظلت تواصل مواجهة الاعتداء عليها بما أمكنها من صمت. لاحظت

اختفاء مريم عن أنظارها ولم تدر أين ذهبت. أغلقت عينيها وسرحت بفكرها نحو زوجها عطيَّة، ذلك الرجل الجميل، ثم جاءت ذكرى ليلتهما الأولى معًا. حينها أيضا كتمت صوتها، لأنها تعرف أن أمَّه وأخواته ربما كن يسترقن السمع خلف باب غرفتهما الزوجية. انتبهت فجأة على ذلك التواطؤ الخبيث لذاكرتها، استفزها هذا الربط بين ليلة زفافها وما يجري لها الآن، طوحت رأسها بعنف لتنفض نجاسة هذا الجندي عن طهارة لقائها بعطية. لكن الجندي المغتصب ظن أن نظمية تحاول مقاومته فشعر بالسرور.

ثمّ حلّ الجنديُّ الثاني محلَّ الأوّل فحاول أن يدخل فيها من الفم، وأخذ يصفع وجهها صفعًا متكررًا ويأمر: «اصرخي! اصرخي!».

أبصرت عينيه فرأت شقَّين رماديَّين في كيسين من الشحم. شفتاه مبتلتان بلعابه، وجبينه يقطر عرقا. شدت على فكيها بإحكام فجن جنون الجندي، تركها وهو يهمهم في عجمته: «أعرف كيف سأرغم هذه القحبة على الصراخ!».

عاد وهو يجر مريم من شعرها. مثل دمية عرجاء دخلت وهي تضم صندوق أحلامها الخشبي إلى صدرها. التقت أعين الأختين للحظة طويلة لا نهاية لها، غير أنها لم تتسع ولو لكلمة واحدة قبل أن تدوي الرصاصة التي اخترقت رأس مريم دويا أبديا. سقط صندوق أحلامها الخشبي وتبعثر ما فيه أرضا. انطلقت صرخة وحشية من أعماق نظمية، من صميم يقين الحسرة بأن الشمس لن تشرق مرة أخرى في حياتها.

ضحك الجندي صاحب العينين الرماديَّتين. أطربته الصرخة التي عمل كلَّ ما بوسعه لانتزاعها منها، دفع الجندي الآخر عنها، وهجم على جسدها المدمى، وراح يعبث بتلك العربية ذات القوام الممتلئ، حتى كبّ نجاسته في أحشائها. ثم هبط عليها الآخر ممعنا في تدنيسها بينما كانت تحملق في مريم وسط بركة قرمزية تتسع حولها شيئا فشيئا. بإرادة لا تكل، ظلت تصرخ كما لو أن صوتها كان خنجرا يطعن الواقع ويمزقه تمزيقًا، كأنه لم يحصل، كأن مريم ما زالت على قيد الحياة.

ثم جاء جنديّان آخران، انتشيا بما أبصراه من فحش، جرّاها من شعرها لتتَّخذ وضعيةً جديدة. حتى خصلات شعرها المتحدية هزمت، وارتخت ببلل العرق والدم. أتى مزيد من الجنود وتناوبوا على الدخول والخروج من جسدها، وعلى خنق فتيلِ الحياة في جوفها حتى ما عادوا قادرين على الاستزادة. ظلَّت منطرحة أرضا، متحفِّرة الجوف. جفّت دموعها، وتخثّرت دماؤها، وراحت تسمع هسيس أنفاسها مستسلمة لصمت الرغبة في الموت، في أن يقتلوها هي أيضا.

ولكن فجأة تحرَّكت مريم. نهضت أختها الصغيرة من الجثَّة الملقاة أرضًا وجثت أمامها. رفعت مريم بحرص وجه نظمية الباكي برضوضه وكدماته، احتضنته بيديها الصغيرتين النحيلتين ورددت كلمات كانتا قد تبادلتاها ذات يوم: «يا حبيبتي يا نظمية، أنت ما في مثلك! أنتِ لستِ كبقية الناس، أنتِ أحسن من كل الناس، إياكِ أن تنسي كم نحبك. سنظل معًا دائما ولن تفرقنا قوة عن بعضنا البعض.»

فقالت نظميَّة من غير أن تتفوه بكلمة: «أنا لا أفهم. كيف تتحدثين معي؟»

«صار ما كان يجب أن يحدث. لكن هذه الحال لن تدوم. عندما يأتي ذلك الزمن لن تكون فيه ساعات ولا جنود ولا بلدان. يمحي الوجع والهزيمة والانتصار. كل الذي سيظل يا أختي هو الحب.» هكذا تحدثت مريم في حين أن جثتها كانت ممددة وسط بركة من الدماء.

حاولت نظميَّة أن تأخذ جسد أختها بين ذراعيها لكن طيفها نهاها قائلا: «دعيني هنا، لا أريد أن أترك بيت دراس. يجب أن تذهبي أنتِ الآن. خلّفي بنتًا وسميها ألوان. هيا قومي اذهبي!».

في هذه الأثناء، دخل ضابطٌ إسرائيلي وشاهد ما جرى، فأمر الجنود بترك المرأة العربية ونقل جثَّة الطفلة لتُحرق مع جثث أخرى. «هيَّا!»، قال لهم. أما نظميَّة فقامت بصمت، وبلا نظرة لأي أحد، ودون خوف، مندفعة بغضب بارد صارم لتجمع أوراق أختها ودفاترها وأقلامها. سترت أثداءها بصندوق مريم وما

تبقى من ثيابها الممزقة. وقفت بطاقة مستعارة، بينما سال المني والدماء على فخذيها، وابتعدت بخطى متعثرة دون أن تلتفت إلى الوراء.

بدا أن الجنود ما عادوا يحفلون بها، إذ لم يخاطبها أو يمسك بها أحد منهم، وما كانت تهتم لو أنهم فعلوا. جرجرت نفسها خطوة خطوة، قادتها كلمات أختها الصغيرة، كفًّا مريم على وجهها، نُضْج صوتها، وحنانها. عندما تنبهت إلى ما حولها كانت قد قطعت ستَّة كيلومترات من الطريق. وصلت حيث يلتقي مفترق طرق الفارين من القرى الأخرى صوب غزة. حينها رأت مجموعة تشتعل فيها النيران. وعندما اقتربت أكثر أدركت أنهم جنود صهاينة. رأت أمَّها وأخاها ممدوح ممدَّدين على الأرض. عطيَّة كان هناك أيضًا يحاول حمل أخيها. ركضت نظميَّة نحوهم، حاولت أن تنادي عليهم، لكنَّ صوتها ظلَّ حبيس حلقها. تبدد الغضب والعزم اللذان مكناها من قطع تلك المسافة. لم تعد ساقاها قادرتين على حملها. لكنها مضت قُدُمًا، وعندما تحرَّر صوتها من عقاله هتفت بوعدٍ من زمنٍ غير هذا الزمان ومكانٍ غير هذا المكان.

«ألوان!» هذا كلُّ ما صرخت به وظلَّت تصرخ به في وجه الريح إلى أن وصلت إلى ما تبقَّى من عائلتها.

II

ولكن عنف قصة أولئك الغرباء عن المكان أحرقت
أصول الأيام وهي غافية فوق التلال،
وراحت أمواج المتوسط تلعق جروح
تاريخنا على امتداد شاطئ غزة.

(13)

هلَّقت سنّي نظميَّة السماءَ كلَّ صباح، كأنما هي ثوب لازوردي، يتراقص مع هبوبِ النسيم على حبل غسيل.

تنقل اللاجئون هنا وهناك، يتخبطون لأيام بلا هدى في غزّة، وبدون خيام كافية. افترشوا الرمل مع الحجارة وهوام الأرض. أجسامهم المعتادة على العمل المضني والصلاة ظلت تستيقظ قبل شروق الشمس، لكنها لا تجد ما ينتظرها سوى حياة خاملة قُسِّمت أيّامهم فيها إلى خطوط وصفوف وطوابير رتيبة ومتكررة. يصطفّون كلَّ يوم لأداء الصلاة، ويصطفّون في طوابير الخبز ثم طوابير الحساء. وأجبرتهم ندرة الحمامات على الاصطفاف في طوابير لدخول المراحيض، حتى أن الصفوف شقت طريقها إلى أحلامهم. فعندما يتخيل بعضهم المقاومة يتصور أولًا الاصطفاف للحصول على سلاح ثم السير في صفوف جيش ثوري. ولما وصل موظَّفو الأمم المتَّحدة، اصطفوا في طوابير جديدة لتدوين أسمائهم في سجلّ اللاجئين. كانت حينها مجرد دفاتر سميكة، وفي المقابل حصلوا على «كروت المؤن»، تُخْتَم كلَّما نالوا نصيبهم الدَّوري من الصدقة. وحينما اتَّضحت حقيقة المصيبة التي حلَّت بهم مع مضيّ السنين، تشبث اللاجئون بكلِّ شيء يثبت انتماءهم كي يرثه أبناؤهم من بعدهم. وهكذا أصبحت كروت المؤن هذه وثائق تدلُّ على الهويَّة والميراث، بل وتجدها أحيانًا تزين بعض قاعات المتاحف.

عندما تركت نظميَّة مغتصبيها في ذلك اليوم المشؤوم من سنة 1948 دون أن يوقفها أي جندي، أدركت أنّ مريم كانت لا تزال معها وأن ما رأته لم يكن

هلوسة. لقد حمتها مريم. بدت على يقين من ذلك، ولم تشك أن أختها تسمعها فعلًا، ولهذا ظلّت تتحدَّث إليها باستمرار. في أول الأمر، احتار عطيَّة وهو يرى زوجته تتكلم مع لا أحد بينما هي منهمكة في التنظيف أو الاستحمام أو غسل الثياب. وبعد كلِّ صلاة كانت تقول: «حبيبتي مريم». وحين يقترب منها كانت نظمية تحذِّر أختها أن تغض نظرها كي لا تراهما يمارسان الحب. وبمرور الوقت، تعوَّد عطيَّة على الأمر حتى ظن أن مريم ربما تحمي عائلته من وراء الغيب. وكيف لا يتقبل هذا؟ ألم تذكره نظمية بأنه هو نفسه أصيب بالخرس عندما رأى سليمان؟

قالت له: «يعني يا رجل إذا كنتَ لا تسمع الشيء ولا تراه فهو غير موجود؟ والله لقد رأيت مريم وسمعتها ذاك اليوم مثلما أراك وأسمعك الآن. هي التي نجتنا من الموت يوم قتّل الصهاينة الناس تقتيلًا بعد أن أحرق سليمان جنودهم».

عندما ولد ابنها الأوَّل بعينيه الرماديتين، لم ترَ نظميَّة فيه سوى عيني مغتصبها، صرخت: «هذا ابن الشيطان. ما هذا البلاء؟ كيف أحب ابن الشيطان؟ أستغفر الله!». وضعت الداية الوليد ليرضع من أمه، لكن نظمية أبعدته عنها وأخذت تستعطف أختَها. «وآه يا مريم، قولي لي ماذا أفعل؟».

قالت الداية محذِّرة: «أعوذ بالله! هذه هلوسة من وجع الولادة، خلص يا امرأة، توقفي عن هذا الكلام قبل أن يموت الطفل من الجوع!».

التفتت نظميَّة ورأت شيئًا في زاوية معتمة، فتبسَّمت ابتسامة عريضة ثم ضحكت. أما الداية، وهي من بيت دراس، فتذكرت الحجَّة التي تغوَّطت في النهر وتحدَّثت مع الجن، فخمَّنت أن نظميَّة مثل أمّها، وأنها في تلك اللحظة تتحدَّث مع أحد من عالَم الجن. نظرت إلى الزاوية لعلها تُبصر ما تحدق به نظميَّة، لكنها لم ترَ شيئًا سوى صندوق خشبي فيه رسومات أطفال. حينها لملمت أغراضها، تمتمت بآيات من القرآن، وتركت المكان على عجل حتى أنها نسيت طلب أجرتها من الزوج الذي ينتظر في الخارج.

قمَّط عطيَّة ابنه البكر عاجزًا عن تهدئته، فحاول التحايل على نظمية لإرضاع

وليدها. مسَّد شعرها، حاول وضع الطفل بين ذراعيها، فلم تتحركا وظلتا على جفائهما مرتخيتين، فرد المولود إلى حضنه من جديد والجوع يعضُّ بنابه على الأب والابن معا.

«ماذا نسمي ابننا البكر يا نظميَّة؟ ما رأيك بمازن؟ هل تحبين أن تصيري أم مازن يا حبيبتي؟ الله يرضى عليكي قومي رضعيه».

فقالت: «سمِه إبليس».

كان عطيَّة يسير جيئة وذهابًا بتوتر، صراخ الوليد بين ذراعيه ينطلق من هوة الهجر والإهمال. وبعدما نفد صبره، حمل ابنه بيدٍ وهوى بالأخرى على وجه زوجته، صفعها بكلِّ ما أوتي من قوَّة. «وقسما بالله يا نظميَّة إن لم ترضعي الولد الآن لأرمي عليكِ يمين الطلاق!».

نظرت نظميَّة في وجه زوجها فرأت عيونًا من الصلب تحدّق بها وتلمع بالدموع. مدّت ذراعيها نحو الوليد، قربته ببطء من ثديها حتى التقمه بلهفة وعض عليه بنهم، فشعرت بالقرف والنفور. ولكن رضاعة الصغير سرعان ما استوت على إيقاع عذب، سرى في جوانحها وغمرها بسكينة دافقة. هدهدت أنغام الأمومة روحها المتعبة فتمايلت مع وقعها السحري. صار الاثنان واحدا، التحم الرضيع بالأم، وانحدرت دموع هادئة رطبت خدَّيها. عندها، أخذ عطيَّة يدها بيده، راقصت أصابعه أصابعها، مثلما كانا يفعلان في زمان ومكان لا يمكن استعادتهما، أوَّل خميس من كلِّ شهر. وفي وقتٍ لاحق، تحدَّثت إلى مريم قائلة: «الله يخليكِ ابقي معي يا خيتي!».

كانت نظميَّة أحيانًا تطلب من مريم إشارة على أنها مازالت موجودة معها. قالت مرة: «أنا أدري يا أختي أنكِ معي ولا تفارقينني!». كانت حبلى في شهرها التاسع بطفلها الرابع، تتحدث مع أختها وهي وتحمِّم أبناءها الثلاثة الذين لا يكبر أحدهم أخاه سوى بعشرة أشهر. كلُّهم كانوا صبيانا، لكن نظمية مع كل حمل كانت تتمنى من أعماقها أن ترزق بالبنت التي قدِّر لها أن تسميها «ألوان».

«أعطِني ولو علامة يا خيتي!». ثمَّ تفتح صندوق أختها الخشبي وتقلِّب

ما فيه من أوراق عليها ما لا تفهمه. في مثل تلك الأوقات كانت نظميَّة تتمنى لو أنَّها تعلَّمت القراءة. كانت تعيد الأوراق بعناية خشية أن تتمزق، ثم تضع الصندوق على أعلى رفٍّ، بعيدًا عن أيدي الصغار، وتخفيه وراء صفوف من الملابس المطويَّة.

عند حلول الوقت الذي وضعت فيه مولودها الخامس كانت معتادة على آلام المخاض. أصبح الأمر أشبه بقرص البرد أو لسع الحر، لا يطاق أحيانًا ولكنها تدري كنهه وكيف تتصدى له. ذرعت الغرفة جيئة وذهابا، فرفصت، دفعت مرارا وتكرارا حتى أصبح الجنين على أهبة الخروج. حينها سحبته الداية منها. حبست نظميَّة أنفاسها، ثمَّ سألت بلهفة: «بنت أم صبي؟»، صبي آخر. تنشقت هواء الغرفة، وعصرت وجهها، وشدت على عينيها، تغضَّن جبينها، وأخذت تفكِّر بحمل قادم لا بد منه حتى تبصر ابنتُها ألوان الدنيا. زَفَرَت خيبة أملها ببطء، ودعت الله أن يكون وليدها القادم بنتًا.

(14)

لم تكن أرملة النحال تمت لنا بصلة سوى الحب. كانت تلك المرأة العاقر سعيدة حيثما كانت، طالما تسنى لها أن تغرس يديها في خصوبة الأرض، أن تترك التراب واهب الحياة يعشش تحت أظافرها، وأن تتجاذب أطراف الحديث مع النباتات التي تزرعها.

حملق ممدوح في دفتر المؤن الذي أصدرته وكالة الأمم المتَّحدة لغوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا)، ويشير إليه على أنه رجل البيت وصاحب ممتلكات الأسرة. ولكن ما من بيت ولا ممتلكات، فهو يعيش في خيمة مع أخته نظميَّة

وزوجها وأولادهما ووالدي عطيّة. لكن ممدوح قليلًا ما يمكث هناك، بل ظل يفترش رمال الشاطئ ويلتحف السماء طيلة السنتين اللتين أعقبتا طرد أهالي بيت دراس منها. عثر على عمل في دكان حداد، وراح يعطي ثلث ما يكسبه لنظميَّة والثلث الثاني لأرملة النحّال، لإكرام الرجل الذي كان بمثابة والد له، وإن كان هناك سبب آخر أيضا. فخلال سنوات عمل ممدوح في المنحل، وقع هو وياسمين، الابنة الصغرى للنحّال، في الحب. لكنهما لم يعبرا عن مشاعرهما لا قولا ولا فعلا، إذ كانت مخطوبة ثمَّ تزوَّجت. وحتى بعدما قتل اليهود زوجها، لم يبح ممدوح وياسمين بما يعتمل في قلوبهما إلا عبر نظرات خاطفة، يتبادلانها كلما أتى ممدوح ليعطي النقود لأرملة أبيها.

كانت أرملة النحال امرأة مرحة تحبُّ الطبخ، وظلَّت كذلك رغم الحرب والتهجير ووجع الترمل والفقر. لم تكن زوجة النحّال الثالثة أكبر من ابنته ياسمين بكثير. في أيام بيت دراس، لم تكن من صلة قوية بينهما. أما بعد الحرب، فقد توثقت علاقتهما سيما وأنهما الناجيتان الوحيدتان من العائلة. كونتا معا بيتا دافئا قوامه جراح وفقدان مشترك، وشغف الأرملة بالطبخ وإعداد صنوف الطعام. قضت الأرملة أيّامها بين الطبخ والسعي وراء أفضل حاجيات طبخة الغد. ولهذا لم تكد أسابيعُ قليلة تمضي على انتقالها إلى حياة اللجوء حتى جمَّعت حطام قلبها وراحت تنقب الجوار عن بقعة تصلح لإنشاء حديقة صغيرة.

فيما بعد صارت تقطف ثمار جهودها للطبخ وتركيب علاجات من الأعشاب، أو لتقايضها بما تحتاجه. بادلت خضارها بحليب الماعز الطازج. كانت تخضُّه بمهارة لتصنع الزبدة، أو تسخنه قليلا فيتحول لبنا، أو تصفيه في قطعة قماش وتعد اللبنة، أو تتركه لفترة أطول وتحضر منه الجبن. قايضت الشمندر والملفوف والخيار والبطاطا بالدجاج والبيض. لم تعر أرملة النحال اهتماما لحال القابعات في خيامهنَّ، ممن شلتهن الصدمة والأوحال والمذلَّة. ظللن ينتظرن أخبارا في صحف الغد، ينتظرن موعد توزيع المؤن، أو أن يفعل أحد شيئا من أجلهن، ينتظرن أن يسقط المطر، أن تغرب الشمس، أن يعُدن إلى

بيت دراس. بل شغلت نفسها في الزرع والطبيخ، وبثت من خيمتها روائح الحياة قبل التشرد، إلى أن ألهمت الأخريات كي يشمرن عن سواعدهن في مساكنهن ولو كانت خيامًا. لم يطل الوقت حتّى صرن يتلملمن ويتجمعن كما كنَّ يفعلن في بيت دراس، يغسلن الثياب، يثرثرن، يلففن أوراق الدوالي، وينقّين الأرز مما فيه من حصى أو سوس. أما أزواجُهن فنصبوا لهن حبالًا لنشر الغسيل، وبنوا مطابخ جماعية، وحفروا طوابين. وفي الزحام الخانق الذي خلفته نكبتهم الوطنية وفجيعتهم الشاملة، التي ستتعمَّق حتى تصل جذور التاريخ وتمتدَّ لأجيال، عاد لاجئو بيت دراس إلى نكاتهم ونميمتهم. وبانتظار العودة، خلَّفوا أطفالًا وعقدوا زيجات. جرَّتْهم الطقوس اليومية التي تجعل الحياة ممكنة من فراشهم إلى الأماكن العامَّة، صلّوا هناك معًا، وشربوا قهوة الصباح، وشاي ما بعد العصر. ساوت الحرب ما بينهم فوضعت الجميع، مهما كان حَسَبهم ونَسَبهم، في خيام متشابهة، تنتصب في صفوف على مسافات متساوية وسط عراء لا ظل فيه. لعب الأطفال كلُّهم معًا، ولم يطل الوقت حتى صاروا يذهبون جميعا، صبية وبنات، إلى مدرسة تنعقد في الهواء الطلق أو داخل الخيم. وعاد الزُّعران، والقدّيسون، والنمّامون، والأمّهات، والمومسات، والأتقياء، والشيوعيّون، والأنانيّون، والعابثون، وكلُّ من لفَّ لفَّهم، إلى عاداتهم القديمة وهم يعيشون حياة غريبة ومصيرا ممسوخا.

ومع مرور الوقت، حلَّ الطوب وألواحُ الصفيح «الزينكو» محلَّ قماش الخيام، وترعرعت في مخيَّمات اللجوء ثقافة الكبرياء والتحدّي والإصرار الثابت على كرامة الوطن مهما عظمت التضحيات. وستصبح المخيَّمات من أكثر مشكلات العالم تعقيدًا، كما ستكون أيضا الرحم الذي سيلد بعض أعظم شعراء العرب وفنانيهم. وهناك، في قلب زحام هذا التشرُّد الوطني، أصبح بيت أرملة النحال مصدرا فواحا بالحياة، تهب منه روائح البصل وإكليل الغار والقِرفة والهال والكُزبرة على أرجاء المخيَّم فتستثير الذكريات والحكايا والآمال. ودائما ما يكتظ بيتُها في أوقات الطعام بالناس من جيران جدد وقدماء. وبالطبع كان

ممدوح يأتي مرّة في الشهر. يتقدم نحو البيت خجلًا، يحاول السيطرة على عرجه، ويبذل جهدًا كبيرًا في أن تبدو مشيته معتدلة ووقورة. فالرصاصة من أيّام النكبة اخترقت العظم وتوقّف نمو رجله المصابة بينما طالت الثانية عدة سنتمترات. الحشوةُ التي وضعها في فردة الحذاء ساعدته بعض الشيء، لكنها لم تكن كافية، وظلت مشيته غير متوازنة.

كانت أرملة النحّال تحضّر أصناف الطعام الذي يحبه ممدوح، تصنع حشوة من اللحم المفروم والأرز وتضيف إليها خلطتها الخاصة من التوابل، تحشوها في الخضراوات التي تلتقطها طازجة من حديقتها. أكثر ما يفضله ممدوح من صنيع يدها هو الكوسا مع مرقة البندورة المبهَّرة. كان سروره بالوقت الذي يقضيه في بيتها يوم قبض أجره لا يقل عن ابتهاجه بالنقود في جيبه، ولا لأنه يتمتع بأطايب الطعام فقط، بل لأنه يمنحه فرصة رؤية ياسمين. ومع أن حكايتهما ظلّت طي الكتمان، كان الجميع يعرف أن ممدوح سيطلب يد ياسمين بعد أن يوفّر قدْرًا كافيا من المال لبدء حياة زوجية مع ياسمين. ولهذا كان يضع جانبا الثلث الأخير من أجره. وقبل انقضاء السنة استطاع أن يجمع مالًا يكفيه للبحث عن عمل في القاهرة، حيث حصل على وظيفة بمعاش أكبر في شركة مقاولات. وقبل أن يغادر إلى مصر التي كانت تدير أمور غزَّة في ذلك الوقت، اصطحب أخته وزوجها لخطبة ياسمين. قدَّم لها مَهرًا متواضعًا قدْرُه مائتا جنيه مصري، ولبّسها الشبكة، قلادة وقُرْطين من الذهب. كما خلعت نظميَّة أحد السوارين الذهبيين اللذين اشتراهما زوجها تعويضًا عن تلك التي سرقها الجنود منها، ودستها بحنان في معصم خطيبة أخيها. تبارت النسوة في إطلاق زغاريد نشرت الفرح والحبور في نفوس السامعين وأعلنت للناس قبول ياسمين، فبدأ احتفال عفوي. كان الجيران قد التموا خارج بيت المخطوبة بانتظار الخبر، فكيف لأخبار كالخطبة والزواج أن تظل طي الكتمان في حي فلسطيني؟ وبالأخص الآن في المخيم حيث يعرف الجميع كل شيء عن الكل. استمر الرقص والغناء إلى وقت متأخرٍ من الليل، وأعلنت أرملة النحّال ونظميَّة

بوصفهما ممثّلتي العريس والعروس أن الخطبة الرسمية ستتمُّ في غضون أسبوعين، وأن ممدوح سيغادر إلى القاهرة وحده للعمل كي يجمع ما يكفي لحفل الزواج وبناء بيت جديد.

وعندما حلَّ موعد الخطبة الرسمية اشترت أرملة النحّال لحمًا بالدَّيْن على أن تدفع ثمنه من الخضراوات الطازجة. حضَّرت وليمة ضخمة، لحم خاروف مبهَّرًا بالكمون والقرفة وغيرها من التوابل، سدرًا من الأرز زينته بالصنوبر المقلي، أكوامًا من ورق الدوالي والكوسا المحشي، وأنواعًا شتى من السلطات والمقبلات. كانت وليمة تحدث عنها أهل المخيم لأسابيع، قالوا جميعا: «والله لا أحد يطبخ مثل أرملة النحّال». فرد ممدوح: «بالتأكيد، لأنها تطبخ من نفس طيبة وكريمة ومن قلب يعتز بهذه الأرض. الله يعطيها القوة». وكما هي العادة، شرعت الضيفات في النميمة على العريس فيما بينهن، عبرن عن رضاهن عنه، وقلن إنه اختيار جيد لياسمين، على الرغم من أنه أعرج وليس له أحد سوى أخته. لكن إحداهن زمت طرف فمها وغمزت من قناة نظميَّة. قالت: «بربكن، ما الذي تقلنه! ليس هنالك أوسخ ولا أزفر من لسان هذه المرأة الوقحة». فرَدَّت عليها جارتها: «الله يحمينا من لسانك. ما الذي فعلته لك تلك المسكينة؟ والله من أيام الحرب وهي هادئة مثل فأر تنجب ولدًا عقب الآخر. اسكتي واستغفري ربَّك. لن أسمح لك أن تعيبي على أم مازن بهذه الطريقة في يوم فرحتها بأخيها!»

(15)

وجد الفلسطينيون أنفسهم في صدمة اللجوء، يستثيرون الشفقة والاستغلال في أرجاء العالم العربي، حيث أخذت أبدع العقول الفلسطينية تعطي ثمارها للدول الأخرى. وبعدما كانوا فلاحين، أهل عز وكرامة، تحولوا إلى عمال يطاردون

لقمة الخبز في بلاد بعيدة عن وطنهم. جرف سيل العمالة الرخيص هذا جدّو ممدوح، أخو ستّي نظمية، وظلَّ بأخذه أبعد وأبعد.

في القاهرة، أقام ممدوح في سكن مشترك مع عمال فلسطينيين، يعمل على مدار الساعة دون كللٍ أو ملل. يستيقظ كل صباح مع أذان الفجر، يصلي ثم يتجه إلى عمله. وفي آخر النهار، لا يجد قوة في جسده إلا لشرب كوب من الشاي وتناول عشاء خفيف مع زملائه في المسكن، ثم يتهالك على سريره من فرط التعب. أحيانًا، يمكث صاحيًا يعد نقوده، يجمعها في محفظة صغيرة ويشدها على وسطه حتى يُعطيها لياسمين كي تحتفظ بها. وفي نهاية كل شهر، يأخذ إجازة ليومين ويسافر إلى غزة. وقبل وصوله بيوم، تقضي أرملة النحّال وياسمين ونظميَّة نهارهما في تحضير طعامه المفضَّل. كن ينتظرنه بينما يغلي الماء على النار ليستحم بماء دافئ فيستريح بدنه، فماء الصنبور في السكن بارد. وعلى حبل الغسيل تتدلى دشداشته القطنية التي غسلنها بأيديهن وقبَّلتها الشمس. وما إن يصل حتى تأتي سيدات قلبه الثلاث فيغمرنه بالقبلات ويلففنه بالبركات.

كان في كلِّ مرة يأتيهنَّ بهدايا وحكايا طريفة من القاهرة. حدَّثهن في إحدى المرات بأخبار وردت إليه عن الكويت، قال إن استكشاف النفط هناك أدى إلى بناء مدن وصناعات جديدة، وإن أهل البلد يدفعون للفلسطينيين كي يقوموا بكلِّ شيء، من بناء وتشغيل لمستشفياتهم ومدارسهم وحتى طبخ مأكولاتهم. وكان العديد من زملائه الفلسطينيين في القاهرة قد غادروا إلى الكويت وقالوا له كلامًا طيِّبًا عن ذلك البلد الصحراوي. ومع أنه يعلم أن أخته نظميَّة لا يمكن أن تترك فلسطين، وأن ياسمين قد لا توافق أيضا، قال: «ليتنا نذهب كلنا هناك». أما أرملة النحّال فكانت على استعداد للطيران إلى أي مكان تسوقها إليه الرياح ما عدا الصحراء، فتربتها لا تبقي على زرع أو ضرع. وما الكويت سوى صحراء بجانب البحر.

كانت نظميَّة حبلى بطفلها الخامس حين انتقل ممدوح وياسمين إلى

الكويت. وقبل أن يرحلا أمسكت بوجه أخيها ثم بوجه ياسمين، وقبَّلتهما فيما امتلأت عيناها بالدموع، ثم أعادت عليهما الكلمات التي زرعتها مريم في وجدانها: «سنكون دائمًا معًا».

ظلت نظمية الوحيدة من عائلتها في غزة، لكن شعورها بالوحدة هدأ بالعلم أن مريم معها على الدوام، وكذلك زوجها عطية الذي خاصم عائلته دفاعًا عنها. لم تحظَ بقبول عائلته أبدا، وبعد زواج إخوته اشتدت قسوة عصابة النسوة اللواتي تحزبن ضدها تحت لواء أمِّه، إذ لم تسامحه أبدا على زواجه من امرأة أدنى منه منزلة. قلن إن نظميَّة يتلبَّسها الجنُّ مثل أمِّها أم ممدوح المجنونة وإنها تستدعي الشرَّ حيثما حلَّت. وقلن إن لسانها السليط دليل على حلول الشيطان فيها، وإنها تهز مؤخَّرتها عن قصد عندما تمشي، وإنهن يشفقن على عطيَّة لتحمُّله مثل هذا العار. وقلن إنها لا تشد حجابها لأنها تريد للرجال أن يروا خصلات شعرها النحاسية المتمرِّدة.

لكن العزلة التي فرضنها على عطيَّة ونظميَّة قرَّبت الزوجين من بعضهما أكثر. فولد طفل وراء طفل إلى أسرة تعيش كفاف يومها، تقضي أمسياتها في عد الملاليم التي تجنيها من بيع غلة يوم من السمك. حياتها استوت على سوقها دفئا وحنانا إلى جانب ما فيها من رتابة وحماقات ودموع وطلبات. وعندما كان الأولاد صغارًا كانت نظميَّة تحمل اثنين منهم على ظهرها خلال انهماكها في أشغالها اليومية، وعندما كبروا أخذوا يرافقون أباهم، الواحد بعد الآخر، في زورق الصيد في البحر المتوسِّط. وهناك تربوا على مواجهة الصعاب وحمد الله على الخروج من بطن البحر في كل مرة. تنتظر نظميَّة على الشاطئ إلى أن يختفوا في عرض البحر، وتبقى أحيانًا لتحدِّق في الزرقة التي لا يُفهم كُنْهُها بين السماء والماء، وهي تدندن بأغنية مريم:

جذني
أنا في الأزرق

بين السماء والماء
حيث الزمان كلُّه الآن
ونحن الأبدية
نجري كنهر.

(16)

عندما تتحدَّث ستِّي نظميَّة عن أخيها ممدوح أو عن خالو مازن كانت عيناها تتغبَّران، كأنما تصبحان حجرتين مهجورتين، تدخلهما على عجل وتفرشهما بالحكايا. لم يكن ذلك مجرد حنين إلى الماضي، بل مهمَّةً من مهمات الذاكرة لتحتفظ بالأحباب.

عاد ممدوح وياسمين بعد ثلاث سنوات في زيارة ومعهما ولدهما، عمره سنة، سمَّياه محمد على اسم جده، نخّال بيت دراس. حملته نظميَّة، التي كانت بالطبع إما حبلى أو مرضعة، وصغارها يتعربشون عليها، ورَجَتْ أخاها أن يعود إلى غزة حيث يكبر الطفل مع أبناء خالته في وطنه. ومع أن غزة لم تكن بيت دراس لكنها لا تزال فلسطين على أي حال. لكن عمل ممدوح كان قد ازدهر في الكويت وارتقى من وظيفة عامل إلى مراقب بناء. وقد عوَّضته مهارته في الحساب وتقدير المسافات عن عدم كفاية تأهيله المدرسي. كان يتقن قراءة مخططات البناء والتخطيطات الهندسية، فاهتمَّ به مهندس معماري فلسطيني معروف وأخذه تحت جناحه في الكويت.

قال ممدوح لنظميَّة: «الفلسطينيون يعمرون الكويت من لا شيء، من الرمل. تصوَّري يختي! معلمي صمم خريطة البلد كلها. وفلسطيني آخر أسس الجيش،

وثالث أسس الشرطة. أحسن الأطباء والجراحين فلسطينيون. وهم تقريبا يديرون معظم وزارات البلد من التعليم للداخلية». توقَّف ممدوح قليلًا ثم أعلن متباهيًا: «وأنا أيضًا سأصبح مهندسًا معماريًا».

بعد سيل الأولاد الذي لم ينقطع، لم تكن نظميَّة تُرى أبدًا من غير أطفال متعربشين على ظهرها أو متشبثين بساقيها أو متدلين من صدرها. ومع أنها لا تكفُّ عن الشكوى من احتياجاتهم التي لا تنتهي، أوعن نشِّ الكبار منهم عندما يسرفون في طلباتهم أو يسيئون التصرُّف كنش الذباب، كانت كلَّما ذهبوا إلى البحر مع أبيهم تظل وراءهم كسيرة القلب. تنتظرهم على الشاطئ في وحشة غيابهم وهي ترقب تعاقُبَ الأمواج. أما آسرو قلب نظمية، زوجها وأولادها، فكان سحر الصيد في البحر يعني أيضا العودة إلى المرأة التي تنتظرهم بشوقٍ عارم، وتملأ بطونهم بطعامها الطيب، ولعطية فوق هذا ما شاء من صنوف العشق طوال الليل حتى ينام بجسد مرهق وقلب يطفح بالحب لها.

لكن ما كان يعكِّر صفو حياتهم هو ما يصيب نظميَّة من تعاسة عندما يغادرون. لذا قرَّرت العائلة في تلك الفترة، لما كانت غزة تحت الحكم المصري، أن يبقى أحد الأبناء الكبار في البيت عند ذهاب عطية في رحلات الصيد. وفي إحدى هذه المرات، حلَّ الدور على بكرها مازن، للبقاء في البيت حارسًا لأمه، مع أنه آنذاك لم يتجاوز الثانية عشرة. في ذلك اليوم انطلقت نظمية في مخيم النصيرات للاجئين كإعصار يثير الغبار ويبعثر كل ما في طريقه بغيظ، فتذكر كل من عرفها لماذا يتجنبون إغضاب نظمية.

كان مازن قد عاد قبل ساعة إلى البيت، جسده يهتز ودموعه تسيل، صوته يرتعش لهول ما سمع. واجه أمَّه بالسؤال: «هل اغتصبوكِ يمه؟ هل أنا ابن حرام يمه؟ قولي لي... هل أنا ابن أولئك الكلاب؟».

تجمَّدت نظميَّة في مكانها. تركت ما كانت تفرمه من خضراوات. نظرت في عيني ابنها، رماديَّتي اللون تكادان أن تكونا بزرقة سماء الصباح. بكرها الذي

أرضعته أكثر مما أرضعت سائر أولادها، ها هو الآن يقف على عتبة الرجولة. أخذته بين ذراعيها، امتصت ما يكابده من غضب وإهانة، قالت بصوت ملؤه الهدوء والحنان: «لا، غير صحيح. من قال لك هذا الكلام؟ ذكر لها اسمًا، فقالت: «أنا أعرف هذا الولد». خرجت من باب البيت ومازن في إثرها. لم تكن ثمة حاجة للمضيِّ بعيدًا، إذ سرعان ما رأت الصبي مع رفاقه. لما رآها فر راكضا، فنادت نظميَّة على الصبية وقالت: «الحقوه، والله إن أفلتموه لأقطعن آذانكم واحدًا تلو الآخر». انصاعوا لأمرها خوفًا من غضبها الأسطوري الذي يعرفه كل الناس. حين وصلت إلى الصبي الذي كان يتلوى متملصًا من قبضة رفاقه، أمسكته من أذنه وأخذت تضربه بالشِّبشِب. وكلما علا صوت بكائه ازدادت ضرباتها شدة. تجمَّع الناس، وتقدَّم رجل ختيار طالبًا من نظميَّة أن تتوقَّف، فقال: «وحِّدي الله يا امرأة!» أجابت: «لا إله إلا الله!» ثم توقَّفت، إذ لم يكن بوسع أحد - حتى نظميَّة - مخالفة الأعراف التي تقتضي احترام الكبار. ولكن صراخها على الصبي لم ينقطع وأصرَّت على معرفة اسم من أخبره بذلك الكلام القذر الذي ينشره بين الناس.

في مساء ذلك اليوم جاء الصبيُّ وأمُّه وجدَّته إلى بيت نظميَّة. وذكَّرها سلوكه المتردد باليوم الذي جاء فيه عطيَّة إلى بيتهم في بيت دراس، ولسانه منعقد من رؤيته لسليمان. ابتسمت نظميَّة ودعتهم لشرب الشاي.

قالت الأم: «يا أم مازن، إبني أخبرني بما حدث. وأنا هنا لأقول لك شيئين: إن كنتِ لا زلتِ تريدين ضربه فلا مانع عندي وهذا حقك. والشيء الآخر هو أن ما قاله لم يأتِ به من دارنا. بل الداية هي التي جاءت بهذا الكلام، وهو سمعها تقول إنك لما ولدتِ مازن سمعتك تصرخين بأنه ابن الشيطان».

فقالت نظميَّة وهي تقدِّم الشاي: «تفضلن، تفضلن. أنا أعرف كيف أتصرف مع الداية، حسابها عندي عندما يرجع زوجي وأولادي».

حفاوة الاستقبال الذي اعتاد عليه عطية وأولاده حلَّ محلَّها هذه المرَّة

ذلك الأمر المستعجل. فقد استُدعي المختار لتسوية المسألة التي سببتها القصّة الرهيبة التي تنشرها الداية. وانتظر الناس عودة عطيَّة على أحر من الجمر. اجتمع الرجال: عطية، والمختار، وزوج الداية، وعدد من الشيوخ. استهل اللقاء بشرب القهوة وبتعبير زوج الداية عن الأسف، مؤكدًا لعطيَّة أنه لقَّن زوجته درسًا لن تنساه، وأنه يأسف لطول لسانها الذي لوَّث سمعتهما معًا. وعرض على عطيَّة إحدى أساور زوجته بغية إصلاح ذات البين، فلم يكن لديهما شيءٌ آخر يقدِّمانه. وكان رأي المختار أن يقبل عطيَّة العرض لإنهاء الخلاف، فقَبِلَه فعلًا. ثم تصافحا واحتضن كلٌّ منهما الآخر تعبيرًا عن الأخوَّة، وانتهى اللقاء بشرب الشاي وأكْل الحلويّات. وفي اليوم التالي ذهبت نظميَّة إلى السوق وقد وضعت السوار الجديد على رسغها، وظلَّت تتباهى به على مدى أسبوع لتُعَلِّم الداية درسًا قبل أن تُعيده لها بكرم كسبت به احترام الداية وولاءها الدائم.

لم يجرؤ أحد أن يشير إلى المسألة ثانية، وأنكرت الداية أنها كانت تضمر أيَّ سوء لنظميَّة. وسرعان ما نسي الناس الموضوع، لكن الشكَّ كان قد انزرع في قلب مازن الفتيِّ، فولَّد فيه إحساسًا عميقًا بالعزلة، ونبضا شرسا نحو الانخراط في المقاومة الوطنية. توقَّف عن الذهاب مع أبيه في رحلات الصيد منشغلًا بحماية أمه ورعايتها.

(17)

كانت ساقا ستّي نظميَّة تتعطلان عن الحركة أحيانًا، فتضطرُّ للتوقُّف عما تقوم به إلى أن تصحَّا من جديد. يستمرُّ هذا الشلل الفجائيُّ بضع دقائق، وأحيانا بضعة أيام. طمأنتها امرأة خبيرة بالطبّ الشعبي، فقالت لها إن الملائكة تحرسها، وهي تمنع ساقيها من الحركة عندما تريد منعها من الوقوع في طريق

الأذى. صدقت جدتي ذلك، فمريم ملاكها الحارس، وسيأتيها البرهان خلال حرب الأيام الستة.

كانت نظميَّة حُبلى بالابن العاشر عندما هاجمت إسرائيل مصر سنة 1967. اشتعلت حرب لم تدم سوى ستَّة أيّام، وجلبت جيلًا جديدًا من الجنود الصهاينة الذين انتشروا في أرجاء غزة بعنجهية الغزاة المنتصرين. أوَّلُ جنديٍّ منهم رأته نظمية عن قرب كان يرتدي نظاراتٍ بإطار أسود سميك، بخبث عسكري يختبئ خلف براءة متعسفة. وجهه اليافع يعلوه طفح القوَّة وتغطيه قذارة الغزاة، يصوب فوهة بندقيَّته باستعلاء صاحب النهي والأمر. كان عطيَّة وبعض أبنائه الكبار قد قبض عليهم مع رجال آخرين ونقلتهم شاحنة إلى مكان بعيد. ولهذا لم تكن نظميَّة برفقة أحد سوى صغارها الذين كانوا يتشبثون ذعرا بأطراف ثوبها عندما ظهر ذلك الجندي الذي عوى آمرًا إياها بالسير. تملَّكها غضبٌ كامن فتحركت لتهجم عليه، لكن ساقيها لم تستجيبا لها فهوت أرضا قبل أن يطلق الجندي النار عليها. انطوت ساقاها تحتها، وبقيت غير قادرة على المشي ثلاث سنوات. ولم يكن لدى نظمية، وقد صارت في الأربعين، شك في أن الجندي كان سيرديها قتيلة لا محالة لولا تدخل مريم لإنقاذها. جاء الجيران وحملوها إلى المكان الذي أمرهم الجنود بالتجمع فيه، وهناك راقبت نظمية انهماك الجنود المتشابهين بقبعاتهم وبزاتهم العسكرية المشؤومة وبساطيرهم، وكأنهم أبناء كلبة صهيونية واحدة، ينهبون البيوت، ويغتصبون البنات، ويقتلون الأولاد، ويحرقون الأراضي، ويخلقون زمن الانحطاط العربي من جديد.

ذُهل الكلُّ وقد تلطَّخوا بعار ثان، وغضبٍ جديد، وخوفٍ عاد ليملأ القلوب. راقب الناس عبر تلفازاتهم ذاك الجيش اليهودي من بولنديين، ونمساويين، وألمان، وفرنسيين، وبريطانيين، وإيطاليين، وروس، وأوكرانيين، وإيرانيين، وغيرهم، يدخلون القدس ويهدمون أحياء غير اليهود. لحظة صدمت العالم وشرخته إلى نصفين، قسمٌ منه اهتز طربا وآخر غرق في النحيب.

بكى الفلسطينيّون، لكنَّ الدموع دائما ما تجف أو تتحوَّل إلى شيءٍ آخر. ومع مرور الوقت، استحال الوضع الشاذ إلى حال معتاد، يتحملون الوحشية اليومية التي يمارسها الجنود الإسرائيليون وكأنه ثمن المضيِّ في العيش، لكن الناس أيضًا ثابروا وقاوموا.

كانت ساقا نظميَّة ما زالتا مشلولتين حينما ولدت ابنها الحادي عشر، وهو ما أشعل النميمة وسط أهالي المخيَّم وأكد ظنونهم بخبرات نظمية التي لا تبارى في سرير الزوجيَّة. استرجعت نساء المخيم كيف تخلى عطيَّة عن عائلته بالكامل من أجلها، وأنه لم ينظر إلى أيِّ امرأة غيرها، ولم يفكِّر حتى في اتخاذ زوجة ثانية كما فعل آخرون. وحتى ونظمية مشلولة الساقين، وجدت مع عطية وسيلة للحمل بولد آخر! أرَّقت بال نسوة المخيم أسئلة لم يجرؤن على طرحها. كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ حاولن أن يتصوَّرن وضعيات حميمية بتفاصيلها، وبدأ البعض منهنَّ يلتمسن من نظمية النصح في شؤون المخدع ومغامرات الجسد.

معظم نساء المخيم كن يعتبرن أنه من البركة وحسن حظ المرأة أن تلد اثني عشر صبيا، لكن نظمية كانت كسيرة الخاطر لأنها عجزت عن حمل البنت التي وعدت بأن تسميها «ألوان». بكت عندما أخبرتها الداية أنها رُزقت بولدٍ آخر. شعرت أن رحمها قد تمزَّق وأن لا حياة في ساقيها. تحرق قلبها شوقا لرؤية مريم بينما ضمت مولودها الجديد إلى صدرها ليرضع. تنهدت تنهيدة عميقة، حاولت أن تنفث ما بصدرها من ضنك السنين وتعبها، ثم راحت تحدِّث أختها التي لا يبصرها أحد. أما الداية التي تعودت على هذيان صديقتها عقب كل ولادة، فانشغلت في غلي المشيمة لتصنع منها ما تعالج به أمراضًا شتى، بدءا من الإنفلونزا وحتى العقم. لقد كان رحم نظميَّة الخصيب يدر مالا وفيرا على الداية، فالاعتقاد الساري بين الناس هو أن رحم نظمية مبارك.

خاطبت نظميَّة الأثير المحيط بها قائلة: «مريم! هل ترينني يختي؟ قولي لي ماذا أفعل الآن؟ قد أموت إذا حملت وولدت مرة أخرى، والله يختي حلمات ثديي لم تجف منذ عشرين سنة». لم يتمكَّن أحد من فك لغز توقُّف ساقي نظميَّة

عن الحركة أو كيف عادت قادرة على المشي ثانية. ومهما كان تفسير ذلك فإنه ليس بالأمر المهم، إذ أن كثرة القصص والتفسيرات زادت من الغموض الذي يلف شخصية نظمية لدى الناس ويحولها يوما بعد يوم إلى أسطورة.

(18)

أخيرًا، تحقَّق الوعد في الحمل الثاني عشر لستّي نظميَّة بمولد أمي. وكانت سنة ميلادها هي التي عاد فيها جدّو ممدوح، أخو جدتي، من الكويت ليقول إنه سينتقل وعائلته إلى أمريكا، في ولاية تسمى نورث كارولاينا. لم تكن ستّي تعرف أين يقع هذا المكان، إلا أنها تعلم أنه أبعد عنها من القاهرة. وكان أحد أبنائها آنذاك قد خطب عروسًا ونوى السفر إلى السعودية للعمل. وهكذا، فإن العائلة أخذت تتباعد وتتفرَّق بدلًا من أن تعود وتتجمَّع. رأت ستّي أن عقد فلسطين يتبعثر بينما تتجمَّع أوصال إسرائيل وتتلملم. صادر الإسرائيليون التلال وبنوا مستوطنات يهودية على أخصب الأراضي. اقتلعوا الأغاني الأصلية من جذورها، وزرعوا أكاذيب في الأرض لكي تنمو حكاية جديدة مزيفة.

ضمَّت نظميَّة جوهرتها الغالية ألوان، الطفلة الموعودة، إلى صدرها. «ها هي يا مريم! ها هي يا خيتي، أخيرًا وصلت بالسلامة يا حبيبتي»، تمتمت نظمية بينما كانت الداية تسحب المولودة ثم تلملم المشيمة وتنظِّف المكان. اضطجع عطية إلى جانب زوجته، وراحا يفعلان ما يفعلانه دائمًا مع كل مولود جديد. عدًّا أصابع اليدين والرجلين، فتشا عن أي وحمة أو علامة فارقة، استودعا ذاكرتهما كل التفاصيل حتى التافه منها، وراحا يتخطيان عتبة جديدة من عتبات الحب.

قالت نظميَّة: «والآن خلص! لا تطلب مني أن أنام معك مجددًا، الله يعطيك العافية يا أبو مازن. ألوان جاءت، الحمد لله، والآن أغلقت الدكان».

فتبسَّم عطيَّة وقال: «هذا ما تقولينه الآن، لكن كلانا يعرف أنه ليس لكِ غنى عن ذلك الأمر. ثم ما الذي ستقولينه لسيل النساء العرمرم اللواتي يأتين طلبًا لنصائحك الغالية؟ وفوق هذا أقول من باب الوطنية يعني، إذا تعففتِ سينقص عدد الفلسطينيين. ثم كيف سنحرر فلسطين؟».

فضحكت نظميَّة وقالت: «خلص سأعطيك قليلًا من ذلك الشيء فقط من أجل عيون فلسطين».

كانت المقاومة في غزَّة تنمو وتزداد قوة حيث تهرب الأسلحة ويتدرَّب الفدائيون في منظمة التحرير. ومع حلول العام الأوَّل من عمر ألوان، تمكَّن الفدائيون من تدمير عدد من خطوط الغاز التي تغذي بعض المستعمرات اليهودية مما تسبب في ارتباك الإسرائيليين. وبعد انتهاء منع التجوُّل الذي دام ثلاثة أسابيع، قررت نظمية الاحتفال بنجاح تلك العملية في حفلة عيد ميلاد ألوان التي كانت على أهبة تعلم المشي عند شاطئ البحر.

أشعل الأولاد نارًا لشيِّ السمك والخضراوات. كان اثنان منهم قد خطبا وجلبا خطيبتيهما معهما، أما مازن الذي بلغ العشرين ولم يخطب بعد، فكان إخوته يمازحونه بالقول إنه «تزوَّج المقاومة»، مثل ياسر عرفات. افترش أفراد العائلة بطَّانيّات مدوها فوق الرمل، دخَّن بعضهم، ضحكوا، وراحوا ينصتون لأنغام الأمواج، فماء البحر البارد لا يصلح في هذا الوقت للسباحة. كانت من حولهم عائلات خرجت هي الأخرى تسرِّي عن نفسها بعد طول مكوث في البيوت بسبب منع التجول. لاحظوا جماعة من الرجال يمشون بلا عوائلهم، والجنود يقفون كالعادة بترصد وخبث في نقاطهم العسكرية.

قال عطيَّة: «لا يوجد ما هو أجمل من البحر غير مَرَتي نظمية».

ردت نظميَّة بدلع وسخرية: «ماذا تريد؟ لا بد أنك تلف وتدور لتصل لشيء ما».

فابتسم ونفث دخان النرجيلة من فمه وغمزها بعينه: «الآن، في الوقت الحاضر، لا أريد غير سيخ سمك مشوي».

فنظرت نحوه بغنج ومدت يدها لتعطيه سيخ السمك، فرأت خلفه مجموعة من الرجال يتَّجهون صوبهم على مهل. سأل أحد أبنائها أخاه إن كان يعرفهم. كانوا غرباء، ولم تعرفهم نظمية هي الأخرى. ابتسم أحدهم محيًا ثم خاطبهم بلهجة فلسطينية خالصة: «مازن عطية، سلام يا خوي! كيف حالك؟»

صمد مازن في مكانه، وهب إخوته على الفور وأحاطوا به، ووقف عطيَّة بقامته الطويلة، وأمر نظميَّة بأن تبعد الصغار، فلربما بدا هؤلاء الغرباء من سكان المنطقة وقد تكون لهجتهم فلسطينية بالفعل، لكن الفلسطيني الأصيل لا يحيي رفيق النضال أبدا وهو بصحبة عائلته. وإن كان لا بدَّ من التحية، فإن التقاليد تقتضي طرحها أولًا على الأبوين أو على الجمع من الحاضرين. لكن هؤلاء الرجال ذكروا اسم مازن عن قصد. ظنوا أنه سيرد عليهم التحية فيعرفون من هو بين الحضور. عندما أدركوا أن قناعهم قد سقط، أخرجوا مسدساتهم بسرعة وراحوا يركضون ويصرخون بأصوات نابحة، ويهددون العائلة. صرخت الخطيبتان طالبتين النجدة، وهرولت نظميَّة تلملم صغارها المذعورين من قصور الرمل التي كانوا يبنونها. جمعت نساء العوائل الأخرى أطفالهن على عجل، بينما تجمَّع الرجال في استعراض يائس للقوة مع وصول المزيد من الجنود الذين داسوا على الطعام، وقلبوا النراجيل، ودفعوا أحد الإخوة، فوقع فوق جمر الشواء، فتردَّد عويل حروقه فوق الأمواج. عندئذٍ ومن بين الفوضى انبثق تَحَدٍّ ملؤه عزم وتصميم. كان ذاك مازن، فقد قفز لحماية أبيه في المشاجرة. وضع أحد الصهاينة مسدسا على رأسه، فخمد الضجيج وتسمر الجميع في أماكنهم تحسبا. أما مازن فلم يجد الخوف سبيلًا إلى قلبه، فشعر بامتلاء صدره بشجاعة طالما اشتهى أن يكون من أصحابها، أو لعلها مثَّلت ضعف تعلقه بالحياة وقبوله المتهور بالموت.

صاح «هذا!» وهو يلطم صدره بشدَّة مع كلِّ كلمة نطق بها فمه: «مجرَّد

هيئة! هذا جسد فقط!». رماد عينيه يقدح بالتحدي، وسوادهما يعلن امتلاك المصير. حتى أن مهاجميه تجمَّدوا حائرين في تلك اللحظة المترددة بين حياة ومجزرة.

أدرك الناس أن الإسرائيليين عرفوا حينها أنهم أمسكوا بصيدٍ ثمين. فإن كانوا غير واثقين من قبل، فقد أصبحوا الآن متأكدين من أن مازن هو من خطَّط لنسف أنابيب الغاز. وبينما راح الجنود يدفعون الآخرين بعيدًا ويشدون وثاق مازن، ظل صوتُه يجلجل فوق كل الأصوات: «أطلقوا النار! رصاصكم لن يقتلني، بل سينهيكم أنتم عندما تقتلون هذا الجسد الفاني!».

ران على المكان شيء من السكون رغم ما يشهده من دفع وجر وتكبيل وشدٍّ وضرب. كأن الهواء ركد فجأة وتعلَّق بأهداب الموقف الذي وقفه مازن في ذلك اليوم. وكأن الشمس أحجمت عن الغوص في كبد السماء وراحت تصيخ السمع. في تلك اللحظات، تيقن الجميع من أن مازن كان أحد قادة المقاومة السرِّيَّة، وأدركوا أن تحديه ورفضه الاستسلام بهدوء يعني أن اليهود سيعذِّبونه أكثر.

«رصاصكم عاجز عن قتل إنسانيَّتي! لا يستطيع قلع جذوري من هذه الأرض التي تريدونها لكم! لا يمكن أن نترككم تسرقون أرضنا وبلادنا! مهما بقيتم هنا، ستظلون غرباء! سارقين! محتلين!»

حاول الجنود جر مازن وهو معصوب العينين ومكبَّل اليدين. رأت نظميَّة انتفاخ أوداج ابنها وهي تحاول دفع الجنود عنه لتخليصه من قبضتهم. كان ما شعرت به من الحب يعجز فضاء الشاطئ كله عن أن يتسع له. حاولت بكل ما لذلك الحب من قوَّة استدعاءَ مريم في سرها، بينما كانت تجأر إلى الله بالدعاء ليحمي ابنها، ويسلمهم جميعًا من بطش هؤلاء الشياطين.

سدد أحد الجنود عقب بندقيته وضرب مازن بين الضلوع، ضيَّق مازن عينيه من فرط الألم لكنه لم يصمت. عانى الجنود الأمرين وهم يحاولون جرَّه بعيدًا، كأن قدميه أوتاد ضاربة في رحم الأرض. ألهمت شجاعة مازن البعض، فحاولوا

منع اختطافه. انضم المزيد إليهم وراحوا يصرخون: ««الله أكبر! الله أكبر!».
أطلق الإسرائيليون نيران بنادقهم باتجاه الجمع، فسقط عدد من الرجال بينما أسرع الجنود نحو مركباتهم مع سجنائهم. لكن صوت مازن ظل يهدر حتى وهم يدفعونه إلى مؤخرة الجيب: «كذبوا عليكم! قالوا لكم إن القوة في السلاح، لكن القوَّة ليست في البواريد. أصحاب القوة لا يطلقون النار على النساء والأطفال! كلُّكم موتى في داخلكم، وأرواحكم الخاوية هي التي ستقضي على هذه الدولة العسكرية الظالمة».

أسرع الإسرائيليون بالابتعاد بعدما قتلوا أربعة، وجرحوا أحد عشر، واختطفوا ثمانيةً من أبناء فلسطين وبناتها في ذلك اليوم. وقف الناس على الشاطئ الذي يتربع على مفترق بين قارات ثلاث، وحيث ازدهرت تجارة التوابل والبخور قبل ميلاد التاريخ. لم يكن هناك الآن سوى عويل أمَّهات يندبن ثمن نُبل المقاومة الباهظ ودماء على الرمال لن يطول بها المقام قبل أن يغسلها المد القادم. «الله أكبر! الله أكبر!»، هتفوا ثم انهمكوا فيما تخلفه الهزيمة التي لا تنتهي من أعباء غليظة. ضمَّدوا الجرحى، غسَّلوا القتلى تمهيدًا لدفنهم، هدأوا من روع الأطفال، عادوا إلى بيوتهم، صبُّوا اللعنات على اليهود، أعدوا وجبات عشائهم، وحاولوا في نهاية المطاف أن يجدوا للنوم سبيلا. ألهبت حكاية مازن عطية، ابن نظميَّة، خيال الناس، وشغلت الهواتف وهيمنت على أحاديث المقاهي. قلَّبوا في رؤوسهم ما قاله مازن، هم أكبر من الرصاص حتى وإن اخترق أجسامهم، واليهود أصغر لأنهم يستخدمون بنادقهم في القمع والطغيان.

تناقل الناس قصَّة تحدي مازن للجنود الإسرائيليين المسلَّحين على شاطئ البحر، أعادوها وكرروها، وفي كل مرة يبالغ فيها حتى أصبحت أسطورة محليَّة. تأكَّد الخبر بأن مازن كان أحد قادة المقاومة السرِّيَّة. وخوفا من انهياره تحت وطأة التعذيب وانتزاع الإسرائيليين اعترافات منه، تحوَّط عددٌ كبيرٌ من رفاقه في النضال واختفوا. لكن الإسرائيليين لم يأتوا في طلب أي منهم. وهذا أكد للناس أن مازن صمد ولم يعترف بأسماء رفاقه، وتعمقت بطولته. تحدَّثوا عن شجاعته

المبهرة في ذلك اليوم فولَّدت في نفوسهم شيئا من العزة والكرامة. وبعد ثلاثة شهور، لم يستغربوا عندما وُجِّهت لمازن تهمة التآمر ضدَّ دولة إسرائيل، وأدين بناءً على أدلَّة سرية، ثم حُكِمَ عليه بالسجن المؤبَّد. حينها بدأت نظميَّة تستدعي سليمان لتطلب عونه.

III

تبعثر المصير في لا مكان وتناثرت بعض
القطع في المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ.

(19)

لم نتكلَّم، نور وأنا، إلا في أحلامها، ولكنني أعدتُها إلى موطنها، ثم أعدتها إلى موطنها مرة ثانية. كانت نور هي الحلقة المفقودة في حياتنا، الملقط الأخير الذي تحتاجه ستّي نظميَّة عندما تعلِّق السماء على حبل الغسيل. ومثل خالتي مريم، كانت نور أيضًا ترى وهج الألوان.

لم تتألق الشمس ذلك الصباح في شارلوت، بولاية نورث كارولاينا، وكأن اليوم لم يكن مستعدًّا بعد للنهوض. فكان المطر الذي يدُّق على سطح البيت يصب قطرات زهرية وصفراء في قلب نور، حيث يغدو الصباح رماديًا رطبًا، مثل وهج جدِّها. لكن ما إن تهادت على الدرج حتى أشرق وجهه لمرآها.

قال لها مبتسمًا وهي تقف ببيجامتها، تفرك عينيها بيد وتحمل دبَّها «محفوظ» بالأخرى: «صباح الخير يا حبيبتي.»

قالت: «صباح النور جدو. اليوم هو السبت، يعني سنتناول بانكيك بالشوكولاتة على الفطور». قام جدها على الفور من كرسيه ومشى. كم تحبُّ نور مراقبته وهو يتحرك كبطريق، يغزُّ رجله في الأرض دون عصاه أو فردة حذائه العالية. لديه ساق سليمة، أما الثانية فأقصر، لأن جنديًا شريرا أطلق عليها رصاصة فأصاب «غُضروف النمو». كان لمشيته إيقاعٌ خاص، يمد القصيرة فينحني، ثم يعلو ليخطو بساقه السليمة. يمشي، فيصعد ويهبط، إلى أعلى ثم إلى أسفل، يتمايل من جنب الى آخر، ثم يترنح قليلا للأمام والخلف في إيقاع بدا لنور وكأنه أغنية.

قال: «ماذا سنفعل اليوم يا حبيبتي؟» ثمَّ حملها وتهادى إلى المطبخ على أنغام مشيته.

«جدو، هيا نذهب إلى حديقة البط ونركب القارب الذي نحركه بأرجلنا بالبدالات ونطعم البطابيط وتخبرني كيف أصيب عظروف النمو وتشتري لي لو سمحت بوظة، لنذهب أيضًا إلى محل الخزاف لنلون الألعاب الصغيرة وأيضًا...»

«طيب، كل هذه الأشياء بالكاد سنستطيع أن نفعلها في يوم، وجدك الختيار يحتاج لنومة وسط النهار. ثم يا حبيبتي اسمه غُضروف النمو وليس عُظروف».

تصوَّرت نور غضروفا خزفيا حسن التلوين داخل ساقه. كان ينتابها القلق أحيانا من أنها قد تكسر غضروف نموها هي الأخرى.

أجلسها إلى طاولة الإفطار وعاد بالبانكيك. ليس من أحد يشاركهما الطعام إلا دبُّها، عينه اليمنى زر أخضر خيطته جدتها ياسمين حتى تتطابق مع عيني نور. إحداهما خضراء والأخرى عسلية بلون البندق. كانت جدتها ياسمين قد ذهبت إلى الجنَّة قبل مدة لم تكن نور واثقة من طولها. يومها وعدت جدَّها عندما وجدته يبكي على الأريكة أنها ستعتني به كما كانت تفعل جدتها. أما الآن فكان جدُّو هو الذي يعتني بمعظم الأمور. كانت تعرف كيف تحضر رقائق الذرة، وهي الوجبة التي يتناولانها عندما تصرُّ على تحضير العشاء. ولكن أهمَّ الأشياء التي عليها أن تتعلَّمها هي الكلمات حسبما قال جدها. كانت في الخامسة من عمرها، ومع ذلك فإنها قادرة على قراءة كتبها المصوَّرة.

سألت جدَّها: «جدو، هل كان بابا يأكل بانكيك بالشوكولاتة؟ وماذا كان يفعل محفوظ وقتها؟»، سألت ذات السؤال كلَّ سبت، وجاوبها جدها الجواب نفسه.

« كان يحبها كثيرًا يا حبيبتي. كل يوم سبت عند الإفطار كنا نحضر بانكيك بالشوكولاتة، ومحفوظ كان يجلس على الأرض بجانب الطاولة، ويظل يشمشم وينتظر أن نعطيه قليلًا مما نأكله، لكننا لم نكن نعطيه شوكولاته لأنها ليست جيدة للكلاب، كنا نطعمه طعام كلاب فقط.»

«ولماذا مات محفوظ يا جدو؟»

«لأنه عندما تكبر الكلاب وتختير تموت وتذهب إلى الجنة».

«يعني بابا كان كبيرًا وختيارًا؟»

«لا يا حبيبتي. يعني أحيانًا تحصل حوادث... دعينا نتحدث عن أشياء حلوة فقط في يوم البانكيك بالشوكولاتة. طيب؟»

فكَّرت في جوابه بينما ساقاها تتأرجحان تحت الكرسي. «طيِّب. اسمع. هذا شيء حلو»، ضمَّت نور شفتيها ونفخت محاولة التصفير.

«يا عيني! ما هذا! شطُّورة! سمعتها ولو أنها صفُّورة صغيرة!».

قضمت قطعة كبيرة من البانكيك، فانتفخ خداها. راحت تمضغ وهي تؤرجح ساقيها. سألت دون أن تعبأ بما في فمها من طعام: «جدو، لماذا بابا لم يكن يرى ألوان الناس مثلي؟»

«أكثر الناس لا يستطيعون رؤيتها يا حبيبتي. وأنتِ تعرفين أنني أيضًا لا أستطيع رؤيتها».

«أعرف، أعرف، لكن لماذا؟ يعني كيف تقدر أن تعرف إن كان أحد زعلان وغضبان منك إن لم تكن تستطيع رؤية ألوانه؟»

هنا ابتسم جدها ابتسامة زهرية رائعة حواشيها موشاة باللازورد، وقال: «يا حبيبتي لا أحد يستطيع رؤية الألوان مثل ما ترينها أنتِ إلا أناس قليلون جدًا. أختي مريم كانت مثلك. هذا شيء مميز، ما رأيك أن نبقيه سرّا بيننا ولا نحكي عنه لأحد؟»

بينما كانا يفترشان الأرض قرب بركة البط في المنتزه العام تكوَّمت في حضن جدِّها وقالت: «جدو هيا احكي لي كيف أصابوا عُظروف النمو في رجلك».

كان جدُّها يرغب في سرد تلك القصة وعشرات غيرها من قصص بيت دراس مرَّات ومرَّات على مسامعها، فهو كان مسرورًا لما تبديه من فضول. أراد لها أن تعرف وألا تنسى أبدا ذلك المكان الذي يسكن قلبه ويضرم فيه نارا للشوق لا تخمد أبدا. أصرَّ كذلك على أن يتحدثا باللغة العربية فقط. قال لها ذات يوم: «القصص مهمَّة يا نور، كل شخص يتكوَّن من قصص، وقلب

الإنسان مصنوع من الكلمات التي توضع فيه. لذلك إن قال لكِ أحدهم يومًا كلمة سيئة فلا تسمحي لها أن تدخل قلبك. وأنتِ أيضًا إياكِ أن تقولي كلمات سيئة وتجعليها تدخل قلوب الناس».

فقالت بإلحاح: «جدو لا تقلق هذه المرة لن أخاف. أرجوك، أخبرني كيف أصابوا رجلك».

«طيب حبيبتي، لكن متى شعرتِ بالخوف أخبريني وسأتوقف.».

عدَّل جدُّ نور الروب الذي كان يرتديه ورشف رشفة من قهوته. كان كلما خرج متنزها يغلي القهوة فوق طبَّاخ غاز صغير يذكره بأيّام شبابه في بيت دراس، حينما كان الطعام يُطهى على النار في العراء. تنفس جدها بعمق بنفس كأنه من زمنٍ مضى، وابتدأ حديثه: «لم يكن أمامنا إلا أن نهرب، قاتلناهم لكن سلاحنا كان قليلًا وسلاحهم كثيرًا. لم نقدر عليهم ولا حتى عندما جاء جنود من السودان - هذا اسم بلد يا حبيبتي - حتى يساعدونا. لذلك ما كان أمامنا غير أن نترك بيت دراس مع بقية الناس. كنت أنا وأمي فقط...».

«وسليمان؟ ألم يكن معكم؟»

«نعم، طبعا سليمان كان معنا. لكن سليمان ليس إنسيًّا مثلي ومثلك، يعني هو شيء مثل الملاك لا يستطيع أحد رؤيته غير أمي، إلا في ذاك اليوم، جميعنا رأيناه».

اتَّسعت حدقتا نور وقالت: «كان ضخمًا وكبيرًا جدًّا جدًّا، ثم دخل بدن ستّي، أمك. رآه الكل، خافوا وصاحوا واااو، صحيح؟»

ابتسم جدُّها وقبَّل رأسها. «انتظري قليلًا، لا زالت القصة في بدايتها، لم نصل إلى هذا الجزء بعد. كان الناس يأتون من كل الجهات صوب الطريق التي تذهب لغزّة. ونحن نمشي كنا نسمع صوت الرصاص من بعيد. وفجأة خرج لنا جنود أشرار، صاروا يطلقون الرصاص فوق رؤوسنا لكيلا يدعونا نرجع لبيوتنا في القرية».

«لماذا فعلوا ذلك يا جدو؟»

«لأنهم سرقوا بلادنا».

«هل يمكنهم أن يسرقوا أمريكا أيضًا؟»، انقبض جبينها فتبسم جدها. قال لتطمينها: «لا تخافي حبيبتي أولئك الجنود لن يأتوا هنا. دعيني أكمل القصة، لم أدرِ ما حدث، ولم أحس بشيء، غير أني فجأة انتبهت أنني لا أستطيع المشي على رجلي، وقعت على الأرض. عرفت أن رصاصة أصابتني... في غضروف النمو. وهكذا توقفت رجلي عن النمو وظلت أقصر من أختها».

قالت نور: «أنا يا جدو أحب مشيتك»، وتابعت بسرعة قبل أن يجيبها جدُّو وفمها يفترُّ عن ابتسامة عريضة: «وأعرف أن هذا يفرحك.»

«مزبوط، لكن تذكري أن تدعي موضوع رؤيتكِ للألوان سرًا بيننا لأن الناس لا يفهمون هذا الشيء».

«وأنا يا جدو مثل ما علمتني سرّي في بير».

«سرّك في بير عن كل الناس مثل ما علمتك إلا عن جدك الختيار، مزبوط؟»

فقالت نور باندفاع: «أنت أبدا مش ختيار.» أمارات البكاء التي ارتسمت على محيَّاها فضحت ما جال في خاطرها عن محفوظ، الكلب الذي مات حين تقدَّم به العمر وأصبح ختيارا.

فسألها جدُّو: «يعني لو أنني ختيار فعلًا هل كنت لأستطيع أن أفعل هكذا؟» قالها وهو يدغدغها ويطرب لضحكتها التي تعمُر قلبه.

«ماذا حدث بعد أن أطلق الأشرار النار على الغُظروفه؟»

على هذا المنوال كانت أيامهما تمر، يعبران إلى زمن بيت دراس ويخرجان منه. وتصغي نور إلى حكايات جدها عندما كان شابًّا يُدعى ممدوح ويتدرَّب عند النحَّال وله أختان وأمٌّ قادرة على الاتصال بالجن.

(20)

أتاحت الغربة في أمريكا منافع مهنية ومادية لجدو ممدوح لم يكن بوسعه أن يحصل عليها في أي مكان آخر، إلا في الأحلام. قال لياسمين إن أمريكا «بلدٌ عظيم»، ولكنها لم تكن مقتنعة بهذا تمامًا. أما هو فكان مؤمنا بذلك رغم أن الغربة جعلته أجنبيًا يعيش دوما خارج المكان. كما أن الغربة خطفت منه ابنه الوحيد مرتين، عندما اقتطعت الوطن من قلبه وشوهت لسانه بالعجمة ثم إثر موته في حادث سير. كان عزاؤه الوحيد أن ياسمينه لم تعش لتحيا ألم دفن ابنهما الوحيد.

عندما وُلدت حفيدة ممدوح أحب لو يطلق عليها ابنه اسم مريم تكريمًا لأخته الحبيبة. ولو كان ممدوح وياسمين رُزقا بنتا بعد ابنهما البكر لسمياها مريم. لكن ياسمين نجت من صراعها الأوّل مع مرض السرطان باستئصال رحمها. وهكذا بقيت هناك كلمات وحكايات وأمنيات تحاول العثور على مكان لها في الجيل التالي. حاول ممدوح وياسمين أن يشرحا ذلك لابنهما. ترجَّياه، وقالا له إن تسمية حفيدتهما مريم - أو أي اسم عربي على الأقل - تعني الكثير لهما.

استجدت ياسمين ابنها قائلة: «لا أعرف لماذا تصر على حرماننا من هذه الفرحة الصغيرة يا مُحمَّد».

«ماما، لو سمحتِ نادِني مايْك!»

«يا ولد! اسمك مُحمَّد لأنني أنا أمك التي خلفتك وسمتك! ما الخطأ الذي ارتكبناه في هذه الدنيا حتى تنكر أصلك هكذا وتتزوج امرأة تقيسنا بنظراتها من فوق لتحت وكأننا أدنى البشر. يكفي! عد لرشدك يا ولد!». نادرًا ما كانت ياسمين على هذا القدر من الشدَّة، لكنها كانت تشعر أن الموت يزحف على

أطراف أيامها، وهذا غيَّر كلَّ شيء في حياتها. تابعت توبيخها لابنها وكأن حرارة غضبها وفجيعتها ستبثان فلسطين في عروق ابنها: «الذي ينكر أصله ليس رجلا.»

كالعادة، أجابها بالإنجليزية «لهذا يصعب الكلام معك. كل حوار ينتهي بالدراما العربية والشعور العربي بالذنب الذي لا نهاية له.»

قالت: «لماذا يا ولدي؟ لماذا تهينني يا بني؟ والله لم أُربّك على هذا. لماذا تخجل من أهلك وأصلك وعروبتك؟ أنت في آخر المطاف، مهما فعلت ستظل عربيًّا.»

فقال: «سأستشير زوجتي في الموضوع»، ثم غادر.

رفضت زوجة محمد، وهي قشتالية من مدريد، منح ابنتها اسمًا عربيًّا في بادئ الأمر. سعت هي وزوجها لمحو إرثه التعيس من حياتهما. لماذا إذًا تقبل باسم عربي لابنتها؟ وما شأنها بسعادة أمه؟ فأمه ستموت قريبا على الأغلب وبعد وفاتها سيظل الاسم العربي يذكرهما بما يرغبان في نسيانه أصلا. وفوق هذا كله، ألا يكفي ما يجره اسم كاسم محمد من منغصات العيش في بلد كأمريكا؟ ولِمَ تكرر المأساة لتعاني ابنتهما هي الأخرى في المستقبل؟ قالت: «ما مشكلة العرب؟ كأنهم يحبون دراما المعاناة ليتمكنوا من اتهام الآخرين بالذنب».

«أعرف ذلك يا حبيبتي. ولكن كان عليك أن تراعي حالة أمي. أسلوبها مختلف هذه المرَّة، وكأنها تحسُّ بأن نهايتها قريبة».

توصلا أخيرًا إلى تسوية. اسمُ مريم مرفوض جملة وتفصيلا لأنه يمنح أهل زوجها قدرًا من السيطرة. لكنها تقبل بأي اسم عربي آخر شريطة أن يكون اسم ابنتها الأخير هو اسم عائلتها هي.

اقترحت ياسمين اسم نور، لأن تلك الطفلة كانت نور حياتها، ولما توفيت بعد سنة على ميلادها لم تكن تدري أن لقب نور حياتها هو ڤالدز.

(21)

جاء وقتٌ استسلم فيه جدو ممدوح لليأس بعد وفاة زوجته وابنه. لم يبقَ له أحدٌ سوى نور، ولم تكن أمُّها على استعداد لأن تسمح له برؤيتها ثانية. رجاها وبكى أمامها كالطفل. ثم كلف محامين لمتابعة القضية في المحكمة. في النهاية حصل بالمال على ما يريد. كلفه ذلك كلَّ ما يملك، كلَّ ما جمعه وعمل جاهدًا لتوفيره. حصل على نور، وكان ذلك يكفيه. ثمَّ اتصل بأخته، ستّي نظميَّة، ليخبرها بأنه سيعود إلى البلاد أخيرًا.

عندما حلَّ موسم البَرْد وبدأ الثلج بالهطول، طبخت نور وجدُّها حساءهما الخاصَّ الذي يحضِّرانه كلَّ عام، يضعانه في وعاء كبير ويُجمدانه في أوانٍ أصغر، فيحصلان على وجبات عشاء لذيذة طيلة الشتاء. ولما صار البرْد الذي أصاب الجدَّ يجعله يسعل سعالًا أشدَّ من ذي قبل، قررت نور أن تعمل على خدمته. كانت تعرف استخدام المايكروويف، وصارت تقف على كرسي لتتمكن من الوصول إلى الحساء المجمَّد في الثلاجة. شعرت بأنها أصبحت مثل الكبار تقدر على تحضير وجبة العشاء وجلبها لجدها حين يمنعه مرضه من ترك السرير، يجلسان معا فيه حيث يلعبان بعض الألعاب أو يقرآن الكتب أو يشاهدان التلفاز أثناء الأكل. وعندما يرن منبِّه الساعة مُعلنًا موعد الصلاة، كان جدُّها ينزل من سريره لإقامة الصلاة معًا.

في ذلك الشتاء، وإثر وصول الوثائق القانونية التي تمنحه الحق في حضانة حفيدته، اتخذ الجدُّ قرارين مهمَّين: أولهما أن الوقت قد حان للعودة إلى فلسطين. كان قد اشترى تذكرتي سفر وتمنى أن يتمكَّن من بيع سيارته قبل حلول موعد السفر بعد ثلاثة أسابيع. وثانيهما أن يشرعا في تنفيذ مشروعهما الجديد ليُتمَّاه بسرعة. قررا أن يكتبا معًا قصَّة حب بعنوان اختارته نور: «جدُّو وأنا». طلب منها

جدُّها أن تكتب عن الأشياء المفضَّلة التي أنجزاها معًا. فرسمت وأملت عليه ما أرادت كتابته لأنها لم تكن تعرف بعد تهجئة كل الكلمات. ملآ صفحات بقصص زياراتهما إلى متنزَّه البط، وضمَّناها رسوما لنور تصورهما معًا في زورق صغير، وثانية يظهر فيها جدُّو وهو يدفع حفيدته على الأرجوحة عند القلعة القريبة من ملعب الأطفال، وأخرى يقرأ فيها الجد لحفيدته قصص ما قبل النوم. ظهر الدبُّ محفوظ في معظم الرسوم، وكتبت نور قصة خاصَّة عن عينيه المكوَّنتين من زرٍّ أخضر وآخر بنّي. وخُصِّص فصلٌ كامل لصباح يوم السبت الذي يُقدَّم فيه البانكيك بالشوكولاتة، وفيه رسم لقطع شوكولاتة ضخمة وإلى جانبها غرْفةٌ من الآيسْ كْريم. كانت نور واثقة من عدم وجود بنت صغيرة غيرها في العالم تتناول الآيسْ كْريم صباح كل سبت. كان الأمر بمثابة مكافأة تجعلها تأكل الخضراوات طوال الأسبوع بطيب خاطر. أما بعض الفصول فكرست للماضي المحفوظ بالأبيض والأسود، ألصقا هناك الصورة الوحيدة التي يمتلكها الجد من تلك الأيام.

سألت نور: «هل حقًّا هذا أنت؟»

«أيْ نعم، عندما كنت شابًّا.»

«ساقاك يا جدو مثل بعضهما البعض.»

«صحيح، لأن هذه الصورة كانت قبل أن أصاب.»

«هذه مريم؟»

«نعم، هي بعينها.»

«كنت متأكدة أنها هي!»

«وهذه أختي الثانية، ستّك نظميَّة. وهذا الولد الصغير... هذا أمره غريب! لا أحد منا كان يتذكر أنه رآه يوم الصورة، لكننا كنَّا نعرف عنه ونظن أنه وهمي. المهم، اسمه خالد، كان صديق مريم».

«أنا أعرفه يا جدو. أحب هذا الخطَّ الأبيض في شعره».

حدَّق جدها في الصورة جيدًا ومسحها ليزيل ما قد يكون عليها من غبار، وقال: «والله لم أنتبه لشعره إلا الآن».

وبعد مُضيِّ أسبوع على البدء في كتابهما، تراجعت حالة جدها. لم يعد قادرًا على النزول من سريره حتى للصلاة، فاضطر للبقاء في المستشفى. كان ذلك هو الوقت الذي التقت نور بنزِنْغا، إحدى موظفات قسم الخدمات الاجتماعية، التي أخذتها لتعيش مع عائلة ترعاها إلى أن تتحسَّن حالة جدها. في كل يوم، كانت نور تذهب إلى المستشفى مع نْزِنْغا، تلك المرأة الطويلة الجميلة، تلفُّ رأسها بقطعة قماش زاهية الألوان تسمَّى «جيلي»، وتتكلَّم بطريقة مضحكة لأنها - حسبما قالت - وفدت من بلدٍ بعيد اسمه جنوب أفريقيا. وخلال رحلاتهما اليومية في السيارة إلى المستشفى، حفظت نور بعضا من لغة الزولو وعلَّمت نْزِنْغا بعض العبارات العربية. قضت معظم ساعات النهار في المستشفى تتحدث مع جدِّها وتتابع العمل معه في كتابهما. وحين ينام جدها، تمضي وقتها في الثرثرة مع الممرضات، أو تكبيس كل الأزرار التي سُمِح لها بكبسها، من آلات بيع الساندويتشات والعصائر إلى المصاعد. كما كانت يوميا تلقي على أسماع موظفي المستشفى، على اختلاف مهماتهم، تفاصيل آخر تطورات كتابها، وكذلك تفعل مع نْزِنْغا عندما تعود لاصطحابها إلى العائلة التي ترعاها.

ولمَّا كبر حجم كتابهما بما فيه من قصص وصور ورسوم، اقترحت نور على جدها أن يضعا قائمة بالكلمات الطيبة التي يحسن بقلب كل منهما أن يضمَّها. فقال جدها: «يا سلام ما أجمل هذه الفكرة يا نور!» ثم أشرق وجهه بلونٍ أصفر بهيج فرحت نور لرؤيته، إذ أن تجلي الألوان المشرقة لها بات أقل مما كان عليه. كان جدها قد أخبرها أن أخته مريم أيضًا توقفت عن رؤية الألوان عندما كبرت، لكن قدرتها تلك تعود إليها عند اللحظات «العاطفية المؤثرة.» وعندما سألت عن معنى ذلك قال لها جدها إن الأمور العاطفيَّة هي ما يجعل قلبها يشعر بدفء أكبر، ونبض أسرع، أو بأنه سيقفز من صدرها. وكذلك تلك الأمور التي تشعرها بغصَّة في حلقها أو برغبة بالبكاء. استرجعت نور كل تلك الأمور العاطفية وسألت جدَّها عن أي منها شعر إزاءها بأهمية وضع قائمة الكلمات للتعبير

عنها. فأجاب: «أحسست أن قلبي يخفق ويطير عاليًا في السماء. أنا دائمًا أحس بذلك عندما تكونين حولي يا نور».

وضع كلٌّ منهما قائمة للآخر. بدأت هي، لكنَّ رصيدها من الكلمات نفد بعد: «لطيف، مضحك، أغلى الناس على قلبي، أحسنهم».

قرأ جدها قائمته: «جميلة، مُحِبَّة، نور حياة جدها».

قاطعته بلهفة: «أنت أيضًا لك هذه الكلمات. هل يمكن أن نقول عن الأولاد إنهم جميلون؟ أريد أن أضع هذه الكلمة في قائمتي».

«نعم يا جدو، يمكن أن نقول عن الأولاد إنهم جميلون. قولي لي يا نور، هل ترين أن جدك الختيار جميل؟»

«طبعًا يا جدو! أنت جميل كثيرًا خاصَّةً عندما تمشي من دون العكازة ومن دون حذائك ذي الكعب العالي».

تابع الجدُّ الكتابة ببطء، وبيدٍ ترتعش: «ذكيَّة، حنونة، عطوفة، حريصة على مشاعر الآخرين وحاجاتهم».

«أنا أيضًا...أقصد أنت أيضًا. أريد أن أضع كلماتك في قائمتي. علِّمني كيف أكتبها يا جدو. يا سلام كم أنت ماهر في هذه اللعبة يا جدو!»، ثمّ تبسَّمت.

بدأ جدها نوبة من السعال، وكبس على الزر الذي ينبه الممرضة لتأتي. كانت نور تحبُّ أن تفعل ذلك، ولهذا كان جدها يخبرها في العادة عندما يحين الوقت فتضغط ذلك الزر بنفسها. ولكن يبدو أنه نسي هذه المرَّة. أتت الممرضة وطلبت منها أن تنتظر خارج الغرفة. هذا ما تفعله كلما احتاج جدها للبيبِّي أو الككَّا. كانت قهقهات نور تعلو من فرط الضحك كلما تخيلت أن جدها يعمل ككًّا.

هُرع عددٌ من الممرضات إلى غرفة الجد. مكثن مدَّةً طويلة ومنعنها من العودة إلى غرفته. ظنَّت أنه ربما كان يواجه عمل واحدة من تلك الككَّات الصعبة التي تأبى النزول، حيث لا بد من الدفع بشدة.

قال لها أحد العاملين في القسم: «لم يحن وقت دخولك غرفة جدك بعد. لم لا تذهبين وتجلبين شيئا من آلة بيع العصائر والسندويتشات؟»

فقالت متباهية: «سأذهب بالطبع. أعرف كيف أستعملها بنفسي.»

أخرجت نور لنفسها كيسا من رقائق البطاطا. ذهبت إلى كنيسة المستشفى تتفقد الأب دوغلاس، لكنه لم يكن موجودا. مكثت في الكافيتيريا بعض الوقت. ساعدت العاملات في وضع المأكولات على رفوف البيع. ظلت هناك حتى حان وقت المغادرة. وبعدما صعدت ونزلت في المصعد عدة مرَّات، مصرَّةً على كبس الأزرار لجميع ركابه، سمعت نْزِنْغا تناديها: «نور، وأخيرا عثرت عليك! كنت أبحث عنك في كل مكان. علينا أن نذهب إلى العائلة التي ترعاك».

فقالت نور: «هاي، نْزِنْغا. عليَّ أن آخذ كتابي وأغراضي أولًا».

فقالت نْزِنْغا: «لا داعي، لقد أحضرت كل أغراضك معي، انظري»، فتحت كيسًا بلاستيكيًّا فأطل منه كتابهما المربوط بشريطٍ أزرق.

فقالت نور معترضةً: «كلا، عليَّ أن أذهب لوداع جدو أولا». شعرت بشيء غريب في داخلها، انقباض لم تعهده من قبل يستولي على قلبها، يتحرك باتجاه حلقها ويعصره كالغصة.

قرفصت نْزِنْغا فصارت وجها لوجه مع نور. قالت: «أخشى أن يكون ذلك غير ممكن يا ملاكي الصغير».

لم يعد بإمكان نور أن ترى الألوان المحيطة بالأشخاص كي تعرف إن كان قولهم طيبًا أم خبيثًا. كبرت الغصَّة وعلقت في حلقها. ارتعش ذقنها واغرورقت عيناها بالدموع. عجزت عن النطق بأي كلمة، ولم تدرِ لماذا.

سارت نور باتجاه باب المستشفى وهي تُمسك بيدها الصغيرة يد نْزِنْغا. ثم التفتت بدافعٍ غريزي إلى الخلف كي ترى إن كان جدُّها قد خرج من غرفته ونزل في المصعد وجاء إلى الردهة لوداعها. لكنه لم يكن هناك، وذلك آلَمَ قلبها. أوجعها بشدة فتجمدت في مكانها، ثم انشقت الغصَّة العالقة في حلقها عن عويل مرير. أبواب المستشفى الزجاجيه من أمامها نفثت في صدرها خوفًا ووجلا صعب عليها فهم سببهما أو التعبير عنهما بالكلام.

توجه حارس المستشفى، الذي أصبح صديقا لنور، صوبهما بينما رفعت نْزِنْغا نور إلى صدرها.

أخيرًا تمكَّنت نور من الكلام وهي تبكي، فقالت: «لا أريد أن أذهب. أرجوكما، لا تجبراني على الذهاب. هذه أمور عاطفية جدًّا».

نظر الحارس نظرة رجاء إلى نْزِنْغا التي كانت منفعلة هي الأخرى وقال: «لم لا نذهب إلى الكافيتيريا لنقضي بعض الوقت. ما رأيك يا آنسة؟».

وافقت نْزِنْغا، فأضاف الحارس: «سأجلب لك أطيب ما تحبين».

شغلها قليلا ذكر الشوكولاتة بالكريمة عن ذاك الشيء الذي يسبب لها ألمًا في صدرها. لكنها لم تبتسم، بل أحاطت عنق نْزِنْغا بذراعيها. أحسَّت بأن ذلك الشيء الذي في صدرها أصبح الآن مثل غول يتربص بها. كان جدو هو الشخص الوحيد في حياتها الذي يطرد الغيلان من تحت السرير ومن الخزائن، هو الذي يجعل كلَّ شيءٍ أنعم وأزهى. كيف تفعل الآن وقد أظلم ما حولها وذاك الشيء المخيف يربض حولها وفي داخلها؟ استجدت نور نْزِنْغا قائلة: «أرجوك دعيني أذهب لرؤية جدي».

لم تتركها نْزِنْغا تعود إلى غرفة جدها، ولكنها تمكَّنت من تهدئتها وتبديد مخاوفها. شاغلتها بالحديث معها عن أشيائها المفضَّلة، وأطنبت نور في الكلام عن آخر تفاصيل «جدو وأنا»، حتى اعترى الإرهاق جسدها الصغير فحملتها نْزِنْغا إلى السيارة.

مضى شهران قبل أن تعلم نور بما حلَّ بجدها. طوال تلك المدة، كانت تنتظر ببالغ الصبر الإذن بزيارته. لكنَّ «الأم» التي كانت تتولى رعايتها ظلت ترد على طلبها في كل مرة بالقول: «تزورينه عندما تتحسن صحته». كتبت نور رسائل إلى جدّها في كتابهما المشترك المربوط بشريط أزرق. أضافت مزيدا من الصفات إلى قائمة صفاته. ومع أن نْزِنْغا ستشرح لها ما حدث لجدها فيما بعد، فإن نور ظلت طيلة هذه الفترة تدعو له حتى يتحسَّن بسرعة. وذات ليلة، سمعتها فتاة من الفتيات الأكبر منها سنًّا ممن يشاطرنها الغرفة نفسها تدعو دعاءها

المعهود، فقالت: «جدُّك مات. إنه لن يتحسَّن أيتها الحمقاء. آن لك أن تكبري!»

اهتزت الأرض. وسقط القمر. وانطفأت النجوم. ظلَّ صدى كلمات تلك البنت اللئيمة يتردَّد في قلب نور إلى الأبد. تسلل ضوء القمر بوهن عبر الستائر ووقع على جسد الطفلة المنكوبة. كانت ترفع كفيها إلى السماء والدموع تنهمر من عينيها. اجتاحتها رغبة شديدة لعناق دبها محفوظ لكنها ظلت عاجزة عن الحركة. كانت تشعر بأن أحشاءها تتقطع وتتناثر في داخلها، مثل انفراط حبَّات العقد إذا ما انقطع الخيط الذي ينظمها. لعلها إن جمدت في مكانها بلا حراك، فإن جدها، الخيط الذي ينظم كل قطعة فيها، لا ينقطع تماما. كانت تدري أن تلك البنت اللئيمة مُحِقَّة، أن جدها مات.

وأخيرا تحرَّكت. جذبت محفوظ، عانقت بشدَّة دبها الذي أعطاها إياه جدُّها. قضت ليلة من الحزن الصامت المؤرق، تبحلق في انفراط عقد حياتها اليافعة وتناثر حباته فوق أرض الغرفة.

(22)

أراد جدو ممدوح أن يذهب إلى غزَّة بعد وفاة ياسمين للحداد عليها هناك بين أهله. وكان يأمل في أن يُقنع ابنه الوحيد بالسفر معه. فقد أقامت ستّي نظميَّة وجدُّو عطيَّة وأرملة النحّال في غزة عزاء على روح ياسمينتهم التي كان موتها شديد الوطأة عليهم لغربتها الطويلة. ولكنهم وجدوا بعض السلوى لأن ممدوح سيكون بينهم عمًّا قريب، إلى أن سمعوا بخبر موت ابنه أيضًا. وكان الحادث الذي أدَّى إلى موت محمد قد كسر قلب ممدوح المكسور أصلًا. اتصل بأخته في غزَّة قائلًا: «لا أريد شيئًا الآن من الدنيا غير العودة إليكم في الوطن. لم يبقَ لي شيءٌ هنا، ولكن عليَّ أن أنتظر بعض الوقت كي أعود ومعي نور». إثر ذلك، ظلت ستّي تتكلم مع أخيها مرات عدَّة في الأسبوع، وكانت نور تحتل المقام الأول في مكالماتهما. كانت ستّي تعتقد بأن مريم تعيش في نور، إذ ليس من تفسير آخر لاختلاف لون عينيها غير ذلك. وبعد مدة انقطعت تلك المكالمات.

كلما سألت نور جدها عن أمها كان يجيب ببساطة: «كان عليها أن تسافر يا نور عيني، لكنني لا أعرف إلى أين ذهبت يا حبيبتي». وبعد وفاته بمدة قصيرة، عثرت نُزِنْغا على أمها، فذهبت هي ونور للقائها في المنتزه.

قالت الأم: «تشبهينني تمامًا عندما كنتُ في سنّك»، أخذت يد نور في يدها وتابعت الحديث مع نُزِنْغا. وعندما سحبت أمها يدها لكي تلوِّح بها أمام وجه نُزِنْغا تعبيرًا عن غضبها، خطفتها نور ثانية ما إن أصبحت بمتناولها وشدت عليها بقوة. صبَّت نور كل تركيزها في أن تبقى يدا أمها في يديها بينما انشغل الكبار في جدل حول شيء يسمى «صندوق ائتمان». كان يتعين على أمها العودة إلى ولاية نورث كارولاينا من ولاية تكساس لتنال حق التصرف فيه.

قالت الأم: «المال مالها، وأنا أمُّها، يجب أن أكون أنا المسؤولة عن الصندوق، وإلا كيف سأعتني بها؟ أنا لست غنيَّة».

انحنت نْزِنْغا، التي ظلت محتفظة بهدوئها، لتبلغ وجه نور، وطلبت منها برفق أن تذهب لتلعب بينما يتحدَّث الكبار.

سُمِح لها بقضاء الليل مع أمها في نُزُل في تلك الليلة الأولى، وبعد ذلك كان عليها أن تبقى مع العائلة التي ترعاها إلى حين انتقال أمها إلى نورث كارولاينا.

«هل رأيت ما أفعله لأجلك يا نور؟» خرجت كلمات أمها من شفتين فاقعتي الحمرة. ثم أردفت: «وهذا لأنني أحبك كثيرا». ثمَّ قبَّلت الصغيرة فابتسمت نور ابتسامة عريضة. وأخيرًا عندها ماما حقيقية وهي تحبها جدا وقبلتها تركت علامة حمراء فوق خديها. آه! إنها الدليل الدامغ على حبها لها.

«لكن علينا أن نفعل شيئًا باسمك هذا. لم لا نسميك «نوريا»؟ إنه يشبه نور كثيرا. لا، لا إنه اسم من كاتالونيا، وهو ليس أفضل بكثير من الاسم العربي. فليكن اسمك نوبيا إذًا».

لم تفعل نور أكثر من هز رأسها بتردد، إذ لم تكن متأكدة إن كان يمكن تغيير الأسماء. وتابعت أمُّها: «ولكن ذلك سيكون سرًّا بيننا. لا تكشفيه أمام تلك المرأة التي تعمل مع الخدمات الاجتماعية. مفهوم؟»

«لن أخبرها يا ماما»، ما أحلى النطق بكلمة «ماما». تابعت: «أنا كاتمة أسرار جيدة».

في تلك الليلة أضافت نور صفة جديدة إلى قائمتها: كاتمة الأسرار. وعندما وافقت أمُّها على قراءة قصَّة لها قبل النوم لم تذكر أمامها شيئًا عن كتابها المربوط بشريط أزرق. ذاك الذي كتبته هي وجدُّها. عرفت، بتلك القدرة التي يمتلكها الصغار في معرفة حقيقة الأشياء، أن أمها لن تحبَّ كتاب «جدُّو وأنا».

استغرق انتقال أم نور إلى نورث كارولاينا بضعة أشهر لم تقم خلالها بزيارة نور أو حتى باستقدامها لزيارتها في تكساس. لم تكن هناك أكثر من مكالمات هاتفية، بين الفينة والأخرى، تقتصر على آخر تطورات قضية رفعتها أمها في

المحكمة كي تُصبح هي المسؤولة عن أموال أودعتها شركة التأمين على حياة ممدوح في صندوق ائتمان. قالت أمها إنها لا تملك مالًا لشراء تذكرة لها حتى تسافر إلى تكساس، وأن لا زيارة «إلى أن نحصل على حق إدارة صندوق الائتمان».

التحقت نور بالمدرسة وهي ما تزال تعيش في كنف بيت رعاية الأطفال. وستمضي سنوات عديدة قبل أن تجول في ذاكرتها وتذوق فراغ تلك الرعاية: ثلاث وجبات كاملة يوميًا، وجدران بيضاء، وأرضية تلمع، وأعباء تنظيف منزلية، وانضباط، وغرفة مشتركة مع ثلاث بنات، كلهن أكبر منها، وألسنتهن القبيحة دفعت نور إلى الابتعاد عنهن. استيقظت مرّتين فوجدت جسمها مغطى بخرابيشهن. قلن لها إن عليها أن تتعلم المزاح وألا تكون «فسّادة». ذكّرنها بأنها تتباهى بأنها «كاتمة الأسرار». هكذا أفسدن عليها نومها، فصارت تذهب الى سريرها قلقة مما قد يحدث ليلًا. ولهذا كانت سعادتها غامرة عندما أبلغتها نُزِنْغا بخبر انتقال أمها أخيرًا إلى نورث كارولاينا، وأنها ستنتقل مباشرة للعيش معها بعد أن تتفحص الخدمات الاجتماعية المسكن الجديد.

كان للبيت الجديد غرفتا نوم، واحدة لنور وحدها، والثانية لأمها وصديقها سام، إضافة إلى حمّام واحد مشترك. لكنهم كانوا يقضون معظم وقتهم في الغرفة الكبيرة المجاورة للمطبخ، حيث وضعوا تلفازا كبيرًا له حوافٌّ خشبية. قالت أمُّها: «كنت دائمًا أرغب في الحصول على تلفاز ضخم». وعندما وصل الشيك الشهريُّ من صندوق الائتمان أصرَّ سام على صرف جزء منه لشراء شراشف جديدة لغرفة نور بدلًا من الشرشف الأبيض الكبير والبطانيَّة المهلهلة التي وضعتها أمها على سريرها، بينما تردَّدت الأمُّ قائلة «لا زلنا بحاجة لشراء أشياء أخرى أساسية للمنزل.»

لكن سام ظل يصر، «سنشتري لها شراشف جديدة»، وغمز لنور بعينه، فابتسمت له. راحت تتخيل كيف ستنسق غرفتها لتناسب أغطيتها الجديدة، ترى هل سيكون عليها صور المرأة العجيبة أو ربما سندريلا؟

قالت أمها وهي تقبض على ما بين فخذيه: «كم تثيرني عندما تلعب دور الأب مع ابنتي يا حبيبي».

أغلقت نور عينيها بقوَّة. وعندما فتحتهما كان سام يبتسم لها. ثم ذهب هو وأمها إلى غرفتهما وأغلقا الباب. وهناك أصدرا أصواتًا أغرقتها نور برفع صوت التلفزيون الضخم.

رغم ذلك، كان من الأحسن لها أن يكون عندها ماما حقيقية وغرفة خاصَّة بها، وهي ستبذل ما في وسعها لتكون جديرة بكل ذلك. صارت تساعد في التنظيف، ثم تعلمت تحضير القهوة، فأضيفت هذه إلى مهامها الأخرى. وعندما تستيقظ أمها وتتململ للنهوض من السرير، تكون نور قد استعدَّت للذهاب الى المدرسة وأعدت القهوة للكبار. ولم يوازِ اجتهادها في البيت سوى تفوقها في المدرسة. فرغم أنها في الصف الأول إلا أنها كانت تقرأ وتكتب بمستوى تلاميذ الصف الثالث. لقد وجدت وسيلة للتألق والتميز وحيزا تشعر فيه بمحبة وافتخار الآخرين، إذا استمرت بالعمل الدؤوب. وهكذا بذلت قصارى جهدها في العمل والدراسة.

لكنها لم تشعر بالسعادة فعلا، إذ شاب حياتها الجديدة شوق وحنين لشيء لم يعد موجودا. ختيار كانت مشيته أغنية، قصص ما قبل النوم لعالمٍ آخر، حديقة البط وملعب القلعة. صنف من الحب غير مشروط بأداء مهمات بيتية أو تفوق في المدرسة. ذلك الحنين المطمور في حناياها كلما اهتز من كمونه تحس كما لو أنه مغص يبدأ من معدتها ويسري في كافة أوصالها حتى يستقر وراء عينيها، تلمِّعهما بالدموع.

كانت ماما تكبر نور بأربع عشرة سنة، وقد كانت مخطوبة لأبي، عندما أعلنت ستي نظمية عن مجيء أخيها إلى غزّة مصطحبًا معه نور الصغيرة. وتحمست أمي، فرحة بأنه سيكون لها أخت صغيرة أخيرًا. ظلت ستي نظميَّة تتصل بأخيها المرَّة تلو المرَّة، ولو أنها عاينت كل صنوف الخيبة ووجع القلب في حياتها. كانت قسوة تلك الأيام صعبة بالذات، حيث تتصل بلا توقف وتنتظر دون جواب من أخيها. القلق الملحاح الذي انتابها خوفا من فقدان أخيها لم يضاهه سوى فزعها من أن تكون نور وحيدة في أمريكا. لم تكفَّ عن الدعاء، حاولت سرًّا استدعاء سليمان، ولكن لم يستجب لها أحد: لا الهاتف، ولا الله، ولا ملائكة، ولا جني.

لم تعلم نور بالخبر من أحد مباشرة، بل التقطته من أحاديث الكبار وتعابير أجسامهم: تهلُّل وجه أمها، مكالمات هاتفية تشوبها الفرحة والابتهاج، ما يحظى به بطن أمها من اهتمام وأيدي تتحسسه. لن تحصل نور على أخ أو أخت فقط بل ستحصل على أب أيضا، سيتزوج سام بأمها وحفل الزفاف سيكون عما قريب.

وعلى الفور بدأت التجهيزات للعرس، جلب سام كتالوغًا فاخرًا وأعطاه لأمها لكي تطلب منه ما تريد فيصلها بالبريد. انتظرت نور دورها بفارغ الصبر ريثما تنتهي أمها منه. وعندما حاولت مساعدتها كشتها أمُّها بعيدا.

أخيرًا استقر الكتالوغ على المنضدة بعد أن ملأته أمها بالدوائر والملاحظات والصفحات المطوية. فتحته نور على قسم تبدو العارضات فيه بمثل عمرها. هناك الكثير مما يمكن انتقاؤه: فساتين، وأحذية، وجوارب، وتنانير، وقمصان، وبنطلونات قصيرة، وصنادل، وأشرطة للشعر، ودمى، وألعاب. لكنها كانت تعرف أن عليها ألا تسرف في الطلب. فقد ضمَّت «لست طماعة» إلى قائمة

صفاتها الحميدة في كتابها. كانت أمها قد تركتها وخرجت من البيت، فأمضت نور وقتها وحيدة وهي تُفكر فيما يمكن أن تختاره. وقبل أن تغفو انتقت أربعة أشياء: فستانًا مقلما بالأبيض والأزرق يتوسطه نطاقٌ أحمر يحيط الخصر وينعقد عند الظهر مثل وردة كبيرة، وحذاءً لامعا لونه أحمر وله شريط ناعم يثبت بإبزيم، وجواربَ بيضاءَ، ولعبة على هيئة كلب أسمته مقدَّمًا مالكولم ليكون صديقًا لدبها محفوظ. خطر لها أن تسميهما معًا «ميم وميم»، وتخيَّلت أنها تأخذهما معًا إلى المدرسة لتراهما صديقاتها.

رنين جرس الباب المتواصل والطرقات القوية أيقظت نور من غفوتها على الصوفا، التلفاز ما زال يدور والكتالوغ في حضنها. كانت أمُّها قد عادت إلى البيت، قالت وهي تعبر الباب: «يجب ألا تسهري حتى هذا الوقت المتأخر.»

قالت نور: «ماما، علَّمت على الأشياء التي أريدها من الكتالوغ.»

«طيِّب، اذهبي لتنامي يا نوبيا.»

«رسمت دائرة حول أربعة أشياء فقط. لم أكن طمَّاعة أبدا. هل تريدين رؤية ما اخترت؟»

«أريني إياها في الصباح.»

أخيرًا جاء يوم وصول الأشياء التي طُلِبت من الكتالوغ. وصلت في ثلاثة صناديق، اثنان منها كبيران والثالث صغير. ففتحت أمُّ نور الصناديق واحدًا واحدًا، وأصرَّت على أن فتح الصناديق هو من شأن الكبار فقط. وقفت نور بأدب بينما راحت أمُّها تستخرج ما في كل صندوق حاجةً بعد أخرى. فردت كل قطعة من الملابس، تفحَّصت كلَّ زوج من الأحذية، جرَّبت كلَّ أنبوب من أحمر الشفاه. تململت نور، صارت تمدُّ عنقها لتنظر داخل الصندوق المفتوح، تتلهف أن يكون فيه شيء من أشيائها.

وعندما سألتها أمُّها إن كان يعجبها طقم القبعة والقفازات والحذاء الذي انتقته للوليد المنتظر قالت: «نعم. حلوة.» تكرَّر المشهد أثناء إخراج ما في الصناديق حتى فرغت من كل ما فيها. لكن نور لم تيأس، حتى بعدما أدركت

أن كل ما في الصناديق أصبح خارجها. راحت تفتش في أكوام الثياب الجديدة، علَّها لم تنتبه ففاتها تمييز فستانها الجديد.

«أين الأشياء التي رسمت عليها دائرة يا ماما؟»

فقالت أمُّها: «أوه يا عزيزتي! نسيت أن أخبرك، أصحاب الكتالوغ قالوا لي إن حاجاتك نفدت من محلهم».

تحرَّك ذلك الشيء القاسي الذي يعيش في جوف نور. راح يمور ويتلوى، يصعد إلى أعلى، ينشب أظافره في حلقها، ويعتصر ما خلف عينيها. آخر مرة بكت صرخت عليها أمها بألا تكون «بيبي بكاءة». فكتبت حينها في قائمتها: «لست بيبي بكاءة». الآن وقد خرجت أمها وتركتها بمفردها مع ثلاثة صناديق فارغة وأشياء جديدة ملقاة هنا وهناك، ساعدها تذكر تلك الصفة الذميمة في حبس دموعها. أرادت أن تسأل إن كان أصحاب الكتالوغ سيرسلون أشياءها عندما تتوفر لهم كمية أخرى منها، ولكنها تعرف أن عليها ألا تفعل، فذهبت إلى غرفتها بدلًا من ذلك. وهناك شعرت بالصمت يزحف نحوها ويلفُّ جسمها الصغير. اشتدت آلام البطن التي تعرفها جيدًا ومزقت أحشاءها. لكن نور لم تسمح لنفسها بالبكاء إلا بعدما أصبح الألم لا يطاق، بررت لنفسها الإذن بالبكاء واثقة أنها ليست بيبي بكاءة إذا كانت فعلًا مريضة. بكت ثم بكت أكثر وبصوتٍ أعلى عندما لم يسأل عنها أحد. تناهى إلى سمعها وصول سام إلى البيت، فواصلت نشيجها حتى بعدما خفَّ الألم إلى أن أتت أمُّها.

قالت وقد أراحها التوقُّف عن البكاء: «بطني ورأسي يؤلمانني جدًّا يا ماما.»

فقالت أمُّها بغضب: «يا إلهي يا نوبيا كُفي عن الدلع! هذا اليوم خاص بي فقط. نامي، أرجوك!» وخرجت وهي تغلق الباب بشدّة.

استيقظت نور في منتصف تلك الليلة متفاجئة بوجود سام جالسًا على حافَّة سريرها.

لمس بطنها فوق قميص النوم وقال: «هاي! كيف حال بطنك الآن؟»

فركت النوم من عينيها وردَّت: «أحسن.»

فقال: «النرّ»، رفع قميص نومها: «يا للبطن المسكين!»، مرر يده على سطحه الأملس وقال: «بطن جميل.» ثم انحنى وقبَّله في سُرَّته ثم فوقها ثم حولها. «وعيناك أجمل وأعجب عينين رأيتهما في حياتي.»

ثم أعاد ثوبها إلى مكانه وغطاها. «هل تظنين أن أمّك قاسية أحيانًا؟» فهزت نور رأسها بالنفي. «هيّا! قولي الصدق»، ودغدغها سام قليلًا فضحكت، قال: «إذًا أنت لا تتحمَّلين الدغدغة. سوف أدغدغك قريبًا.»

قرَّرت نور أنها تحبُّ سام.

سألها ثانية: «قولي لي الصدق.»

فاعترفت: «نعم أمي قاسية أحيانًا.»

فقال: «لا تهتمي. سأعتني بك جيدا.»

غطاها وقبَّلها على جبينها ثم على خدها وغادر الغرفة.

وبالفعل أخذ سام يتدخَّل لمصلحة نور، فاصطحبها ليشتري لها ثيابًا بدل التي انتقتها من الكتالوغ. وعندما أرادت بنت أخ سام، وهي من سن نور، أن توكل إلها مهمة حمل باقة الزهور في العرس أصرَّ سام أن يمنح هذا الشرف لنور. وفي حفلة عشاء مع أفراد العائلة، قامت نور وهي تنظر في عيني ابنة الأخ وجلست في حجر سام، أغاظتها بالاستيلاء عليه ثم مدت لها لسانها. شدَّ سام على خصرها الصغير مؤكدًا تحالفهما السري. ثم توقَّف عن الذهاب مع أمها للتسوُّق ليلا كما هي عادتهما، وفضَّل البقاء معها للعناية بها. في الليلة الأولى التي مكث معها لعبا «تْشِكَرْز»، ولما حاولت نور أن تغشَّ، أخذ سام يدغدغها. وبعد أن التقطت أنفاسها بين نوبات الضحك طلبت منه أن يتوقف، وما إن فعل حتى استفزته ليعاود دغدغتها.

قال: «إنني أعرف بقعة سحرية للدغدغة لا تعرفينها ولن تخطر أبدا على بالك. إنها بقعة صغيرة جدا عندما تدغدغ تشعرين كما لو أن كل جسمك يدغدغ دفعة واحدة».

«أين هي؟»
«هذا سر. هل تعرفين كيف تكتمين السر؟ أم أنك مثل البنات الفتَّانات؟»
فقالت وهي تتذكر قائمتها: «مستحيل. أنا لا أفشي سرًّا. بل أنا كاتمة الأسرار.»

(24)

أفاقت ستي نظميَّة ذات صباح في ضباب الليلة الفائتة، وأشباح حلم مفزع ما تزال تسكنها. في دهاليز النوم مشت عائدة إلى بيت دراس، تبحث عن نور هذه المرة. وجدت مريم كما في أيام النكبة، حركت الجدران كما يحصل بالأحلام فقط، واختبأت هي وأختها. تمتمت: «لن يقدروا علينا، هذه المرة سنكون أشطر منهم.» ثم أشارت مريم إلى حقلٍ مفتوح محاط بدخان يتصاعد من خياة تحترق حيث تقف طفلة صغيرة. قالت مريم: «هذه نور يا نظمية»، ظهرت امرأة تجلس بقربها، سماعة هاتف على أذنها، ثم جاء رجل وخلع ملابس نور، راح يتحسس جسدها بشهوة وابتذال. على الفور ودونما تفكير، قفزت نظميَّة في الحلم من الجدار إلى الحقل لإنقاذ نور. لكن الجنود القابعين في ذاكرتها عبروا وفعلوا ما فعلوه أول مرة. وعندما أزَّت الرصاصة وسقطت مريم أرضا فزَّت من نومها. ضمها جدُّو عطيَّة إلى صدره وهي تبكي والحلم يلاحقها: «لم أستطع أن أتحايل عليهم هذه المرة، قتلوا مريم مرة أخرى ونور وحيدة وخائفة يا عطية.»

حصلت نور في الصف الثالث على شهادة مزيَّنة بكثير من النجوم الذهبية. قرأها سام بصوتٍ عالٍ: «تكتب المعلمة في التقرير أن نور فتاة متفوقة، وأنا منبهرة بمهارات القراءة والكتابة عندها فهي تفوق مستوى الصف الذي هي فيه. أقترح ترفيعها إلى الصف الرابع».

رقصت قسمات وجه نور زهوا، لكنها تجمدت من ردة فعل أمها: «شيء جميل. وأنا أيضًا كنت طالبة جيدة في المدرسة. لا بدَّ أنك ورثتِ ذلك مني. لا حاجة بك إذًا لتلك المدرسة الخاصَّة. فأنا درست في المدارس الحكومية، ويمكنك فعل الشيء نفسه. ألن يكون ذلك شيئًا جميلًا؟ أن تكوني مثلي تماما».

تحرَّك ذلك الشيء الذي يعيش في جوف نور.

أضافت الأم: «بما أن أقساط الدراسة الآن باتت تأتي إليَّ أنا من صندوق الائتمان بإمكاننا أن نستفيد منها على نحوٍ أفضل بشراء أشياء نحتاجها فعلًا».

امتلأت عينا نور بالدموع فذهبت إلى غرفتها كي لا يصفها أحد بـ «البيبي البكاءة». بقيت في غرفتها ساعات تصغي لما يحدث خلف الباب. ثرثرة أمها على الهاتف. أصوات التلفاز الكبير. سام. الاثنان يفعلان ما يفعلانه عادة في غرفة نومهما. ثبَّتت يديها على أذنيها وضغطت بإحكام. شاغلت نفسها بالتفكير في حصص الصف الرابع للقراءة، وبصوت رجل عجوز في رأسها: «الكلمات مهمَّة جدًّا يا نور». شاغلت نفسها بتقليب بصرها في أرجاء غرفتها، رصدت أصغر التفاصيل، تشوهات في الدهان، طبقات خفيفة من الغبار تتراكم على الأثاث، تجاعيد في الستائر، بقعًا على الباب، تعرجات الخيوط في قماش فستانها. وبعد مدة من الوقت سمعت أمها وهي تغادر البيت.

ثم ساد الصمت. صمت قلب محفور. سحبت كتابها السري، فكَّت الشريط الأزرق، وحملقت في قائمة كلماتها. حدَّقت فيها بشدة. فراغٌ تلوى وتضخم في جوفها، انبعثت منه كلمتان كبيرتان وجريئتان، أضافتهما إلى القائمة. هناك، تحت «لا أثرثر» و«لا أفتن»، كتبت: «قذرة» و«سيئة.»

أعادت كتابها إلى موضعه، خرجت من غرفتها، توجهت إلى غرفة أمها، حيث تدري أن سام ينتظرها.

أبعدنا التاريخ عن مصيرنا الشرعي. أمّا نور فقذفت بها الحياة إلى بعيد لا يشبه كلُّ ما فيه أيَّ شيء فلسطيني. لا يشبه حتى حياة اللجوء في الشتات. ولذلك فإن من سخرية القدر أن تكون حياة نور تعكس الحقيقة الأساسية لمعنى أن تكون فلسطينيًّا، منفيا، محروما من أرضك وممتلكاتك، وممنوعا من ميراثك. أن تكون وحيدًا في هذا العالم بلا عائلة أو عشيرة أو أرض أو وطن فإنك تعيش تحت رحمة الآخرين. هناك من يشفقون عليك، وآخرون سيستغلونك ويؤذونك. وفي جميع الأحوال، يعيش المرءُ وَفْقَ نزوات المُضيف، ونادرا ما يُعامَل بما يليق به من كرامة، ودائمًا يشترط عليه بأن يلزم حدَّه.

ازدادت وتيرة مرض نور ومعه شدة غضب أمها. ممرضة المدرسة اتصلت بها ذات مرة لتأخذ نور بسبب ارتفاع حرارتها. وصلت الأم وقد بدا عليها القلق أمام الإدارة. ولكن ما إن وصلت هي ونور إلى السيارة حتى شدت الأم ذراع نور وهي تضغط عليها بغضب غير طبيعي.

«أليس لك حدود في محاولاتك لجذب الانتباه؟» حفرت أمها كلماتها تلك بأظافرها في لحم نور.

انكمشت نور: «آسفة يا ماما.»

«اخرسي وادخلي إلى السيارة.»

جرَّت نور جسدها إلى السيارة وكأنها تجرُّ فرنًا. كانت تعرف أنه من الأفضل ألا تبكي، لكنها لم تستطع حبس دموعها. شعرت بثقل في عينيها، ونضوب في قلبها ووهن في جسدها.

«قلت لك اخرسي، لن تخدعيني بدموع التماسيح. كأن كل ما فعلتِه ليس بكاف فتتقمصين الآن دور الضحية!». انفجرت غاضبة وصرخت بنور: «إنه زفافي أنا، أتفهمين؟ لن أسمح لك أن تفسدي هذا اليوم.»

أدارت نور رأسها لتنظر من الشباك، أخذت نَفَسًا طويلا وعميقا، وبعدها غاضت دموعها. هكذا ببساطة، جفَّت مآقي نور وهي في الثامنة من العمر. ولن تنزل دموعها ثانية إلا بعد أن تكبر وتصبح امرأة تقف على شاطئ غزة فيداعب المتوسط قدميها وفي يدها رسالة طويت ثم أعيد طيُّها.

مساء ذلك اليوم، جاءت أمُّ نور إلى غرفتها، سألتها بلطف إن كانت تريد تناول العشاء، ولكنها لم تنتظر ردا: «لقد كنت قاسية عليك اليوم، ولكني لم أفعل ذلك إلا لأنني أحبك. إنني أريد أن أجعلك أفضل مما أنت عليه. انظري كم اشتريت من الأشياء الجميلة لأجعل حياتك أحلى وأحسن؟ انظري كم أنت محظوظة. لم يقدم لي أحدٌ شيئا من كل هذا. حاولي أن تفكري أحيانا في مشاعري. إنني أسعى بكل جهدي حتى تكون حياتنا جميلة وسعيدة، ولكنني لن أستطيع تحقيق ذلك دون مساعدتك. سوف يأتي جدُّك وجدَّتُك وبقية العائلة لحضور حفل الزفاف، أريد منك أن تتصرَّفي بأدب وتطيعيني فيما أقول. هل يمكنك أن تكوني ابنة طيبة وأن تظهري للجميع أننا عائلة سعيدة؟».

هزَّت نور رأسها بالإيجاب فقالت الأم: «أحسنتِ!»

صادف «اليوم الموعود» الأوَّل من حزيران، وهو اليوم السابق لعيد ميلاد نور التاسع. قالت الأم: «لقد رتبت ذلك عن قصد كي أقدم لك أفضل هدية! أبًا وشقيقين توأمين، قريبًا جدًّا».

وصل عددٌ من أفراد العائلة من تكساس بينما جاء جَدَّا نور من فلوريدا. قالت لها جدَّتُها: «من أين أتيت بكل هذه الحلاوة! أنت مثل القمر!»، ثم راحت تتحدث بالإسبانية. بدا أن جدَّيها سعيدان برؤيتها ثانية، ولم يدعواها باسم «نوبيا.» كما أن خالتها مارتينا وخالها أمبرتو تذكَّرا عيد ميلادها وجلبا لها هديَّةً عليها بطاقة تقول «إلى نور، ابنة أختنا، مع محبَّتنا. الخالة والخال».

سمعت نور دون قصد خالتها مارتينا تُسرُّ لأمها القول: «الحقيقة أن سانتياغو هو الذي ذكَّرَنا». أرخت أذنها منصتة عندما سمعت اسم الخال سانتياغو. فعلى الرغم من أنها لم تقابله إلا مرَّة واحدة، لكنه أصبح على الفور قريبها المفضَّل من

بينهم جميعا. لم تتعد زيارته حينها سوى بضعة أيام لكنه قضى معظم وقته مع نور. أعطاها دروسًا في عزف الغيتار واصطحبها إلى المتنزَّه. تشبثت بكل قطرة من اهتمامه بها، ولما ذهب الخال سانتياغو مرضت وعاودتها أوجاع بطنها المعتادة.

سمعت نور جلبة تأتي من باب البيت فهرعت إلى غرفة الجلوس. وقع بصرها أولا على صندوق الغيتار المتهالك، لا يجمعه معا سوى أشرطة لاصقة وملصقات براقة. لم يعبأ سانتياغو بكل من في الغرفة. توجه صوب نور ثم رفعها الى أعلى: «نور! كم كبرت! أنا سعيد جدًّا برؤيتك، يا عزيزتي. يا نجمة موسيقى الروك المذهلة!» ومع أن نور فقدت القدرة على رؤية ألوان الهالة والمشاعر، إلا أنها واثقة من أن تلك اللحظة زرقاء وهَّاجة، تكاد تشبه تلك اللحظات التي كان يحملها فيها جدُّها ويرفعها عن الأرض. كأنها الحب. أشرق وجهُها، وعيناها، وقلبُها، وجلْدُها، ويداها، وأصابعُ قدميها بالابتسام.

بقيت إلى جانب خالها سانتياغو طيلة اليوم، رغم إشارة جدتها إلى خالها ليطلب من «هذه البنت» الذهاب لتلعب مع الصغار من سنها. تظاهرت بأنها لم تفهم ما قالته الجدة، سيما وأن خالها تجاهل التعليق أيضًا.

في إحدى المرات القليلة التي لم تكن نور بجوار خالها سانتياغو، شاهدته يتجاذب أطراف الحديث مع سام. تملَّكها يأس وشعرت بكره مفاجئ وشديد تجاه سام. هرعت إلى الخال سانتياغو، وراحت تجذبه بعيدا عن سام بقوة حتى اصطحبها سانتياغو إلى الخارج حيث يمكنهما التحدُّث على انفراد.

قال سانتياغو: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟»

أبت الدموع التي تجمعت خلف عينيها الهطول، فسقطت في جوفها.

قالت: «أشعر بوجع في بطني.»

انحنى سانتياغو ليواجه ابنة أخته وقال: «هل هناك شيء آخر يا نونو؟»

«لا أريدك أن تتكلم مع سام.» نطقت نور بتلك الكلمات من دون أن تعرف تمامًا من أين أتت.

«حاضر، لن أكلِّمه. ولكن هل لي أن أعرف السبب؟»

كانت ترزح تحت عبء سرها الثقيل. ارتعشت شفتاها، كأنها الوسيلة التي يتوسل بها جسدها لتسقط الدموع. تسارعت أنفاسها وتصلَّب جسمها، تجمَّعت كل الكلمات التي أرادت قولها في بركة آسنة من القيح داخل بطنها. «لا أعرف. معدتي تؤلمني يا خالي.» هذا كلُّ ما استطاعت قوله.

سألها سانتياغو إن كانت قد أكلت شيئًا فهزَّت رأسها بالنفي.

«هيًا إذًا دعينا نهرب منهم ونذهب إلى الحديقة العامة لنشتري سندويشة نقانق. ولكن يجب ألا نُطيل الغياب لأن أمَّك ستزعل مني».

خرجا من الفناء الخلفي، اجتازا حارتين مشيًا إلى الحديقة العامة. وبينما هما يأكلان سندويشة النقانق سأل سانتياغو بلطف: «نونو، هل تسبَّب لك سام أو غيره بأذى أو طلب منك عمل شيء تعتقدين أنه سيئ؟»

«لا.»

كاتمة الأسرار. لا أثرثر. لا أفتن.

«نونو. هذه عائلتنا فعلًا، لكن لا تصدقي كل ما يقولونه، ومهما صار أو مهما قالوا، ثقي بأنك رائعة!»

فهزَّت نور رأسها موافقة، وقالت: «أمرك يا خالي.»

فابتسم وأضاف: «عندما تكبرين افعلي ما فعلته أنا. ابتعدي عنهم بأسرع ما يمكن وإلى أبعد مكان ممكن.»

غادر الخال سانتياغو تلك الليلة من دون وداع نور. سمعت العراك الشديد الذي دار، وعلمت أنه كان عنها في جانبٍ منه على الأقل. وقع ذلك كله بعدما وضعها خالها في سريرها. سمعت أصواتهم العالية تارة بالإنجليزية وأخرى بالإسبانية. قالت أمُّها إن سانتياغو كلب، إنسان فاشل مدمن مخدِّرات لا يعرف رأسه من مؤخرته ومن الأفضلِ أن يبقى بعيدا. وأضافت بأنه سيحقُّ له التكلُّم عن طريقة تربيتها عندما يصبح رجلًا بالفعل وأبًا، أو بعدما ينتظم في وظيفة على الأقل. سألها سانتياغو إن كانت تعرف متى تناولت نور آخر وجبة طعام أو حتى

أخذت حمَّامًا؟ قال إن رائحتها تدل على أنها لم تستحمَّ منذ مدة طويلة. ردت عليه أم نور بأن يذهب إلى الجحيم.

صرخ سانتياغو: «ما الذي حل بهذه العائلة!» ثم نطق بالكلمات التي تحولت إلى شيء صلب فور خروجها من فمه، كلمات غرزت وثبتت في حياة نور: «ليست نور حذاء باليا تنحُّونه أو تقذفونه بعيدًا حيثما يحلو لكم».

تلك هي إذًا. مجرد حذاء بالٍ. الشيء الكامن الذي يعيش في داخلها، على استعداد دومًا بأن يتحول إلى أوجاع وآلام في البطن، فجأة تهيأ واتَّخذ شكلا معروفا: حذاءً باليا قديما مهترئا. مشى ذلك الحذاء جيئةً وذهابًا فوق جسد نور وهي مستلقية في سريرها دون حراك. ثم وقف الحذاء البالي فوق بطنها تماما. علت أصواتٌ أخرى ثم سمعتْ سام يقول: «قل لنا، لماذا يقضي رجل شاب مثلك وقته مع بنت صغيرة جميلة؟»

مرَّت فترة صمت طويلة، ثم علا صوت خبطة قوية وزجاج يتكسر قبل أن تصرخ أمها: «اخرج من بيتي أيها السافل!».

سمعت صوت أبواب تصفق، وتسلَّل الغضب إلى غرفتها من تحت عقب الباب ومن ثقب المفتاح، زحف على الجدران، وجعلها تتكور على نفسها، ولوَّن نومَها بالخوف مما يخبِّئه لها «اليوم الموعود» في الغد.

في الصباح، سارت برفق عبر صمت البيت المزلزل. ألقى عليها سام تحية الصباح. كان يصبُّ كأسا من العصير لنفسه وعينه اليسرى متورِّمة. أما بقية العائلة فكانت تجلس حول المائدة. استداروا جميعا ونظروا إلى نور.

سألت: «أين خالي سانتياغو؟» كلماتها كأنها تسير على رؤوس الأصابع وسط الصمت المطبق.

أشاحت أمُّها بوجهها عنها. لم تعرف نور إن كان عليها أن تجلس أو تعود إلى غرفتها. ازدادت نبضات قلبها سرعة وقوة. سام لا يهرع لمساعدتها كالعادة، ظل ساكتا لا يتكلم. لقد خرَّبت علاقتها بسام، وهاهو الخال سانتياغو رحل بلا عودة. ما الذي فعلته؟ ارتعد جسدها.

قالت: «أنا آسفة يا ماما».

«عودي إلى غرفتك. كنتِ منذ البداية مصمِّمة على إفساد هذا اليوم والآن نلتِ ما أردتِ.» كلمات أمها كالمخالب في لحمها، وثقل هواء الغرفة على صدرها. تمددت على سريرها، والجوع ينهشها، الحذاء البالي يخبّط في أحشائها وبطنها تؤلمها. بقيت في غرفتها إلى أن أتى سام بعد ساعات، جلب معه سندويشة ورقائق البطاطا والبسكويت والعصير. نظرت إليه نظرة اعتذار للتعبير عن أسفها لأنها انقلبت ضدَّه، أسفها على كرهها له.

قالت: «أنا آسفة يا سام».

فقال سام: «لا عليك يا أميرتي. من حسن الحظِّ أن ذلك حدث لكي تعرفي من يحبُّك حقًّا ومن يقف إلى جانبك على الدوام.» فاحتضنته نور بذراعيها.

ثم تابع قوله: «لقد افتقدتُك.» ولكن نور لم تُبْدِ أيَّ ردٍّ فعل.

«سيغادرون من أجل التمرين على الحفل بعد قليل، وسنلحق بهم أنا وأنت فيما بعد، أوكَيْ؟»

« أوكَيْ.»

«أحسنتِ.»

ثم تركها. راحت نور تأكل طعامها غير عابئة بكل ما يجري في الطابق السفلي من ضجيج وتأهب للخروج، حتى سمعت صوت الباب الأمامي يُفتح ثم يُغلق، ثم أصواتَ أبوابِ سيارة تُفتَح وتُغلَق، وأصواتَ محرِّكات السيارات وهي تُشَغَّل ثم يخفت صوتها. بعد ذلك ران صمت لم يَشُبه سوى صرير الدرجات الخشبية تحت وقع خطى أحدهم. وضعت الكتاب الذي كانت تقرأه جانبًا وثبتت قبضتيها في حجرها مُحاولةً تخفيف ارتعاش يديها، وراحت تحدِّق فيهما بينما وصلت الخطوات آخر درجة.

دخل سام إلى غرفتها وقال: «مرحبًا يا أميرتي!»

كانت نور مريضة طوال حفلة الزفاف، ولكنها لم تجرؤ على ذكر الآلام في

بطنها أو الحرقان في بولها، وفي اليوم التالي وقعت فريسة الحُمّى. جاءها سام بشيء من الحساء وظلّ يتفحّص وضعها.

قال: «أحبُّك يا نور. أنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟»

«أنا أحبُّكَ أيضًا.» برغم أنها لم تجاوز التاسعة من سنها، احتارت، فكيف يمكن للحب أن يعيش فوق الكراهية؟

سألها سام: «هل تذكرين المرأة التي تعمل في قسم الخدمات الاجتماعية؟»

«أتذكَّرها.»

«جاءت إلى البيت قبل قليل. خالك سانتياغو يسعى إلى خلق المشاكل بيننا. يغار مما يجمعنا أنا وأنت.»

استجمعت كل ما مكّنها منه جسدها الواهن من اعتراض وقالت: «أبدًا!»

«أنت رأيت كيف تخلى عنك. من هو الذي يقف إلى جانبك دائما ويدافع عنك يا نور؟ لن يحبَّك أحدٌ مثلي. وعليك ألا تقولي لها شيئًا يمكن أن يشتت شمل عائلتنا.»

«أين ماما؟»

«تغار لأنني أحبُّك لهذه الدرجة.»

«سام، معدتي تؤلمني جدًّا، وأرى الجدران تتحرَّك من حولي.»

«سآتيك بكأس من شراب الزنجبيل. إنه مفيد في هذه الحالات.»

بعد مضيٍّ بعض الوقت، لا تدري إن كان دقائق أو ساعات، استيقظت نور على صراخ في الطابق السفلي. كان بإمكانها سماع صوت أمّها وصوت سام وسط أصوات أخرى غريبة، ولكنها لم تقوَ على النهوض. ثم اقتربت الأصوات حتى وصلت أعلى الدرج. بدا لها أنها تعرف الصوت، الذي يقول بإصرار: «لدينا أمرٌ قضائي يا سيِّدي. إن لم تحد عن طريقي فإنك ستُعتقل.»

دخلت صاحبة تلك الكلمات إلى غرفة نور: «نْزِنْغا!» صرخت بالاسم، لكن صوتها ظلَّ حبيس حنجرتها. ركضت نْزِنْغا إلى جانب السرير، وهي تقول:

«رباه! نور؟» ثمَّ استدارت وصاحت بلكنتها الرائعة: «نادوا الإسعاف بسرعة. حرارتها مثل النار!»

رمشت نور وشعرت بحرارة جفنيها فوق عينيها.

كانت نْزِنْغا تلهث: «يا إلهي! إنها غارقة في العرق والبول. ما الذي دهاكم؟».

رفع أحدهم نور من سريرها.

همست نور: «أشعر بالبرد.» وبينما كان أحدهم ينقلها إلى الأسفل شاهدت سام والدموع في عينيه، وفي الخارج رأت شرطيَّة تمسك بذراعي أمها. إنها تسب وتصرخ على شخص ما، إنه الخال سانتياغو.

أغلقت نور جفنيها الثقيلين، وعادت إلى حلمٍ أفسده الصخب المفاجئ. كان ثمَّة نهر، وبنت اسمها مريم وصبيٌّ اسمه خالد له خطٌّ من الشعر الأبيض يعلِّم مريم القراءة. كانت تعرفهما معرفة جيِّدة من قصص جدُّو التي رواها لها منذ زمن طويل.

قالت مريم: «نور، ما أجمل أن أراك ثانية!»

سألت نور خالد: «هلا علَّمتني أنا أيضًا؟»

قال خالد: «ستتعلَّمين قراءة اللغة العربية في الكلِّيَّة يا نور.» وأشار باتِّجاه شابٍّ وسيم يعتني بالنحل: «ذلك هو جدّك». طارت من الفرح، راحت تركض وهي تنادي النحَّال الشابَّ: «جدُّو! جدُّو! جدُّو! جدُّو! هذه أنا، نور».

ظلَّت تناديه حتى أحست بيدٍ تلمس يدها. كانت امرأة بلكنة تكلمها: «آه يا صغيرتي...». فتحت عينيها فسقط بصرها على قماش لفة رأس نْزِنْغا ذي اللون الأزرق الداكن، ثم رأت وجهها العطوف.

آلات ترن وأضواء وجدران بيضاء، خالها سانتياغو هنا أيضًا! تكلَّما، قبَّل جبينها قائلا: «ستكونين بخير يا نور».

أبقاها الأطباء يومين آخرين «للتأكُّد من شفائها تماما من الالتهاب». قالوا: إنها «محظوظة»، لأن «الالتهاب كان سيِّئا»، فقد انتشر من مخرج البول إلى

«الكليتين». كما أن «مهبلها مجرّح من الداخل»، كما لو أن «أحدًا عمل فيه شيئًا». هل يمكنها أن تخبرهم «كيف حدث ذلك؟»

تمكّنت من قول «لا» قاطعة عندما سألوها إن كان خالها سانتياغو قد فعل ذلك. «بل هو سام».

لم يجبروها على قول كلِّ شيء. شجعوها على رسم صور لتبيِّن لهم ما فعله سام بها. وحسبت أن عليها أن ترسم أيضا ما علمها سام أن تفعل هي به، فرسمت رسومًا جعلت نَزِنْغا تبكي.

حان وقت الخروج من المستشفى، وهكذا عادت نَزِنْغا ثانية إلى حياة نور. ولأنها قد كبرت وبلغت سنَّ التاسعة فقد رفضت هذه المرة أن تغادر المستشفى دون كتابها السرِّيّ ودُبِّها محفوظ. أحضرتهما نَزِنْغا من بيت أمها. وفي الليلة الأولى التي قضتها في بيت الرعاية الجديد استلقت نور وهي تحتضن محفوظ وتحدِّق في غلاف الكتاب. راحت تتأمَّل العنوان «جدُّو وأنا»، وتحاول أن تتذكر كلَّ ما كان بينهما من حبٍّ ورقَّة. فكَّرت بحذاء بالٍ، وشعرت أن في داخلها جُزُرًا من ملح ودموع لم تُسكب. ولم تفتح الكتاب ووضعته جانبًا. ستمر خمس عشرة سنة قبل أن تفتح نور ذلك الكتاب مرة أخرى، ستفتحه عندما ستفتِّش في ذاكرتها عن خالها سانتياغو، وعن جدِّها، وعن صبي اسمه خالد، له خطٌّ من الشعر الأبيض.

(26)

لن تعرف ستِّي نظميَّة كل ما جرى لنور إلا بعد مرور أكثر من عشرين عامًا. وعندما رأت ستِّي عينيها المختلفتين في اللون شعرت كأن الزمن لف دورة حول نفسه، فقالت: «سبحانك يا ربي، ما من شدة إلا ويعقبها الفرج، وقالت إن نَزِنْغا منّا، ولها دوما بيت مفتوح في غزَّة.»

كانت نزِنْغا قد أمضت ما يقارب السنتين في الولايات المتحدة عندما تولّت ملف فتاة صغيرة تدعى نور، كان كفيلها الوحيد، جدها، يعاني من مرض شديد. مهمتها تلخصت في إيجاد مأوى مؤقت للبنت إلى حين لمّ شملها مع أقربائها.

حين التقت مستر ممدوح بَرَكة وحفيدته للمرَّة الأولى في مستشفى الرحمة في مدينة شارلوت خاطبها العجوز بتعبيرات مثل «شكرًا يا بنتي» و«نعم يا عيني». اندهشت لأن ذلك العربي يستخدم نفس الأساليب اللغوية الإفريقية التي تجعل من الغرباء أقرباء. تحدَّثا لبعض الوقت، وعندما خرجت الصغيرة من الغرفة، قبض على يدها ورجاها بكلٍّ ما أوتي من قوة أن تساعد حفيدته على العودة إلى أهلها في غزة إن عاجلته المنيَّة. أطلعها على الأوراق اللازمة وترتيبات السفر، وأعطاها اسم صديقٍ قديمٍ له في كاليفورنيا يمكنه التواصل مع أخته في غزة، لأن نظمية لا تتكلَّم الإنجليزية.

نظرت إليه نزِنْغا. لم تكن واثقة من قدرتها على تحقيق أمنيته. رأت في وجهه ظلال عذاب المنبوذ في المنفى. كلف الشيخوخة يبقِّع جلده، جلد فلسطيني مسلم، محكوم عليه بالتهميش والمذلَّة. ألم إخراجه من وطنه ما زال يعتصر روحه، أما احتمال ترك حفيدته وحيدةً فقد ولَّد في عينيه خوفا مرعبا.

رأت نزِنْغا كل ذلك فمكثت في المستشفى وقتًا أطول مما كانت تنويه.

قالت للجدِّ: «سأفعل كلَّ ما أستطيع من أجل نور. أعدك.»

وعندما حلَّ ذلك اليوم الحزين ومضى، قابلت نزِنْغا أخيرا أمَّ نور وعرفت سبب إصرار ممدوح على إرسال حفيدته إلى أهلها في غزة. إذ لم تبد تلك الأم اهتماما بشأن ابنتها، تحججت بعجزها المادي عن رعايتها، لكنها سرعان ما عدلت عن ذلك بعد أن أبلغتها نزِنْغا بأن جدَّ نور قد ترك لها مبلغًا من تأمين حياة في صندوق ائتمان لمعيشتها وتعليمها.

لم تستطع نزِنْغا رغم محاولاتها إقناع المسؤولين بإرسال نور لتعيش مع أقربائها في بلد آخر في حين أن أمها التي ولدتها على استعداد لرعايتها. كما

أن قوانين الولاية لا تسمح لنور بالسفر خارج الولايات المتحدة ما دامت تحت وصاية المحكمة. لم يكن أمام نَزِنْغا من خيار سوى تسليم نور لأُمِّها. ولهذا آلمها، ولم يفاجئها، أن تُكلّف مرة أخرى وبعد أربع سنوات بإيجاد بيت رعاية آخر لنور. وبعد الطواف على ستٍّ بيوتٍ مؤقّتة وستٍّ مدارس مختلفة في سنتين، حظيت نور أخيرًا بمكان سكن دائم في مأوى مِلز للأطفال، التابعِ للكنيسة المعمدانية في مدينة توماسفيل في نورث كارولاينا.

(27)

توفِّر لنور كل ما نشتهيه. كنا نظن أن جميع الأميركيين كذلك. ولكنها رغم ما تمتعت به من أمنٍ وحرِّيَّةٍ وفُرَصٍ؛ رغم كلِّ التعليم والعلامات العالية؛ رغم ما أحرزته من تفوق في مجالات عديدة، كانت هي أكثر شخص محطَّم عرفناه. لم يكن لها في العالم من مكان لتكون. كان من الممكن تحمُّلها، بل وربما تقبُّلُها، ما دامت تحسن السلوك. أما إذا أساءت أو أخطأت فكانت تطرد وتقاطع. لذلك اجتهدت دوما في أن تكون مؤدبة ومطواعَة، يصيبها الهلع إن تضايق منها أحد. شقَّت الحياة حُفَرًا وأنفاقًا في داخلها، ملأتها بقدْرٍ هائلٍ من الصمت الذي تراكم وأخرج أنيابا ومخالب مزقتها.

كان مأوى مِلْز مجمَّعًا أقامته الكنيسة المعمدانية الجنوبية من عشرين «منزلًا». ولكلِّ منزل «والدان» يتولَّيان إعداد الطعام لأطفال يتراوح عددهم بين العشرة والخمسة عشر. كانت نور في الثانية عشرة من عمرها عندما أوصلتها نَزِنْغا الى هناك في أحد أيام الصيف. لاحظت أن نَزِنْغا زاد وزنها عن آخر مرَّة رأتها فيها ورغبت في مناداتها بـ «أم كرش». فكَّرت بكلِّ النعوت اللئيمة التي

تستطيع وصف نزينغا بها، جدائلها السخيفة مثلًا. لكن الكلمات تلتصق دوما في حلقها. قد تكتبها إذًا فيما بعد. على الورق يخرج ما تحبسه في صدرها، تنساب الكلمات فتحدِّث نفسها بمدى كرهها لنزِنْغا التي تنقلها من بيت رعايةٍ سيئ إلى آخر أسوأ.

كسرت نْزِنْغا حاجز الصمت: «نور، أنا أعرف أن ثمَّة جرحًا عميقًا في داخلك، وأدري أننا لم نسهم في تخفيف آلامك بعد أن استغرقنا وقتا طويلا حتى نجد لك مأوى دائمًا».

«مأوى دائم»، كانت نور تتقن العبارات الخاصة بعالم رعاية الأطفال. كانت حالتها تُصنَّف ضمن حالات «الإهمال والإيذاء الجنسي واستحالة لمِّ الشمل». تطلَّب إدراج حالتها ضمن ذلك التصنيف جهودًا مضنية من نْزِنْغا لتُنقذ نور من مغبة العودة للعيش مع أمها. لكن نور كانت تتساءل أحيانًا إن كان ذلك أفضل لها من التنقُّل بين مدرسة وأخرى، حيث تظل دائما التلميذة الجديدة التي تتعرَّض لاستقواء التلاميذ عليها أو تكوّن صداقات تؤخذ منها.

قبل أن تذهب إلى أول بيت للرعاية أعطتها نْزِنْغا سجَّادة وثوبًا للصلاة، وقالت لها: «جدُّكِ أراد منك المواظبة على الصلاة مثلما كنتما تفعلان معًا. لقد أعطيت لأمك السجادة والثياب التي أودعها جدك أمانة عندي. ولكنني خمنت أنها لم تسلمك الأمانة لأنني لم أرك تصلين مثلما كنت تفعلين في المستشفى مع جدِّك».

شكرتها نور على استعادة الأمانة وإعطائها لها، لكن الأم الراعية أوضحت لها أن المأوى مسيحي، وفرضت عليها أن تسلمها السجادة الملفوفة، فأعطتها إيَّاها ولم تستعِدْها بعد ذلك.

قالت نْزِنْغا عندما جاءت لاصطحابها إلى بيت الرعاية الثاني: «سأطلب من بلدية المدينة أن توفِّر لك سجادة وثوبًا للصلاة. كان عليَّ ألا أضعك في رعاية تلك العائلة. أنا آسفة يا نور».

فقالت: «لا يهم. أنا لا أريد سجادة صلاة أصلًا».

كان بيت الرعاية الثاني مكوَّنًا من ثلاثة طوابق، يقع في مدينة شارلوت، ويضمُّ ستة أطفال ترعاهم امرأة مسنَّة لطيفة من جامايكا. وعند لقائها نزنغا أخذتا بعضهما بالأحضان بينما لم تُبدِ نور أيَّ ردٍّ فعل، بل ثبَّتت بصرها على أي شيء، أيِّ مكان تريح عينيها عليه. كانت راعيتها سيِّدة لطيفة، وتكيَّفت نور بسرعة مع الحياة في البيت الجديد حيث أخذت تشعر بأنها تعيش حياة عائلية. وكذلك شكَّلت صداقات في مدرستها الجديدة وسرعان ما أخذت أمورها تنتعش.

لكن نْزِنْغا جاءت بعد ثمانية أشهر لكي تنقلها مرَّة أخرى. الأطفال الآخرون نُقلوا أيضًا، فقد ذهبت راعيتهم في اليوم السابق وقيل لهم بعد ذلك إنها أصيبت بجلطة أقعدتها. ولم يُسمح لأيٍّ من الأطفال بزيارتها، ولم تَرَها نور ثانية. بمثل هذه السرعة: تتشكل عائلة وتتفتت إلى الأبد.

أما بيوت الرعاية التي تواترت من الثالث وحتى السادس فإن أيامها كانت باهتة، تختزلها ذاكرة نور في حادثة واحدة. تبوَّل عدد من الأطفال الذين يكبرونها سنا في كأس، سكبوه عليها وهي نائمة ثم اتهموها بالتبوُّل في سريرها. لم تعرف نور كيف تنتقم لنفسها. كل ما في داخلها من كلمات، غضب، ذل، بل حتى سعادة، يحاول أن يجد طريقا للخروج ولكنه يظل أسير صدرها، حلقها، بطنها، وخلف عينيها. لم يتمكَّن شيءٌ من الإفلات قط. تجلَّطت الكلمات المكبوتة وتخثرت الدموع المحبوسة، وأطلقت في داخلها جذورًا، ولَّدت صمتًا امتدَّ إلى جميع أنحاء جسمها. صار كل شيء متعلقًا بها متشحًا بالصمت. تنفَّست وأكلت بصمت، يسكن الفراغ في عينيها. هكذا كانت في اليوم الأول الذي وصلت فيه مأوى مِلْز. استقبلتها السيِّدة وِتَر، المشرفة التي ستكون لها بمثابة الأم، بيضاء نحيلة فمها شق بلا شفتين. قالت مبتهجة «المجد ليسوع!» لأن نور «أول فتاة مسلمة في مأوانا، نحن نحبُّ الجميع هنا ونتقبلهم كيفما كانوا».

لم تحرك نور ساكنا، بل ثبَّتت بصرها على شيء تافه، انتظرت انقضاء عبارات التحية، وإجراءات الاستقبال، وتلاوة القواعد المتَّبعة، وأهمِّيَّة الربِّ

ويسوع في كلِّ كوخ، وشكليات ضمها إلى «عائلة» أخرى. وعندما غادرت نْزِنْغا لم تودِّعها نور.

طيلة السنوات الست التالية، ظلَّت نْزِنْغا لا تنفك عن قيادة سيارتها لساعتين حتى تزور نور مرة كلَّ ستَّة أشهر. ولم تدرك نور إلا ببلوغها الرابعة عشرة أنَّ ما من أحد من عمال الرعاية الاجتماعية يصنع أمرا كهذا مع أي طفل من أطفال المأوى.

«لماذا تأتين دائمًا؟ لم تقومين بهذه الرحلة مع أن عملك لا يلزمك بها؟»، سألت نور وهي تقضم لقمة من سندويشتها في مطعم البيرغر الذي تقصده مع نْزِنْغا كلما زارتها.

نظرت إليها نْزِنْغا وفي عينيها ابتسامة عذبة: «هذا صحيح، وظيفتي لا تلزمني بالمجيء. لماذا آتي برأيك؟»

فقالت نور بلهجة تدلُّ على نفاد الصبر: «اللعنة! وكيف لي أن أعرف؟»

ردَّت نْزِنْغا بحدَّة: «لا تستعملي هذه اللهجة معي يا بنت!» لكن ضيقها هذا لا يبلغ حد محو ذاك الشيء في عينيها الذي يبدو دائم التبسُّم لنور.

«آسفة يا زنغي».

«أحببتُ جدَّكِ، ولربَّما أحببتك أنت أيضًا. لكنني أحبُّك أكثر عندما تكونين لطيفة ولا تستعملين تلك اللهجة. كيف أصبحت علاماتك في المدرسة؟»

«جيِّدة.»

فغمزت نْزِنْغا بعينها وقالت: «أعرف. قالت السيِّدة وِتَر إنك أفضل طالبة التحقت بالمأوى».

قالت نور: «مجرد كلام!». ضحكت نْزِنْغا، ثم أضافت وهي تطوي شفتيها داخل فمها لتقليد السيِّدة وِتَر: «المجد ليسوع!» فضحكتا معًا.

علَّقت نْزِنْغا: «يشرق وجهك عندما تضحكين. هكذا كنتِ لما رأيتك أوَّل مرَّة. لقد كانت علاقتك أنت وجدُّك من أروع قصص الحبِّ التي رأيتها في

حياتي. وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعل حالتك واحدة من حالات قليلة أجد نفسي غير قادرة على نسيانها».

نظرت نور إلى الأسفل وأخذت تحرِّك الطعام في صحنها وقالت: «أكاد لا أتذكَّر شكل جدي، حتى إنه لا يبدو لي شخصًا حقيقيًّا. كأنه كان حلمًا».

«أعرف الشعور بالفرق بين أن تنعمي بكلِّ ذلك الحب ثم أن تجدي نفسك فجأة وحيدة في بيوتٍ غريبة من دون حب يلمّك ويجمعك ببعضك. كان لي خمسة إخوة قضى كلُّ واحدٍ منهم نحبه».

فابتسمت نور وقالت: «نحن الاثنتان ملعونتان إذًا». فابتسمت نِزْنغا أيضًا.

قالت نور: «هذا شعوري يا نِزْنغا. كأنني ليس لديَّ ما يجمع بعضي إلى بعضي الآخر. كأنني مصنوعة من قطعٍ جيء بها من أمكنة مختلفة وأُلصِقت معًا بشريط سيتمزَّق إذا ما تحرَّكتُ بأشد مما ينبغي أو تكلَّمت بصوت أعلى مما يجب».

مدَّت نزنغا يدها ورفعت ذقن نور وجعلت خدَّها في راحة يدها وقالت: «أنت لن تتمزَّقي. أنت أكمل وأصلب من كثيرٍ من الناس. هل تريدين أن أقول لك كيف أعرف ذلك؟»

«كيف؟»

«لأنني لم أصادف بنتًا في الرابعة عشرة تعرف تفاصيل مشاعرها كما تعرفينها أنت. ولم أصادف بنتًا في الرابعة عشرة لديها القدرة على التعبير عن تلك المشاعر كما عبَّرت للتوّ. في الواقع إنني لا أصادف كثيرًا من الكبار الذين يحسنون مثل هذا الوعي.» ثم ركَّزت نِزْنغا نظراتها وارتسمت أمارات الجدّ على وجهها وقالت: «يوما ما ستبنين عائلة لنفسك يا نور. وأتمنى أن تجدي طريقك إلى العالم عبر قلب جدِّك. كان يريدك أن تتعلمي اللغة العربية وأن تعرفي شعبك في فلسطين».

كانت فلسطين تبدو أشبه بكوكبٍ بعيد بالنسبة لنور، أما ما تعلمته من عربية وهي صغيرة فإنها بالكاد تتذكر شيئا منه. قالت: «كما تشائين».

تلك الليلة طلبت نور من السيدة وِتَر بعد مغادرة نْزِنْغا أن تستعيد كتابها من مخزن الكوخ، لكن السيِّدة وِتَر لم يكن لديها علمٌ بالكتاب. وستعلم نور فيما بعد أن نْزِنْغا أنقذت الكتاب من آخر بيوت الرعاية التي مكثت فيها، حيث كانت أيدي الأطفال قد وقعت عليه وخربشوا عليه كلمات بذيئة وأتلفوا رسوم نور. أما الآن فظنت أنه ضاع أثناء الانتقال من بيت رعاية إلى آخر فتملَّكها إحساس باليأس. قالت السيدة وِتَر: «اطلبي العون من يسوع مهما كانت المشكلة. إنه يحبُّ كلَّ البشر. ولكنه سيحبُّك أكثر إن قبلتِ به كمسيحية.» تركت نور تلك الكلمات تتساقط على الأرض من خلفها ولم تلتفت لتلتقطها. دخلت إلى غرفتها وأطفأت الضوء وطوت جسدها على ذكريات ملفوفة بشريط أزرق عنوانها «جدُّو وأنا». فكَّرت برسائلها إلى أمها التي لم تتلق أي رد عليها، وخطر لها أن نْزِنْغا كانت أقرب شخصٍ عرفته يمكن أن يحتل موقع الأمّ في حياتها.

حلمت ثانية تلك الليلة، كما ظلَّت تحلم لسنوات، بنهرٍ وصبيٍّ اسمه خالد له خطٌّ أبيض من الشعر، وببنتٍ اسمها مريم تحمل صندوقًا خشبيًّا فيه أوراق وأقلام، ينادونها بالعربية: «سلام يا نور عيون ممدوح». فتسأل نور باللغة العربية عما يفعلون. يقولون: «نتعلَّم اللغة». فتسأل: «هل تعلِّمونني؟»، فيهزُّ الصبيُّ خالد رأسه آسفًا ويقول: «عليك أن تتعلَّمي أن ترمشي بعيونك أوّلًا». ثم يعود هو ومريم للتحدُّث بالعربية التي لا تفهمها. في الحلم تحاول نور أن تَطْرِفَ بعينيها، لكنهما تصابان بالجفاف فتفيق مذعورة.

هذا الحلم الغريب الذي تلبَّس نور تغيَّر عندما بدأت تدرس العربية في الكلِّيَّة. بدأت وقتها ترى في منامها نفس الطفلين يستعملان ذات الكلمات، ولكنها الآن أصبحت قادرة على أن ترمش بعينيها. يمسك خالد بلوح عليه أحرف الأبجدية العربية، فتتواصل نور معه ومع مريم بطَرْف عينيها. تتحرك أصابع خالد فوق الأحرف فتَطرِف هي عندما يصل إلى الحرف الذي تريده. وهكذا كوَّنَتْ كلماتٍ عربيةً وجملًا، حرفًا حرفًا، فباتت قادرة على الحديث مع مريم وخالد.

ما إن تطبق نور عينيها في كل ليلة حتى تفتحهما في الجانب الآخر، ثم تروح تَطْرِف وتَطْرِف لتفتح مغاليق كلمات تعيش في أعماقها، ولتفهم شيئا فشيئا الأحاديث التي تدور بين مريم وخالد. وعندما قضت نور فصلا دراسيا في الجامعة الأميركية في القاهرة لتعلّم العربية في محيطها، ازدادت تلك المنامات وهجا وأصبحت تفاصيلها شديدة الوضوح، كأن الحلم يكاد أن يكون الواقع بعينه. تصحو كل صباح وغبش الحلم الذي كانت فيه يلفّها، تحاول التشبث بخيوطه الواهية، تفشل، فتطبق جفنيها وتحاول استرجاع الحلم من جديد.

IV

خرجنا من رحم النكبة نعمل ما استطعنا إليه سبيلا من بقايا حياتنا،
رفعنا بيوتا من الأنقاض، استحممنا حيث تسبح الأسماك، خلقنا حُبًّا من يأس،
ألقمنا مقاليعنا بالحجارة، وتوسلنا القوَّة في قنابل مولوتوف.

(28)

ألوان هي أمي، جنَّتي تحت قدميها. طيلة السنوات بعد اعتقال مازن، ظلَّت تراقب ستّي نظميَّة وهي تحاول استدعاء سليمان. لكن ستي لم تملك القدرة، فادَّعت ماما وهي لا تزال طفلة، بأنها تتواصل مع الجن. لم تكتشف ستي إلا بعد أيام أن ابنتها تتصنع الأمر برمته. فلوت أذنها وقالت لها إن الله لا يحبُّ الأطفال الذين يكذبون على أمَّهاتهم.

لم تعتبر ألوان جميلة. كانت نحيفة، ملامحها ممطوطة تعطي انطباعًا بأنها طويلة رغم أنها ليست كذلك. ارتسم وجهها بزوايا يمتد بوسطها أنف مثلث. جسدها أرض منبسطة بلا هضاب أو تلال. أو كما كانت حماتها تقول بحسرة: «حسرتي عليك يا ابنتي! لا صدر ولا قفا، معصعصة مثل عود الحطب الجاف». رغم ذلك، لم تكن ألوان بلا أية جاذبية. فقد كان ميلها إلى العزلة يضفي عليها شيئا من غموض يثير فضول الفتية من حولها، وكأنها أحجية تستثير شهوة فكها وفض سرها. كما عُرِفت بالتدين، فكانت الوحيدة التي ارتدت النقاب في عائلتها، وإن كانت أمها نظميَّة أقنعتها فيما بعد بأنه ليس فرضًا دينيًا. إلا أن شائعات اتصالها بالجن لاحقتها منذ الصِّغر، حتى أنها نفَّرت منها بعض الراغبين في الزواج.

عندما أوهمت الآخرين أن بمقدورها الاتصال بسليمان لم تقصد الكذب، بل كانت تتخيل الأمر وتمثله كما لو كان واقعيًا. ولما لوت أمُّها أذنها ظانة بها الكذب، ظلت متجهِّمة طوال اليوم إلى أن عاد عطيَّة من البحر. على عكس أمها التي أفرغت غضبها ونسيت الأمر، تمسكت ألوان بغضبها.

سألها أبوها: «ما بك يا ألوان؟»

فقالت: «أمي لوت أذني لأنها لم تصدق أنني أستطيع التحدث مع سليمان»،

لكنَّها ندمت على الفور. فقد جحظت عينا عطيَّة وعاودته من جديد ذكرى ليلةِ رعبٍ عاشها منذ أمد بعيد في بيت دراس.

«تتحدثين مع الجن؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم!» ثم صاح بجنون: «انظميييييَّة!»، وطفق يتعوذ ويبسمل بغضب. فأجهشت ألوان بالبكاء.

أصغى عطيَّة لزوجته وابنته وهو يحدجهما بنظرات نارية بينما أكَّدت كلٌّ منهما أنها لا تتحدث مع سليمان أو غيره من الجن. كان لهذه المحاكمة العائلية شأنٌ في توثيق صلة الأمّ بابنتها، فقد تواطأتا وأخفتا عن الأب ما في نفسيهما من رغبة دفينة في التحدُّث مع سليمان. في الصباح، نادى الأب ابنته بعد الإفطار لتلبس صندلها كي يذهبا معًا.

«إلى أين سنذهب يابا؟ إلى بيت عمتي ثُريَّا؟»

«لا».

«حتى نشتري حاجيات؟».

لم يرد، فمشت مدركة أنه قد حان الوقت لتطيع أباها دون كلام.

وصلا إلى بيت أحد الشيوخ. تشبَّثت ألوان بتلابيب قفطان أبيها رعبا عندما أبصرت وجه الشيخ. عينه اليمنى جوفاء مثل كهف مهجور واليسرى تجللها سحابة بيضاء.

قال الشيخ: «تعالي يا بنيتي هنا»، لكزها أبوها لتقترب منه.

جلست إلى جوار الرجل الضرير مرتاعة. خبأت أصابعها في فمها، كعادتها عندما تكون خائفة، ونظرت إلى والدها مستنجدة به لكي يعيدها الى البيت.

تتبع الشيخ المرعب بيديه الخشنتين قسمات وجهها ليستوضح معالمه.

ارتجفت شفتها السفلى وتدلَّت وهي تنهنه وأصابعها لا تزال مدفونة في فمها.

قرأ الشيخ الضرير بعض الآيات القرآنية على رأسها لمدَّة بدت لها وكأنها الدهر بطوله. لكن خوفها منه تلاشى شيئا فشيئا، فقد استحوذ عليها تملِّي معالم

كهف عينه الفارغة والسحابة التي خيَّمت على عينه الأخرى. ورغم ما بها من تعب وجوع، شربت ما أعطاها إياه من ماء مقروء عليه بآي من القرآن، وخَطَت فوق «البيُّور» سبع مراتٍ كما أمرها. ثم قرأت «الفاتحة» وتباهت بنفسها، لأن الشيخ اللطيف ذا العين التي تعلوها غيمة والمحجر الفارغ مدحها على حفظها سورةً عظيمة وهي ما تزال في هذا العمر الصغير. قال إنها ذكيَّة جدا، فقرأت سورا أخرى برهانا على صواب رأيه. فأردف الشيخ اللطيف: «عفارم يا ألوان، عفارم!»

شكره أبوها ووضع في يده ظرفًا قبل مغادرتهما.

توقفا في طريقهما إلى البيت لشراء حلوى السمسميَّة.

«سامحيني يابا يا حبيبتي إن كنت قد قسوت عليك قليلًا. أترين كل هذه الحلوى، اختاري منها ما تريدين». قال عطية وهو يحملها فوق كتفيه فشدَّت على عنق أبيها بحب ودلال.

ومع مرور السنوات التي تعجن وتليِّن القلوب، لان عطية. وسيجده العمر يومًا وهو عجوز يحدث حفيده خالد عن الماضي: «والله يا سيدي كل الذين نجوا من مذبحة بيت دراس أقسموا أن سليمان ساعدهم فعلًا. أقسم أكثر من واحد منهم أنهم رأوه بعيونهم وهو يقتل الصهاينة. رغم هذا يا سيدي لا أدري لماذا لم أستطع تقبل فكرة وجود الجن في بيتي».

بددت الأوامر الصارمة التي تلقتها ألوان في ذلك اليوم أيَّ خاطر أو حديث مع الجن من عالمها. لكن الشائعات ظلت تدور حولها، وتعلَّقت ملامح عالم آخر بشخصيتها المتحفظة الغامضة. لهذا تفادتها أمَّهات من يصلحون لخطبتها مؤثرات السلامة على الندامة. لكنَّ ألوان، أيضا، ابنة عطيَّة صيَّاد السمَك المحترم والمعروف بحسن خلقه ودينه، كما أنها أخت الأسطورة مازن أسير السجون الإسرائيلية الذي طبقت شهرته الآفاق. مع ذلك، كانت ألوان تتمنى أن يكون الحب سبيل زواجها، مثل أمها. كانت تشتهي قصة حب وغواية على شاكلة ما قاله شوقي يوما: «نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء». وربما أيضا وبعد

اللقاء تتشابك الأيدي وتنعقد الأنامل في رقصة محرَّمة، مثلما فعل والداها في بيت دراس فوق أنقاض مجد يوناني وروماني آفل. اختلقت ألوان قصص حبٍّ عاشتها في خيالها تحت سطح مظهر لا يبدو منه أي اهتمام بموضوع الزواج.

عندما جاء عبد القادر مع أبيه لطلب يدها كانت على مشارف الثامنة عشرة من عمرها. نصحها أبواها وإخوتها وصديقاتها بالموافقة عليه. فهو شابٌّ وسيمٌ بما فيه الكفاية، شَغِّيل وابن عائلة محترمة. كما أنه من لاجئي مخيم النصيرات، وقدم لها مهرًا معقولًا. وأحسن من ذلك كله، أنه صياد سمك مثل أبيها.

وافقت ألوان فانطلقت زغاريد نظميَّة، وهرعت إلى الخارج كي تُعلن النبأ السعيد للعائلة والجارات، فملأن هنَّ أيضا الجوَّ بالزغاريد. وعلى الفور، انهال الجيران والزوار على البيت بفضول لمعرفة من الذي ستتزوجه ألوان أخيرا. وعندما آذن موعد النوم، قالت نظميَّة لابنتها وهي منشغلة في مدِّ الفراش: «أنا الآن تعبانة كثيرا يمّه، غدًا نجلس وأخبرك بما يجب أن تفعلي مع زوجك في الفراش. سأشرح لك بالتفصيل أشياء كثيرة تعلَّمتها مع أبيكِ».

فقالت ألوان مُحرجةً: «يمَّه من شان الله اسكتي! لا أريد أن تقولي لي شيئًا!»

«طيب يمّه مثل ما تريدين، لكنك ستغيرين رأيك قريبًا. وإلا فما الذي ستفعلينه يا حزينة عندما يطب عليكِ عبد القادر وأنتِ مش فاهمة الخمسة من الطمسة؟». ضحكت ثم استلقت لتنام.

ترك عبد القادر المدرسة في سنِّ الثالثة عشرة، ليساعد أباه على قارب الصيد. ومنذ ذلك الحين قليلًا ما فارق البحر. حتى في العيد الذي يستريح فيه الناس من العمل، كان عبد القادر لا يجد راحته إلا في تمايل قاربه على وقع أمواج البحر. أما الأيام القليلة التي يمكثها في البر، فيقضيها كنحلة دؤوب، يرقّع ويدهن أرضية المركب، يصلّح مواسير صنبوري الماء الوحيدين في بيتهم، وربما، يثّبت مزيدا من الرفوف لحاجيات أسرته على الجدران الرقيقة التي تفصلهم عن جيرانهم. كان الجميع يتفقون على أنه رجل طيِّب و«شَغّيل»، ولم تجد ألوان سببا يدعوها لرفضه عندما طلب يدها. كما أن إخوتها أيضا يحبون

عبد القادر رغم أن معرفتهم به كانت سطحية، والواقع أن قلّة هم من عرفوه حقًّا، بمن فيهم نظراؤه من الصيادين الذين يفهمون نداء البحر للرجال وغوايته. فقد كان يقبع خلف طيب خصاله وهدوء مزاجه سكون مثل صمت البحر، لا يخترق. أحبه الصيادون مثلما يحبون البحر، وهم يعرفون أنهم لن يسبروا غور أيٍّ منهما ولن يهتدوا لأسرارهما.

قبل الموافقة النهائية تتطلّب الأصول مشاورة مازن في الموضوع، والحصول على مباركته أولًا.

(29)

ثلاث سنوات برمتها قضتها ستّي نظميّة في مناكفة الإسرائيليين لتتمكن من رؤية خالو مازن مرة أخرى. وبعدها أصبح وقع حياتها كله ينضبط وفق مواعيد زياراتها لسجن رامون، بل باتت تربط زمن كل ما يجري حسب قربه أو بعده من تلك الزيارات.

رغم أن مازن لم يسْمَح له بغير زيارة عائلية مرّةً كلَّ ستة أشهر إلى ثمانية، كانت نظمية شهريا تجدد الطلب الذي تقدمه للصليب الأحمر لزيارة سجن رامون. وبما أن مازن لم يكن متزوّجًا وليس له أولاد فإن أمّه هي الوحيدة التي يسْمح لها بزيارته. ولم تكن نظميّة لتسكت عن هذا الظلم بل كانت تشكو في كلِّ زيارة: «ماذا سيحل بابني عندما أموت؟ عزا، هل سيبقى هكذا من دون زيارة؟» لكن ذلك لم يكن يحرك ساكنا لدى سلطات السجن.

عندما تحين تلك الزيارات الغالية التي لا تتكرر سوى مرتين في السنة، تصحو نظميّة في الثالثة فجرا. فيتبعها في الاستيقاظ عطيّة والأولاد عن بكرة

أبيهم، يلفهم جميعا صمت مشحون بابتهالاتهم طوال الليل. يا رب يسّر هذه الزيارة لامرأتي، لأمنا، حتى ترى، ابني، أخانا. يا ربّ لا تحرمهما من رؤية بعضهما البعض. يا الله لا تجعلها ترجع قبل أن تسمع صوته وتكحل عينيها برؤيته.

كان عطيَّة يُعِدُّ لها الإفطار، ويحضّر الأولاد ما يكفيها من طعامٍ لرحلتها الطويلة، وينتقون صورًا لمازن كيلا ينسى أشكالهم. ثم يرافقونها تحت جنح الظلام وقبيل بزوغ الشمس، يقطعون حاجزين عسكريين يغمرهما ضوء كشافات أبراج المراقبة، بينما تنبّش القطط البريّة أكوام القمامة، حتى يصلوا إلى حافلة الصليب الأحمر، التي ستُقِلُّ أيضا عائلات الأسرى الآخرين الذين تطل من عيونهم نفس الابتهالات والدعوات.

يوم زيارة نظميَّة التي حملت فيه لمازن نبأ خطبة ألوان الوشيكة، رافقتهم عائلة عبد القادر لوداع الحجَّة نظميَّة. جلبوا معهم حلوى ورسائل حتى وإن كانت سجون العدو لا تسمح لنظمية بحملها إلى مازن. لمس عطيَّة يد نظميَّة فثارت لغتهما السريّة، تتبعا أصابعهما وهي تؤدي رقصتها القديمة، ثمّ قبَّل عطيَّة جبين نظميَّة وتمتم: «الله معك يا حبيبة قلبي، يا غالية.»

كانت الحافلة ممتلئة بالكامل، تشغل بعض مقاعدها أمٌّ وطفلها أو شقيقان يلتصقان ببعضهما البعض، يتناوبون على النوم وترقّبِ رؤية أسيرهم الحبيب. تجمع هذه الزيارات بين نسوة يأتين من قرى مختلفة مرَّتين في السنة، فيقضين الساعات بتناقل أخبار الولادات، والفضائح، والزيجات، والوفيات، والنميمة، ووصفات بعض الأكلات. أما الأطفال فينشغلون باللعب، وعندما يفلت أحدهم من زمام سيطرة أمه وينطنط هنا وهناك ترجعه إلى مقعده لطمة من أمّ أو جدة فاض بها الكيل. ويَّخت الحجة نظميَّة صبيًّا ظل يتراكض في جنبات الحافلة وأمرته أن يهدأ. بدت في الأفق نقاط التفتيش المقرفة واحدة تلو أخرى. جنودٌ في مقتبل العمر يحملون بنادق كبيرة، يصعدون إلى الحافلة ثم يخرجون منها، يأمرون الجميع بإخراج بطاقات الهويّة، وأحيانًا يأمرونهم بالنزول والاصطفاف.

انتظار يعقبه انتظار. افتحْ. انتظرْ. أرني هويَّتك. انتظرْ. تصبَّب عرقا أو ارتعشْ بردا. انتظرْ. أجيبي على الأسئلة: لماذا تغطين شعرك؟ لم تضيعين وقتك وتأتين للزيارة؟ هل ذقت عضوًا يهوديًّا؟ إنه مثل العسل.

كان بعض الجنود مهذَّبين، ربما يخجلون من وظيفتهم. أحدهم أعطى بنتا صغيرة قطعة من العلكة، فابتسمت، فيما بقيت نظرات أمها جامدة بلا تعبير. انتظروا جميعا. ثم أعادوهم إلى الحافلة، لكن خاطر رؤية أحبائهم من الرجال أنساهم إلى حين ما تعرضوا له من ذلّ ومهانة. إلا نظمية، التي راحت تنصب ألواحا من الكراهية في داخلها وتبني في مراح أفكارها سجونا تحشر فيها هؤلاء الجنود وأمهاتهم الشراميط حتى يعيشوا في ظلمات إلى الأبد.

وبعد مضي خمس ساعات كانوا ينتظرون خارج السجن. دخلن إلى غرف صغيرة وأُمِرْن بالتجرد من ثيابهنَّ. وهناك انتظرن وهنّ عاريات، يحاولن تفادي أو إنكار عريهن بالنظر إلى الحيطان أو بلاط الأرض. إلا نظميَّة التي طالعت أجساد المحيطات بها وراحت تعلّق على انتصاب وتهدّل أثدائهن. «لعنة الله على اليهود الذين حرموا زوجك المسكين من مصّ هاتين التفاحتين الناضجتين». ثم أمسكت بثدييها: «في صباي كانا نافرين ويا محلى نفرتهنّ! لكن زوجي وأولادي لم يدعوهما حتى نشفوهما.» ضحكت بارتباك لأنها تعلم أن كلامها لا يناسب المقام. لم يعاتبها أحد. لكلٍّ منهن الحقُّ في مواجهة هذا الموقف المذل بطريقتها الخاصَّة. تمتمت واحدة منهن، ثدياها ذابلان متهدلان، بدعوات لله أن يلهمها القوة والصبر وأن يعفو عن الظالمين.

أجل، لكلِّ امرأة الحقُّ في مواجهة هذه اللحظات بطريقتها، إلا هذه. صرخت فيها نظميَّة وقد تبخّر ظرفها المرتبك: «سدّي حلقكِ يا امرأة! يعفو عنهم؟ عزا، هل أنتِ مخبولة؟ هؤلاء هم من سرقوا حياتنا وحياة أولادنا. يصفّوننا هنا مثل البقر، يحلبوننا أو يغتصبوننا على مزاجهم، وأنتِ يختي تدعين الله ليغفر لهم؟ ادعِ الله ليحرقهم كلهم أو اخرسي وقولي في سرِّك ما تشائين، النار مشتعلة في قلبي الآن. احتملنا البلاء وسكتنا عليه لنرى أولادنا فقط، فلا

تخرجيني عن طوري أحسن لك». امتنت نظمية لهذا الاحتقار حيث حلّ محلّ التعليق على الأثداء وملأ غضبُها مساحة الإذلال التي اتسعت بالعري، وبجهاز كشف المعادن الذي مررته جندية على جسدها وبين فخذيها. أجهشت المرأة ذات الثديين المتهدلين بالبكاء، بينما واستها الأخريات، فالتفتن بنظرات تنتقد نظمية وتعوذن من الشيطان الرجيم. ثم جاءت مجنَّدة بصندوق فيه ملابسهنّ وأذنت لهن بيدها أن يرتدينها.

ثم مضت ساعتان أخريان قبل سماعهنّ النداء بأسماء الزائرات. ينادون واحدة ولما تنتهي ينادون على الأخرى. كانت من ينادى اسمها تفزّ على قدميها بخفة وكأنها ريشة تطير في الهواء، ثم تختفي وراء أبواب من قضبان حديدية. حين نودي عليها، قفزت نظميَّة من مطرحها واصطفّت لتمرّ عبر المعادن والخشب والبنادق والجنود والجدران والآلات حتى وصلت أخيرا إلى الكرسيّ البلاستيكي قبالة الحاجز الزجاجي ووراءه ابنها ينظر إليها. لا يزال وسيمًا، شعره تغبَّر برماد السنين وبشرته باهتة تتوق للشمس. ورغم أن عينيه الرماديتين غائرتان تحت جفنيه المرهقين، فقد بقي الجمر فيهما يشع بالحياة. طيلة الدقائق الثلاثين العزيزة، هامت نظميَّة في سحر وجه ابنها الغالي. تراه يحرك شفتيه لكنها لا تسمع صوته إلا عبر سماعة هاتف، تضغطها على أذنها بشدة لتحس نبض كلامه في كلّ جسدها. منح موافقته على زواج ألوان وبارك لها، ضغط بكفه على الزجاج ليعانق كفّ أمّه على الجهة الأخرى، ابتسم وطمأنها أنه صامد ومعنويّاته عالية. راحت نظمية تعرض عليه عبر الزجاج الصور التي حملتها له. زمّ عينيه محدقا في وجوه أولاد إخوته الذين ولدوا في غيابه ومن كبر من أشقائه وأصدقائه القدامى. أخبر أمَّه عن أسرى جدد وقدماء، وعن سجناء سياسيين مشهورين، لكنهما لم يفرِطا في الحديث لأن كلَّ ما يقولانه مرصود ومسجَّل.

ومهما كان حال الدنيا في الخارج فإن في داخل هذه الغرفة الصغيرة بكرسيِّها البلاستيكي وحاجزها الزجاجي تتواصل الحياة بين أم وابنها الأسير، السماء صافيةٌ والهواء عليلٌ، والشمس مشرقةٌ، والقمر متبسِّمٌ والنجوم برَّاقة،

والأنهار تتدفق بماء عذبٍ والأشجار تترافص مع النسيم. تشرّبت نظميَّة بظمأ كل هذا، قبضت على كل كلمة نطقت بها شفتاه، كل ومضة حب في عينيه، وأحكمت إيصاد الذاكرة عليها. حفظتها هناك لتسترجعها فتعدَّ شعرات شاربه لو شاءت، أو لتطرب على أنغام قسمات وجهه الحبيب.

دق الجرس المنذر بانتهاء الزيارة، فتعانقت نظرات الأم والابن، كأنهما يرفضان مرور الوقت وتبقى تلك الدقائق الثلاثون تحيا إلى الأبد.

فتّش الجنود النسوة ثانية قبل خروجهن من السجن. تكرّر العُري، وصندوق الملابس، والحواجز المعدنية، والقضبان الحديدية، والأبواب، والجدران والوقت المهدور. لكن المهانة لم تجد لها من سبيل إليهنّ هذه المرّة. انسربن بصمت داخل أنفسهن، جلّلتهن بالعزة والكرامة تلك الغرف الصغيرة التي حملنها في قلوبهنّ، بكراسيها البلاستيكية وزجاجها المتسخ ونبضها بأنغام الحبّ. وبقين في تلك الغرف الساحرة طيلة ساعات من طريق العودة، عبر نقاط التفتيش والسماء التي خفت بصيص نورها. عاد الولد الشقيُّ الذي وبَّخته نظميَّة في رحلة الذهاب إلى شيطنته. لكنها ابتسمت هذه المرة وشدّته إلى حضنها: «ياباي ما أحلى هذا الولد! تعال يا شاطر هنا، خذ هذه يا بني»، أعطته قطعة حلوى من حقيبة يدها.

(30)

قالت لي ستّي نظميَّة إنه كان لها ولجدُّو عطيَّة لغةٌ خاصَّة ترقص بين أيديهم وعبرها يتبادلان الحب والحنان وما لديهم من أسرار وهموم. لم أكن قد وُلِدْتُ بعدُ، ولكنني أدري أن أيديهما رقصت فرحا يوم زواج والديّ. وأعرف أيضا أن أصابعهما تشابكت بشيء من القلق والفزع بعد الزفاف.

مثل سائر الأعراس في المخيم، اجتذب زواج ألوان وعبد القادر مئات المدعوين وآلاف المتفرّجين في الطرقات والأزقّة. وبدا جليّا أن لمّ شمل هذين العروسين كان يحظى بكثير من الفضول والترقب. انطلقت زفّتان منفصلتان في شوارع المخيم، إحداهما تحمل العروس بثوبها الأبيض المطرّز وهي جالسة على كرسيّ، والثانية تدور حول العريس وهو راكب فرسًا، وازدان كل من الكرسي والحصان بالزهور والرايات. غنّى الرجال والنساء، دبكوا ورقصوا، دعوا وزغردوا، فطرب حتى من كان في الشرفات التي تحفُّ بالأزقّة.

لكن لم يكن هناك من هو أسعد من الحجّة نظميّة التي رقصت وغنّت في طول الشوارع وعرضها. ولو أن أهل المخيم لم يَخبَروا فظاظتها وطيبة قلبها معا، لأخجلهم منظر حجة بثوب فلاحي تهزّ خصرها وردفيها على الملأ. ولكنهم «سحجوا» وغنوا معها. كانت تحمل صورتين، كلّ واحدة في إطار: صورة لمازن، وأخرى لممدوح وياسمين، ترفعهما أحيانًا أثناء الرقص. تلملم شمل الغائبين، وكما يقولون: «الريحة أحسن من العدم».

كان من المتوقع أن يصل ممدوح من أمريكا قبل حلول موعد الزواج، إذ تمكن أخيرا من استلام الأوراق الرسميّة التي تخوله حق الحضانة لحفيدته والتي لا يستطيع بدونها السفر مع نور. كان عائدًا إلى فلسطين برفقة أصغر أفراد العائلة عودة بلا رجوع. لما تأملت نظمية الصور التي بعثها ممدوح بالبريد اندهشت حين اكتشفت أن نور ورثت عيني مريم. حملت صورة الصغيرة نور وبكت واثقة بأن مريم تعيش في عروقها. ولمّا أسرّ لها ممدوح بأن نور ترى الألوان مثل مريم، اشتعل فضولها وشوقها لرؤية حفيدة شقيقها. وأخيرا بدأت الحياة تلمّ شملهم ويتجمع ما كان منفردًا ومشردًا في بوتقة الحب.

مضت قرابة ثمانية أعوام منذ أن رأت نظمية أخاها وزوجته ياسمين. جاءا وقتها بشوق عارم للجميع ولهفة لأرض الوطن، ومعهما حقيبتان مليئتان بالهدايا من أمريكا. عندما سمعا الأذان بكت ياسمين. كانا يسدلان أجفانهما، ويتنشّقان روائح السوق ويعبّان نسيم بحر غزّة. استولت عليهما نظميّة وغمرتهما بحبها.

جاءت أرملة النحَّال كي تستلذ هي أيضًا بوجود ممدوح وياسمين وقامت تطبخ طعامًا للجميع في بيت نظميّة. وكلما ذهبت نظميَّة وياسمين إلى أي مكان تشبكان أيديهما مندهشتين بمرافقة بعضهن البعض. سهرتا، ليلة بعد ليلة، تتجاذبان أطراف الحديث حتى يغلبهما النعاس. كانتا تدخنان النرجيلة عصر كل يوم، وتملآن الساعات بالعيش مرة ثانية في حكايا ناس وأمكنة من زمن يقبع خلف الجفون. يتسمّر أحفاد نظميَّة، الذين لا يصغرون عمّتهم ألوان بكثير، وينصتون كالمسحورين لتلك القصص، يتفلّتون من قبضات أمّهاتهم حتى لا يعودوا إلى بيوتهم. وحين يستلقون في الفراش يحلمون ببيت دراس، بنهر وبامرأة كانت تتحدث مع الجن وبنت اسمها مريم علَّمت نفسها القراءة.

عندما حلّ يوم سفرهم المحتوم، استبد الحزن بالجميع. كان بودِّ ممدوح وياسمين أن يبقيا ولا يرجعا إلى الغربة لولا محمد ابنهما الذي رفض العيش خارج أمريكا. كان يدرس في الجامعة ومرتبطًا بفتاة إسبانية لا تطاق، وراحت نظميّة تشارك ياسمين الدعاء لله أن يسارع بفك تلك الخطوبة. فقد زارهم محمد في صغره مع أمه وأبيه. رفض أن يتكلم العربية وتذمَّر من كلِّ شيء، بدءًا بالطعام وانتهاء بما اعتبره انعدامًا للنظافة. أراد إخوة ألوان أن يذيقوه «علقة جامدة» استحقَّها بجدارة، لكن نظميَّة تدخَّلت، ثم ندمت. قالت لعطيَّة: «أترى ماذا يحدث للأولاد وحيدي آبائهم؟ لا يجدون طول عمرهم أبًا ولا أمًّا ولا إخوة يضربون اللؤم والخبث فيهم حتى يخرجوه من رؤوسهم. ليتني تركت الأولاد يطعمونه قتلة لم يذق مثلها في حياته. ربما ينصلح حاله وينعدل. أعوذ بالله من هذا الولد. هل هكذا تفعل الغربة. يا ويلي على ياسمين. الله يهديه.»

في السنوات التي أعقبت تلك الزيارة تزوج ابنهما من الفتاة الإسبانية وخلَّف منها بنتًا سُمّيت نور. أيضًا في تلك الأيام، عاد السرطان لينهش جسد ياسمين وتوفِّيت على الأثر. وسرعان ما لحق بها محمد بعد وفاته في حادث سير. وفي حسرته، شكر ممدوح ربَّه لأنه أراح ياسمين من مرارة فقدان ابنها الوحيد وقرّر على الفور العودة إلى غزّة بلا رجعة، لكنه لن يفعل دون اصطحاب نور معه.

«ارجع الآن يا خوي الله يرضى عليك»، ترجّته نظميَّة: «لا يعيش الشخص ولا يموت بكرامة إلا في بلده وسط أهله.»

وبعد معارك قانونية استغرقت بضع سنوات وكلّفته كلّ ما يملك، حصل ممدوح على حقّ حضانة نور. حينها كانت سعادة نظميَّة أعظم من الكون بكل ما فيه، فها هي ابنتها الوحيدة توشك على الزواج، وأخوها سيعود أخيرا إلى أرض الوطن مع نور، حفيدته التي ربما كانت مريم تعيش فيها، كما أنها لا يراودها شك في أن الله سيفرّج كرب مازن ويعيده إلى أهله سالما غانما.

ومع أن نظميَّة شعرت بخيبة الأمل عندما أبلغها أخوها باضطراره إلى تأجيل السفر بسبب مرض بسيط، إلا أنها لم تقلق كثيرا، لكونه طمأنها بأن لمّ شملهم لن يستغرق وقتًا طويلًا. اقترحت عليه تأجيل العرس، لكنه أصرَّ على سير الأمور كما هي فهو سيكون بينهم في القريب العاجل. قال: «إن شاء الله سنلتمُّ عن قريب.»

بعد أن تمَّ الزواج، أخذ ممدوح يتَّصل مرَّات عدَّة في الأسبوع. وعندما دخل المستشفى، حاول طمأنة نظميَّة بأن المرض بسيط لا يستحق القلق، لكنها أحست أن الأمر ليس على ما يرام. أخبرها أنه مصاب بالتهاب في الرئة، وأن المضادات الحيويّة تقضي دائما على الالتهابات، وأن غربته الطويلة ستنتهي قريبًا مع عودته إلى الوطن أخيرًا. لعن الغربة التي سرقت منه كلَّ شيء، اقتلعت وطنه وتراثه ولغته من قلب وعقل ابنه الوحيد، خطفت منه ياسمينته، وجعلته عجوزا في بلد لم يألفه أبدا. لكن الحياة لم تخلُ من الرحمة أيضا، فقد وهبته هذه الحفيدة المعجزة التي ستعود الآن معه إلى غزة. إنها تتكلم العربية، ولا حدود لشهيتها لسماع حكايا فلسطين. وهما يؤلفان معا كتابًا عن الأشياء التي يحبانها، قال لأخته: «سمّينا هذا الكتاب «جدُّو وأنا»».

ردَّت عليه نظميَّة بقولها: «أدام الله عليكما المحبة وأعطاك طول العمر يا خوي حتى تكون أباها وجدها أيضًا». لكن قلبها في الحقيقة ينغص عليها، تمنت لو تسأله لماذا كل هذا الهلع والإطناب في الحديث عن الماضي.

ثمَّ توقَّفت المكالمات.

اتَّصلت نظميَّة، ولكنَّها لم تتلقَّ ردا سوى تلك الرسالة الآلية المسجَّلة بالإنجليزية التي لا تفهمها. طلبت من ألوان أن تجرِّب فتلقَّت الردّ نفسه. أمرت أحد أبنائها بالاتصال ظنا منها أنها وألوان أخطأتا في الرقم، لكن الردّ لم يتغير. حينها لعنت وصرخت على أولادها لأنه لا يمكن الاعتماد عليهم حتى في مهمة سخيفة مثل الاتِّصال تلفونيا. أخذت تستيقظ مرات عدَّة في الليل لتتفقد التلفون الأصفر في غرفة القعدة. ثم سوَّت لنفسها فراشا بسيطا، حصيرة ومخدة، لتنام قرب التلفون الأصفر، وصارت تنام في غرفة القعدة وتستيقظ مرات كثيرة لكي تتأكَّد من وجود حرارة في التلفون. تحلم أحيانًا بأن ممدوح اتصل، فتصحو وتتلهّف أن يكون بخار الحلم واقعًا. عندما يتناولون الطعام كانوا يضعون التلفون إلى جوارها. ولمّا تباهى أحد أحفادها بعلاماته العالية، أمرته فورا بضرب رقم أخيها: «أنت أشطر واحد بينهم، أنا متأكدة أنك ستتصل مزبوط، وليس مثل الباقين الذين لا يعرفون كيف يطلبون الرقم مثل الأوادم، هيا يا حبيبي.»

نظر الصبي الذي لا يبلغ سوى إحدى عشرة سنة إلى الكبار الذين لا يقِلُّون عنه دهشة، إصبعه تدير قرص الأرقام، يضرب رقما ثم يتوقف إيذانا بلف الرقم الذي يليه.

قالت له وهي تسمع تلك الرسالة المسجلة اللعينة: «معلش يا حبيبي، المهم أن نظل نحاول وأنا متأكدة أن الخط سيلقط في النهاية». ثم أخذت سمَّاعة التلفون ووضعتها على أذنها لتتأكد من وجود الحرارة.

رنَّ التلفون الأصفر أخيرًا. كانت نظميَّة واثنتان من كنائنها وابنتها العروس في السوق يشترين الخضراوات والفواكه لطبخة يوم غدِ الجمعة. وقد وافقت على ترك التلفون الأصفر لأن في محل أبي براء، تاجر البهارات، تلفونا أحمر. ووعد عطيَّة بتوجيه أي مكالمة لها إلى هناك، وكان يسرع الخطى باتجاه السوق عندما رن التلفون الأحمر. سلَّم أبو براء باندهاش سماعة التلفون إلى نظميَّة التي كانت جالسة في دكانه تشرب الشاي. جحظت عينا نظميَّة وصرخت في الجميع أن يصمتوا.

«ممدوح، ممدوح. هذا أنت ياخوي؟ ممدوح؟» تجلّت تلك اللحظات على وجهها بابتسامة لا يمكن وصفها. ثم سقطت تلك الابتسامة. سقطت السماء، سقطت بيت دراس، وسقطت نظميَّة على ركبتيها وتكومت أرضًا. رفعت رأسها بيديها وسماعة التلفون على أذنها.

أحاطت ألوان والكنتان بنظمية، بينما راحت تنداح من بؤرة الزلزال الذي عصف بكيانها دوائرُ من الصمت في قلب السوق الصّاخب. ترك التجار زبائنهم ليراقبوا ما يحدث، أصوات البيع والشراء تحولت إلى همسات تقول إن الحجَّة نظميَّة تلقَّت مكالمتها أخيرًا، وإن الخبر الذي تلقَّته هو ما كان يخشاه الجميع.

جاءت المكالمة من أحد أصدقاء ممدوح القدماء في كاليفورنيا، رجل فلسطيني تعرَّف على ممدوح منذ أن وصل إلى الولايات المتَّحدة. كانت نظميَّة تدري بوجوده لأنها كلَّمته في السابق عندما اتَّصل بها ممدوح وياسمين قبل سنوات. قال إنه حزين جدًّا ويأسف لنقل خبر كهذا. ثم أضاف بأن هناك أشياء ممدوح الخاصة التي تعذّر تركها مع نور لصغر سنها. لكنه وعد بإرسال الطرد الذي استلمه من دائرة رعاية الأطفال. أما نور التي كان ممدوح قد طلب منه التأكد من عودتها إلى غزة للعيش مع عائلتها بدلًا من دور الرعاية، فقد عادت إلى حضانة أمها، ولم يعد بمقدوره عمل أيِّ شيء. شعرت نظميَّة بالدموع تُبلّل كلماته. فلم يكن ثمة وسيلة لإخراج نور من البلاد. كان واثقًا من أنها تُنشّأ في تربية مسيحية، وأمها لا تسمح له بالتحدُّث مع نور. قال: «أنا رجل عجوز يا أختي أظل غريبًا في هذه البلاد. أتمنى لو بيدي أكثر من هذا لأفعله.»

ظلت نظميَّة ممددة في مكانها على وجه الأرض في السوق. تآمر ثقل قلبها الكسير مع قوة الجاذبية لتهبط وينكسر ما بقي منها سالمًا وتتحوّل إلى مجسم من صمت عميق وكثيف.

همست امرأة بين المتجمهرين: «ماذا جرى؟»

فأجاب أحدهم: «الحجَّة أم مازن أتتها المكالمة، إنا لله وإنا إليه راجعون!»

عاشت أمّي وأحبت بهدوء، كأنها تراقب العالم عبر شقوق الستائر. حسِب الناس أنَّ تقواها دفعتها إلى ارتداء النقاب في شبابها، ولم يعرفوا بأن النقاب أكمل رغبتها في الاختفاء - كي تأخذ تلك الستائر معها أينما ذهبت لتتوارى خلفها حيثما حلت وارتحلت. لكن أبي رآها، ببصره وبصيرته، عبر إلى خلف الستائر وأحبها هناك كما هي. ولمّا قرَّرت خلع النقاب ظنَّ الناس أنها تحاول إسكات نقيق ستّي نظميّة. لكنها فعلت ذلك لأجل بابا. لم يطلب منها ذلك أبدا، لكنها كانت تعرف أن نفسه لا تستقر إلا برؤية وجهها، كل وجهها، في فضاءات حياته كلّها.

جرّت السنون على ألوان وجع عدد من حالات الإجهاض وطفل ولدته ميتا. كما جلبت معها أيضًا مزيدا من المستوطنين والجنود الإسرائيليين والاستيلاء على الأراضي. وبينما راحت المستعمرات والحواجز العسكرية تقضم رؤوس التلال، حفر الدهر دهاليز في رحم ألوان. ومع أن السنوات الأولى من زواجها كانت مليئة بالأمل والحب والسعادة، إلا أن أشباحًا بدأت تتجمع في زوايا أفكارها وتراكمت نظرات الخيبة من عيني أهل زوجها في بطنها الفارغ. تضخَّمت صحراء رحمها حتى ابتلعت كلَّ أفكارها وملأت غرف بيتها. قالت لزوجها بعد خمس سنوات من الزواج: «صدقني يا حبيبي أنني لن أزعل منك لو تزوجت عليّ. لكن كل الذي أطلبه هو ألا تطلقني».

فرد عليها عبد القادر: «لا أحد يا حبيبتي يأخذ في هذه الدنيا إلا نصيبه، كل شيء قسمة ونصيب. دعينا نترك هذا الموضوع لرحمة ربنا».

لقد فكَّر عبد القادر فعلًا في الزواج ثانية تحت ضغط والدته التي ما انفكّت تجوح وتنوح على بخت ابنها العاثر بالعيش دون أولاد من صلبه. لكنه خاف أن

يكون بذاره هو لا أرض ألوان سبب عدم إنجابهما. وفي تلك الأيام، وافق عبد القادر على الانتقال إلى بيت أهل ألوان. فإخوتها بنوا بيوتهم بقرب بيت الأهل، أحدهم رفع طابقا فوقه وسكنه مع عائلته. لم يعد في البيت سوى والديها، ولا تزال غرفتها على حالها منذ يوم زواجها. شعرا بالارتياح لقرار الانتقال الذي بثّ فيهما حيوية وتفاؤلا جديدين، كما ولّد بينهما شيئًا من تواطؤ على تناسي أمر الحمل والتسليم بالمكتوب. عبّرا لبعضهما عن هذه القناعة بحميمية الجسد، تكلما عنه دونما كلمات، وأدركاه لما مارسا الحب في أول ليلة قضياها في بيت أهل ألوان. حبّ شهيّ خالص منفلت من عقال الرغبة في الحمل، أبصرته ألوان في عيني زوجها فشهقت من فرط اللذة. احتضنها عبد القادر بقوّة، قبّلها بعمق وداعب كل شبر في جسدها. انتابها جوع وحشيٌّ نهش روحها فانبعثت في جسدها شهية جامحة لم تعهدها من قبل. أطفأ كل منهما نيران الآخر، حفر الواحد منهما بفمه وأسنانه وأظافره ملاذا له في جسد الآخر، ثم أودع كل منهما فيه قطعة من قلبه.

حملت ألوان ثانيةً، لكنهما لم يجرؤا على الأمل. راح بطنها ينتفخ ويتكور، متحررا من افتراض الولادة. حتى وهي في الشهر التاسع كان عطية وعبد القادر يصيدان في البحر عندما داهم ألوان الطَلْق، لكنها منعت أمَّها من إرسال الخبر لزوجها. أرادت أن تعفي زوجها من خيبة أمل أخرى وأن تتحمَّلها هي من دونه. كما رفضت الذهاب إلى المستشفى، وأصرت على أن تكون ساعة حظها العاثرة بعيدة عن أعين الرقباء. حينها استدعت نظميَّة الداية وعاونتها على توليد ألوان. وبعد أربع ساعات من الطَلْق أنجبت ولدا ذكرا.

هكذا وُلِدْتُ في 27 كانون الأوّل من سنة 1998، أي قبل ثلاثة أسابيع على موعد زيارة ستّي التالية لخالو مازن.

لا أعرف من سمَّاني أو متى. كانت مريم تناديني بخالد، لكنني لا أدري إن كنت قد قلت لها إن ذاك هو اسمي، أم أنها دعتني به لتطلقه سنّي عليّ يوم ميلادي. وهكذا، تكون مريم هي التي سمَّتني قبل أن أكون قد ولدت، وبعد أن عبرت الأزرق بين السماء والماء في العاشرة من سنِّي. أدري أن ذلك لا معنى له، لكنني لا أستطيع روايته بأيِّ طريقة أخرى.

رفعت نظميَّة حفيدها الذي كان يصرخ وهو مبلل بسوائل الولادة. غاص قلب ألوان في صدرها لمّا رأت وجه أمِّها الذاهل. سألتها: «ما به، هل هو بخير؟» نظرت نظميَّة إلى ابنتها ثم إلى الطفل وقالت: «خالد. سمِّيه خالد. يا إلهي ما أحلاه! مثل فلقة القمر!» وضمَّت الوليد إلى صدر أمه.

أخذت ألوان ابنها الغالي وطارت به فرحًا. خالد، أعجبها الاسم. لكنَّها أصرَّت على الانتظار ريثما يعود عبد القادر. فقد أرسلت نظميَّة وراء عطية وعبد القادر ليحضرا على الفور. لم يكد النبأ يخرج من الباب حتى غصّ البيت بالأقارب والأباعد. أتى إخوة ألوان وعائلاتهم وأنسباؤهم وكذلك إخوة عبد القادر وعائلاتهم. حتى أمُّ عبد القادر تخلَّت عن نكدها وجاءت مهللة مستبشرة. هرع الجيران أيضا جمعا وفرادى ليشهدوا الحدث السعيد. قال الجميع: الحمد لله، يا ربته ألف مبروك! الله يحميه ويحفظه! جموعهم التي ملأت غرفة القعدة وفاضت في الأزقة المجاورة، تمكنت للحظات من رؤية ألوان فقط دون خالد. فقد منعت الحجَّة نظميَّة الجميع عنه، ولم تسمح بذلك إلا لحماة ألوان وعطية وعبد القادر. تعذَّرت لهم بالخوف من الجراثيم، ولكنَّها كانت تخشى المقادير، وتحديدا عين الحسود. ما كانت لتسمح لأحد بالاقتراب من حفيدها قبل أن تقرأ المعوذتين على رأسه، وتُثبّت الخرزة الزرقاء على صدره لتقيه شرّ الحسد والحاسدين.

عاد عطيَّة وعبد القادر على جناح السرعة، وعندما وصلا كان البيت يغصّ بالناس. كما كان اسم خالد قد شاع وذاع حتى بات تغييره صعبا، رغم أن عبد القادر كان ينوي في الأصل تسمية أول ولد له محمدا تيمُّنًا باسم أبيه.

حمل عبد القادر ابنه وعيناه مغرورقتان بالدموع، فبدأ من في الغرفة بالانسحاب حتى يلتئم شمل العائلة الصغيرة. احتضنا طفلهما وعبرا به إلى دفء عزلة نسجاها معا. تأمّلا بهاء وجهه، تفحصا سرته المنتفخة، نظرا إلى ما بين فخذيه، فأطريا ضاحكين بمرح على «حسن العدة وضخامة حجمها». راقباه وهو يرضع من أمه، قبَّلاه واستنشقا عبير جسده، وحمدا الله مرارا وتكرارا على فضله ونعمته.

(33)

ستِّي نظميَّة هي من قطع حبْلي السُّرِّي. قالت إنها عرفت ما إن حملتني أنني سأكون حفيدها المفضل. لكنَّ ذلك كان سرًّا بيننا، وقد حافظت عليه.

عندما وُلِدَ خالد، ابنُ ألوان وعبد القادر، ظنّت الحجَّة نظميَّة أنه كان في الدنيا قبل ميلاده. كانت أولَ من أنعم النظر فيه، وعندما حملته بسم الله الرحمن الرحيم كاد أن يسقط من بين يديها لمّا رأت البياض الذي يخطّ سواد شعره. تذكّرت على الفور كلام أختها مريم: «شعر خالد فيه خط أبيض.» لا بد وأن لله حكمة في ذلك، فما هي يا ترى؟ عصرت دماغها لكن أفكارها تخبّطت واضطربت. تمتمت في نفسها: «عجوز غبيّة» قبل أن توصد باب التفكير في الأمر. لكنها وبعد سنوات عندما بات خالد قادرا على الكلام سألته إن كان قد عرف بنتًا اسمها مريم أو حلم بها.

كان جوابه الدائم: «لا»، مهما تفنَّنت في صياغة السؤال.

رغم نكد تزايد المستعمرات الصهيونية وتهديد الجنود وتعدّي أبراج المراقبة، استمرت العائلة تتوسل الحياة بالصيد من هبات البحر، بالعمل والكدح، بالقيل والقال، بالسياسة والمقاومة، وبالحب. وما إن تزوج جميع أبناء الحجَّة نظميَّة وبدأوا بالإنجاب صارت تحيط بها يوميا كتيبة من الأحفاد الذين يناغشونها ويتنافسون على محبتها. كانوا أبناء عمومة ينقسمون ويتعاركون ويتَّحدون حسب علاقات أمهاتهم الآنية. إذ أن غيرة الأمهات ومناكفاتهنّ هي التي تحدد خريطة التحالفات المتقلبة. كانت حروب الكنائن مثل عواصف ناريَّة تجلجل باللعنات أو كجبال من جليد، يجرجرنها إلى مطبخ الحجَّة نظميَّة أيّام الجُمع حيث يتجمع الكل للغداء بعد الصلاة. وبقدر ما كانت تلك اللمَّات مناسباتٍ للصلح، فإنها كانت أيضًا ساحاتِ حربٍ تُقذف فيها التعليقات الجارحة، والنظرات المتشفِّية، فتدور الأعين في المحاجر، وتتغضَّن الجباه استهجانا، وتخبط الأقدام الأرض غضبًا. مع ذلك كانت هناك حدود في بيت الحجّة نظميَّة لم يجرؤ أحد على تجاوزها. فليس مسموحًا لأحد أن «يسبَّ الربّ»، أو أن يكيل شتيمة نابية. وكلمةُ الحجَّة نظميَّة هي الكلمة الأخيرة، وسلطتُها مطلقة في المخاصمات العائلية.

كانت لمَّة غداء الجمعة في بيت الحجَّة نظميَّة تحدِّد وقع بقية أيام الأسبوع. فعندما تأتي إحدى السَّلَفات وتتباهى بثوبٍ جديد: «اشتراه لي جوزي والله ومن غير مناسبة»، كانت الأخريات «يُبَوِّزْن» لأيام ويطالبن أزواجهنَّ بمثله: «لماذا لا تكون مثل أخيك؟ يشتري لامرأته هدية بلا مناسبة!» ويتكرر نفس الأمر عند شراء أحدهم قطعة جديدة من الأثاث أو من الأدوات الكهربائية. ولكثرة ما حدث ذلك رجا الإخوة بعضُهم بعضًا ليمنعوا زوجاتهم من إثارة فوضى الغيرة تلك. ولكن دون فائدة. فعندما تحمل إحداهن كانت نظميَّة تداعب الزوجات الأخريات: «من المؤكد أن بقية أولادي سيستمتعون بالفراش في الأسابيع القادمات، لأن كل واحدة منكن لا يوجد في رأسها غير الحبل الآن! «كانت

ألوان ترجو أمَّها أن تكفَّ عن كلام من هذا القبيل، فتقول لها: «بكفي يمّه، وإلا ظننّ أنكِ جادة.»

فتجيب نظميَّة: «ومن قال إنني لست جادة؟ اصبري وسترين بعينيك، أسابيع قليلة والله يا ألوان وستأتي اثنتان منهن على الأقل حبالى».

زادت ألوان قراءتها للقرآن كأنما لتغطي قليلا على كلام أمِّها الجريء. كانت تقف على الحياد في حروب الكنائن ولم يكن في طبعها ما يستفز الأخريات. فهي الابنة الوحيدة للحجَّة نظميَّة، لا تملك جمالًا لافتًا، وليس لها سوى ابن واحد وزوج غريب الأطوار لا يحبُّ مخالطة الآخرين. وهي أيضا أقرب الكلّ إلى الحجَّة نظميَّة، أي للُّحمة التي تحفظ شمل الأشقاء وترغم زوجاتهم على التعايش معا. أما الحجَّة نظميَّة فـهي رأس العائلة وكبيرتها ذات اللسان اللاذع التي تحبها الجدّات الأخريات ويكرهنها على حد سواء. ولعلّها الجدّة الوحيدة التي تنادى باسمها الأوَّل، فسائر الجدّات الأخريات لا يُخاطَبْنَ إلا بأمِّ فلان. ولكن مناداة الحجَّة نظمية باسمها لم تكن أمارة على عدم الاحترام بل شهادة على طغيان الحضور: خليط يجمع بين الشقاوة، والأمومة، والطيبة، والاقتدار الجنسي، والجرأة. ما من ابنٍ أو زوجٍ بقادرٍ على أن يغيّر لها اسمها. كان الناس ينجذبون إليها، وأبناؤها وأحفادها شديدو التعلُّق بها، يقبّلون يدها عند المجيء والانصراف. وهي أيضا الحماة التي علَّمت كنائنها طهي الطعام حسب ما يشتهي الأزواج، وهي من تجعلهن جميعا يتضرَّجن خجلًا مما تسأل: «قوليلي يا حبيبتي هل يعرف ابني شغله بالفراش؟ إذا ما بعرف مليح لا تخافي وقولي له وعلميه ماذا يفعل»، فيضحكن. وعندما يحتجن للبكاء يتلقفهنّ صدْرها الحنون. تدريجيًا ودون أن يشعرن، صارت الكنائن اللواتي يحسبن أنهنّ لا يطقْن بعضهن بعضا مرتبطات بوثاق الأخوة في كنف الحجة نظميّة. وهذا ما كان يتجلى في أوقات الشدائد، تمامًا كما حدث يوم تلقَّت الحجَّة نظميَّة تلك المكالمة المشؤومة، أو كما سيحدث في السنوات الآتية عندما تنهار السماء ويمطر الموت فوق أسطح البيوت.

لم يلحظ أحد «النوبة» الأولى التي أصابتني عندما عبرت إلى الأزرق الهادئ وخرجت منه. كان يومًا كسائر الأيام، ولعلّي كنت حينها في السادسة، أسير إلى المدرسة مع أبناء أخوالي وأصدقائي، وفجأة صادفنا مستوطنين خرجوا من أسوارهم العالية. يهوديات يدفعن عربات أطفالهنّ، يسير بقربهن أبناؤهنّ الأكبر سنا. لقد لاحظته على الفور: ذاك السمّ الذي يفحّ من وجوه أشقياء خرجوا يتسلون بالتنمُّر على الضعفاء. تفرقنا في كل اتجاه حتى نختبئ عندما راح أبناء المستوطنين، تحت بصر أمهاتهم، يقذفوننا بالحجارة والقناني المكسورة. وقبيل أن يسربلني العالم بالأزرق الساكن شعرتُ ببولي الساخن ينساب فوق فخذي. كلُّ ما أتذكَّره بعدها هو ابن خالي وهو يوبِّخني بينما نحن نختبئ خلف صخرة: «المرة القادمة لا تتنّح مثل التيس. لو لم أسحبك من طريقهم لأجهز اليهود عليك».

جاء اليوم الذي أزالت فيه إسرائيل مستوطنيها وسحبت من يعيش فيها من غزة. امتدح العالَم صنيعها وشبهها بمن يقطع يده تضحية لأجل السلام. أما أهل غزَّة فعبَّروا عن حنقهم بالقول: انظروا! أليس هذا هو العجب العجاب؟ يسرقون ويسرقون، يقتلون ويشوّهون، ثم يوصفون بالشجاعة لانصرافهم مما اغتصبوا من أرض استنزفوا ما فيها من ماء عذب وغذاء. فليذهبوا إلى جهنّم. ثم أخذ أهل غزّة يتجوَّلون ويستمتعون بغياب المستوطنين المنعش. عادت الحجَّة نظميَّة تكلّم مريم من جديد، تسألها عن إشارات. لم تكن تعرف إشارات على ماذا بالضبط، ولكنها حذرت الجميع من الإفراط في الاحتفال، وذكَّرتهم بـ «شرّ كثرة الضحك».

لم يطل الوقت بعد ذلك بعطيَّة، تُوُفِّي في نومه بسلام. لم تكن وفاته غير

متوقَّعة، فقد بدت عليه أمارات الموت: صبرٌ بلا حدود، حكمةٌ عميقةٌ، خطًى وئيدة، ارتعاشٌ في اليدين وابتسامات عفو الخاطر. أحيانًا وبلا سبب، تجد يداه طريقهما إلى يديّ نظميَّة، أثناء مشاهدة التلفزيون، أو الأكل، أو تنظيف الصحون، أو في السرير، فتتجدَّل أصابعهما وتبدأ رقصتها الخاصة التي تتجاوز الزمن، الرقصةَ التي ولدت من شوق محرَّم وسط آثار قلعةٍ دارسة. كان كلاهما يعلم أن النهاية تقترب، ولكنهما لم يتحدَّثا عنها أبدا إلا بصمت رقصة أيديهما الصامتة.

ومع ذلك فإن وفاته حطَّمت نظميَّة؛ جعلتها فجأة عجوزًا، شبابها مدفون الآن مع حبيبها. خلعت نظميَّة طرحتها المزركشة ولفّت حزنًا أسود محلّها. راقبت بحنين مكلوم أولادها وهم يغسّلون أباهم ويحملونه ويدفنونه. تجمَّعوا حولها بعد ذلك وقبَّلوا قدميها بينما صبَّ مكبر الصوت الآيات القرآنية على الجالسين في بيت العزاء ليخفف همومهم.

جاء المعزُّون وراحوا، وبينما تعيش العائلة، تتقاتل الفصائل الفلسطينية فيما بينها. وعندما كسب الفصيل الأقلُّ استعدادًا لمهادنة إسرائيل، حاصرت إسرائيل غزة بكاملها وعزلتها حتى عن البحر.

منذ ذلك اليوم ارتدت الحجَّة نظميَّة سواد الترمُّل ولم تتسامح مع أي شيء ملوَّنٍ سوى تطريزات ثوبها الفلاحيّ. قبَّل عبد القادر يد حماته داعيًا الله أن يطيل في عمرها، ومن عمق البحر الذي يستوطن قلبه، قال: «الحمد لله أن أبو مازن مات ميتة طبيعية»، فلم يقتله الصهاينة.

(35)

جاءت فتاة أمريكية اسمها ريتشل كوري لتعيش في غزَّة. روحها الجميلة مسَّت قلوبنا جميعا، نحن الملايين من أبناء فلسطين في كلّ أرجاء المعمورة. قالت

في رسالة كتبتها من غزة لوالدتها في أمريكا: «لقد صرفت وقتًا طويلا في الكتابة عما أشعر به من خيبة أمل بسبب اكتشافي، ومن واقع ما عشته هنا، مبلغ الشرّ الكامن فينا... كما أنني أكتشف أيضا الكثير من القوة والقدرة الفطريّة لدى بني البشر تمكنهم من الحفاظ على إنسانيتهم حتى في أقسى الظروف... أحسب أن الكلمة المناسبة هنا هي الكرامة».

حملت ألوان، أمُّ خالد، مرّة أخرى في سنة 2003. صمد الحمل فترة معقولة تمكنت فيها من فحص جنس المولود ولكنها بعد ذلك أجهضت. كان زوجها قد أخبر رفاقه الصيادين أنه ستولد له بنت. ولهذا لام نفسه على إجهاض زوجته، فربما جلب الحسد لنفسه لأنه تجرأ على التدخل في أمور الله. تفجّع على فقدان طفلته، لكنه سرعان ما عاد إلى تسليمه بمشيئة الله.

قال عبد القادر محاولًا تعزية زوجته: «ما لنا نصيب في هذه البنت يا أم خالد. إن شاء الله وبإذن الله ستأتي ريتشلنا يا حبيبتي».

وهنا تشجّعت ألوان واعترضت قائلةً: «لم يبقَ أحد من أهل غزة إلا وسمّى ريتشل يا أبا خالد. أنا لا أريد هذا. ففوق أنه غير عربي نحن لا ندرى. ما يعني بالإنجليزية أصلًا.»

«حبيبتي، لقد اتّفقنا أتذكرين؟ أنتِ سمّيتِ ابننا الأول وأنا أسمي الذي يليه إن شاء الله.» قالها وهو واثق من أنه قد أفحمها.

سكتت ألوان عن المناكفة ولم تزد شيئًا.

«صدقيني يا أم خالد، فليكن معنى هذا الاسم بالإنجليزية ما يكون، مش مهم. المهم أن معناه هنا في غزة القلب الطاهر والإيمان الصلب والشجاعة الراسخة».

«أبو خالد الله يخليك، سنحسد أنفسنا ونحن نسمي طفلًا لا حملناه ولا خلّفناه بعد، هذا ليس فألًا حسنًا».

وافق تماما على ذلك وضمّها إلى صدره.

(36)

عاد بابا يومًا حاملًا البحر في شعره المبتلّ وثيابه المنقوعة. في ذلك اليوم أرسلتني ماما إلى الجيران لمبادلة ليمونة ورأس ثوم ببصل فرمته أنا وستّي لطعام الغداء. بعد سنة على ذلك، عندما عبرت فيها إلى الأزرق ولم أعد منه أبدا، سافر بي سليمان عبر الزمن لأشهد ما جرى لبابا في ذلك اليوم في البحر. ولمّا رجعنا إلى اليوم الموعود رأيت بأمّ عيني كيف كانت لنا يد فيما حدث له. لقد كنّا نحن، أنا وسليمان، وراء جلب السمك إلى المياه الضّحلة.

ودَّع عبد القادر البحر وداعا مقتضبا لا حفاوة فيه ولا يليق بما للبحر من مقام في نفسه. في ذلك اليوم، كان المتوسط هادئًا يعانق سماء بلا نهاية. ولمّا وصل مع رفاقه حدود الأميال البحريَّة الثلاثة التي تمنع إسرائيل تجاوزها استنشقوا جميعا عبير المدى الحرام. ذلك هو أقصى حدّ يسمح لهم ببلوغه وإلا فإن الزوارق الحربية تطلق عليهم النار. أوقفوا مركب عبد القادر، نشروا شباكهم وجلس أربعتهم ينتظرون. أخرج مراد، ابن عمِّ عبد القادر، أوراق «الشدَّة» المهترئة من كثرة لعب «الطرنيب» في رطوبة البحر وملوحة هوائه.

لعبوا ومرحوا في عالم الصيادين، تؤرجحهم الأمواج، سجائرُ تتدلدل من زوايا الشفاه، وجوهٌ غير حليقة تصليها الشمس، تسير بينهم روح أخوة صافية تطفو فوق صمت مطبق وانتظار لما سيلده من أرزاق. مكثوا على تلك الحال لساعات ثمّ سحبوا شباكهم بما جمعت من سمك صغير. إنهم يعرفون أن صيدهم لن يكون ثمينا ما داموا على هذا القرب من الشاطئ، ولكنهم شكروا الله على تلك الكومة من السمك التي تتلوى وتلمع تحت الشمس. أعادوا الكرَّة وقذفوا شباكهم من جديد، فحصلوا هذه المرَّة على معجزة: ذئب البحر القاروص، الهامور، الدنيس، النَهَّاش، السلطان إبراهيم، البوري، السردين

والتونا. لم يصدِّق الصيّادون عيونهم، من أين أتت كلّ هذه الأسماك؟ لا بدّ وأنها الدعوات المستجابة سقطت عليهم من ظهر الغيب. ضجّ الجو بصيحات الفرح من المراكب القريبة والبعيدة.

تبخرت الفرحة فجأة بتسارع زوارق البحرية الإسرائيلية نحو أسطول مراكب الصيد الصغيرة التي تتناثر قرب ساحل غزة. انتشلت معظم المراكب شباكها على عجل وفرّت إلى الشاطئ بغلتها. لكن عبد القادر ورفاقه كانوا أقرب إلى الزورق الإسرائيلي فلم يتمكنوا من الإفلات. وبينما كانوا يجمعون شباكهم، صاح أحدهم قائلًا: «هل أنتم متأكدون أننا لم نتجاوز الأميال الثلاثة؟»

قال عبد القادر: «لا أبدا لم نتجاوزها، ابقَ هادئًا ولا ترتبك، لم نفعل شيئًا خطأً». فجأة انقلب البحر إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ أو أبواب، فيها مركب صيد صغير وزورق حربيّ. صاح عبد القادر: «لم نتجاوز الأميال الثلاثة.»

ضحك الجنود وأطلقوا نيرانهم على المركب فأحدثوا فيه خرقًا، هرع الصيادون لسدِّه. قال أحد الجنود مقهقها من الضحك: «أنتم تقولون إنكم تريدون الحرِّيَّة، ولكنكم تضطهدون السمك. ما قولكم لو وضعناكم في الشباك لتجربوا ما يشعر به هذا السمك المسكين». ثم أمروا الصيادين بإلقاء صيدهم في البحر، فراح الجميع يراقب الأسماك وهي تسبح إلى بعيد. بعدها، أمر الجنود الصيادين بخلع ملابسهم والقفز في البحر، أمروا كلّ واحد منهم أن يَعدَّ إلى المائة وهو يسبح في مكانه. ولمّا أتمّوا العدَّ أمرهم الجنود بالعدّ مئة ثانية. خفَّفت بلادة ذلك العدِّ التافه جنون الخفارة البحرية، فتسلّى الجنود بعدّ الصيادين المتكرر حتى شعروا بالملل، حينها بدأوا يتراهنون على أي من الصيادين سيغرق أولًا.

كان عبد القادر وابن عمِّه مراد بين اثنين من رفاقهما هما أبو ميشيل المسيحيّ و«أبو البنات» الذي رُزق ستَّ بنات دون صبية. أبو البنات كان أول من خارت قواه، وبينما ابتلعه البحر شيئا فشيئا، هلل بعض الجنود فرحين فنقدهم جنودٌ آخرون الرهان. حاول عبد القادر وأبو ميشيل رفع الغريق، ولكنهما كانا مجهدين

وبالكاد قادرين على حمل نفسيهما. استعطف عبد القادر الجنود: «ارحمونا، لدينا عائلات وأولاد صغار».

ثمّ أغلق مراد عينيه وذاب كما يذوب الملح في الماء. صوَّب أحد الجنود سلاحه وأطلق رصاصة أصابت أبو ميشيل في الكتف. فنطق عبد القادر بالشهادة استعدادًا للقاء ربه. لكنَّ الجنود كانوا قد اكتفوا وانصرفوا، وضربت الأمواج التي خلّفها محرك زورقهم بقايا المركب المنكوب. ترك عبد القادر عضلاته تسترخي وجسده يغطس تحت الماء، حبس نفسه، قاوم استنشاق ماء البحر، حتى شعر بيد قبضت عليه. دفع بنفسه إلى أعلى وشهق عميقا لما خرج رأسه من الماء. كان أبو ميشيل طافيًا بقربه على سطح الماء يكاد يغمى عليه، غمغم: «لا تتركني للموت يا أبا خالد».

كانت بعض عائلات خان يونس تشوي الطعام وتقضي يومها في نزهة على البحر. وبينما كان الكبار منشغلين في الهشّ والنشّ، ركض إليهم من البحر بعض الصغار لاهثين يشيرون بأصابعهم إلى شيء في الأفق البعيد، نهض الكبار ودققوا النظر ليتبينوا ما يكون. كان هناك رجل على الأقل في حالة حرجة، ثم أبصروا يده تلوّح وسمعوه يصرخ للنجدة. وعلى الفور، قفز شابان في الماء لإغاثته، ولما اقتربا تبيّنا رجلًا آخر جريحًا يتعلّق بخشبة ربما كانت قطعة من مركب. هرع آخرون بما يسترون به عورتيّ الرجلين قبل إخراجهما من الماء. الجريح مصاب في كتفه وقد فقد وعيه لشدة ما نزف من دماء، فسارعوا إلى حمله إلى المستشفى. وهناك سئل الرجال عما حصل.

سأل أحد موظفي المستشفى: «ما اسم الأخ؟»

ردّ الرجل: «أبو خالد ... عبد القادر»، ولم يضف إلا هذا: «نحن صيادون. اليهود طلعوا علينا. كان معنا اثنان قابلا وجه ربهما في البحر، الله يرحمهما. يجب أن أذهب لأخبر عائلتيهما ثم أرجع هنا مع أهل رفيقي أبو ميشيل.»

عندما تُوُفِّي جدُّو عطيّة وقف بابا في الصفّ الأمامي مع المصلين في صلاة الجنازة. قال لماما وستي ما قاله لهما الجميع: «البقية في حياتكم». وعندما حلّ المساء وخلا البيت إلا منّا، جلس يدخِّن النرجيلة وينفث أفكاره في غيمات من دخان. قال: «أحمد الله لأن عمي أبا مازن الله يرحمه توفي من الكبر. إنها نعمة أن يموت الفلسطيني ميتة طبيعية. نعمة من الله.»

كان من يبحث عن فرصة عمل في غزة بعيدا عن البحر كمن يبحث عن إبرة وسط كومة من القش. فالحصار الإسرائيلي دفع بمعدَّلات البطالة إلى ثمانين في المئة، وأخذ سوء التغذية يزحف في أجساد جيل جديد. انضم عبد القادر إلى جحافل العاطلين عن العمل. يتجمعون في أحيائهم كل صباح ويسلّون بعضهم بعضا حتى آخر النهار. كان هؤلاء في السابق عمالًا تعودوا على النهوض قبل بزوغ الفجر، يصطفون في طوابير الحواجز العسكرية الإسرائيلية ليصلوا إلى أعمالهم. رجالٌ أشداء، يعيشون من عرق جبينهم، ظهورهم صلبة حتى وإن لم تكن شابة، وأكفّهم عريضة خشنة، وأظفارها مقصّفة، وندوبها عميقة. كانوا يحملون على كواهلهم عبء السعي وراء رزق العيال، يغادرون بيوتهم فجرا فلا يدخلونها إلا مساء. يرجعون متعبين وفخورين بعد ساعات من أعمال مضنية تقصم الظهور. صاروا يتجمّعون فيما بينهم هربا من عار التعطّل عن العمل، وخجلا من أعين صغارهم الجوعى. لم تتنازل منهم سوى قلّة قليلة فوقفت في طوابير الأمم المتَّحدة لاستلام ما توزِّعه من مؤن. ترك جلّهم هذا الأمر لزوجاتهم وبناتهم وبنيهم كي يتحملوا ذلّ الانتظار ساعات طوالًا قبل الحصول على نصيبهم من الأرزّ والطحين. لكن عبد القادر ليس له إلا ولد وحيد لم يتمّ السابعة من عمره بعد، أما زوجته

التي أجهضت عدة مرات فليس بوسعها المغامرة بإجهاض آخر إذا ما ذهبت لجلب المؤن الثقيلة.

أجّل ذهابه إلى تلك الطوابير قدر ما استطاع، حتى أنه حاول إقناع أبناء إخوته وبناتهم بتسلّم حصة عائلته، ولكنهم كانوا مشغولين بالحصول على نصيب عائلاتهم. ولمّا يئِس من العثور على أي عمل وخلا البيت من أي شيء يؤكل، طأطأ رأسه ووقف في الطوابير مع نساء وأطفال نظروا إليه بإشفاق ممّا أجّج شعوره بالعجز وقلة الحيلة.

تحوَّل ما يشعر به من خزي إلى غضب. ولما لم يكن من هدف أسهل من ألوان، انشغل في لومها على ضعفها وعدم قدرتها على ولادة أطفال أصحّاء. عتب على نفسه لأنه اختار زوجة حوضها ضيق ولم تحمل إلا بعد سنوات طويلة. طبعا ولحسن الحظ، جاء ولد ليحمل اسمه من بعده. ولكن لو كانت ألوان زوجة ولودًا لكان لديه الآن كثيرٌ من الأولاد الذين يجنبون والدهم مثل هذا العار. ليته سمع كلام أمه وأخواته عندما حاولن ثنيه عن الزواج بألوان: «ستها مجنونة بيت دراس، وأمّها لسانها متبري منها، لماذا تريدها؟» ورغم أنه يحب الحجّة نظميّة، الله يحفظها، لكنه يرى حقا أنها أكثر الحجّات سلاطة لسان. ليته كان عمليًّا أكثر في اختيار زوجته. ألوان هي السبب، والعيب فيها وفي عائلتها الملعونة.

التحق عبد القادر بالطابور صباحا لكنه لم يستلم المؤن ويعد إلى البيت إلا عصرا. دخل بشوالين على كتفه، طرحهما عن عاتقه في وسط غرفة القعدة لتتدبَّر أمرهما ألوان. نظرت نحو الكيسين الثقيلين وتحسست بيدها بطنها المنتفخ. جذبت كيس الأرز، طوّحت جسدها وحاولت جرَّه إلى الزاوية. عصرت عينيها وسحبت بكل ما أوتيت من قوة. دعت الله في سرِّها أن يثبِّت ما في بطنها، وبَّخت جنينها وأمرته بالتأدب وألا يحاول النزول قبل أوانه. جرّت كيس الطحين وتركته بجانب كيس الأرز، ثم حمدت الله على أنها كانت بمفردها، وتنفست الصعداء لأن الحجة نظمية لم تكن بالبيت. فهي في هذا الوقت من النهار تذهب

مع الحجّات ليخبزن خبزهنّ في الطوابين تحت أشجار البرتقال.

تظاهر عبد القادر بأنه لم يلاحظ زوجته تعاني في جرّ الكيسين، فهو لا يزال يترنّح مما لحق به من ذل ومهانة ويلوم ألوان في سرِّه. خرج دون أن يدري إلى أين، وكان يتمنى لو يخرج من جلده، من غضبه وعجزه. ليس من عمل يذهب إليه، ولا من مركب للصيد. لقد خانه البحر. ومن شدّة خجله من نفسه، لم ينضم إلى الرجال الآخرين. راح يمشي إلى لا مكان، ثمّ رأى ابنه خالد مع صبية صغار وهو يستمع لأغان إنجليزية مزعجة ويرقص مثل البنات. أجج المشهد غضبه، وأصبح لديه أخيرا سبب واضح يبرر له الغضب ويمنحه سلطة التصرف حتى ولو للحظات.

ورغم أنه كان بودّه تحطيم المسجِّل ليشبع شعورًا لحظيا بالقوة، إلا أن حماقته لم تبلغ حدّ كسر شيء لا يملك ما يعوِّضه. لهذا اكتفى بكبس زرٍّ إيقاف المسجِّل، وألقى نظرات غاضبة على خالد ما جعله يرتجف من الخوف.

«كيف تسمح لنفسك أن تسمع هذه الزبالة؟»

«بابا، هذا راب أمريكي، مش غناوي إسرائيلية».

«لا ترد عليّ يا ولد! كله مثل بعضه!»

صفع وجه ابنه الصغير فأوقعه أرضا: «انصرف إلى البيت وساعد أمك، هيا!»

بعينين معذبتين استدار عبد القادر ببطء نحو لا شيء. نحو البحر.

عندما عاد عبد القادر أخيرًا إلى البيت، كان مبللًا بالبحر، عيناه منتفختان وحمراوان. دخل دون أن ينطق كلمة وذهب لتغيير ملابسه. ثمة شيء في طريقة مشيه، في ثنية رأسه وفي حزن أكتافه، منع زوجته وابنه من سؤاله عن سبب ابتلال ثيابه. كانت ألوان قد بذلت ما تستطيعه في تحضير وجبة عشاء شهيّة، لكن عبد القادر لم يبدِ أيّ إعجاب بها. لم يتكلَّم أبدًا، وتمنّت هي لحظة من لحظات حنانه. ها هو يجلس مستغرقًا في التفكير، يقعد بجانب ابنه ولكن في مكان بعيد. حاول استرداد سورة غضبه بالتفكير في أنه ببلوغ هذا العمر كان

ينبغي أن تكون له عائلة أكبر، أن يكون عدد أولاده الجالسين لتناول الطعام أكثر. لكن الجانب الأصدق منه كان خجلا من أفكاره تلك، بل كان ممتنًا لأن عدد الأفواه التي عليه إطعامها أقلّ. ساعاته الماضية في البحر والجبن الذي صاحب ما عقد النية على فعله هناك ما يزال عالقا به. تذكّر ذلك اليوم المصيري الذي ابتلع فيه البحر مركبه ومراد وأبو البنات، فعاد مرجل الخوف والعجز والغضب والدهشة إلى الغليان في داخله من جديد. عصر عينيه بقوة وشدّ على قبضتيه، محاولًا إطفاء نار ما فيهما.

«ما بك يابا؟»

فتح عبد القادر عينيه وارتخت قبضتاه عندما أحسَّ بلمسة يد ابنه. وفي تلك اللحظة تعالى صوت آذان المغرب. قبَّل خدَّ ابنه الذي صفعه خلال النهار وقال: «الله يقطع يدي إن مددتها على وجهك مرة ثانية. هيا يا بني، قم نصلي المغرب معًا.» وقف الاثنان، كلٌّ على سجادته، أحدهما طويل والثاني قصير، ركعا وسجدا، وابتهلا معا إلى الله.

بعد العشاء تحلّقت العائلة لسماع نشرة الأخبار، ولما انتهت راحوا يتابعون المسلسل المفضَّل لدى الحجَّة نظميَّة. عندما انتهت حلقة تلك الليلة، ذهب خالد لينام في فراشه، وسرعان ما ملأ شخير الحجَّة نظميَّة غرفة القعدة حيث تنام منذ وفاة أبو مازن، وعلا في أرجاء البيت. انتهت ألوان من تنظيف الأواني وانضمت إلى زوجها الذي يجلس في الخارج ويدخن النرجيلة. استوعبت ألوان بأن زوجها يلومها على ما لحق به من عار، بعد سنوات على زواج ليس لديها فيه رصيد سوى ولد واحد والكثير من حالات الإجهاض.

قالت: «قل لي، ماذا أفعل؟»

لم ينظر نحوها بل تابع نفث الدخان من فمه.

جلست عند قدميه لبعض الوقت، ثمَّ كومَّت شجاعتها من جديد: «أنا آسفة يا عبد القادر. اضربني إن أردت، الضرب لا يهمني. لكن من شان الله، لا تدر وجهك عني».

أثَّرت كلماتها فيه فانحنى صوبها، وضع كفَّيه على وجهها وجذبها نحوه. قبَّل جبينها بتردُّد في البدء، ثمَّ بقوة وبعدها قرَّبها منه أكثر.

«الذنب ليس ذنبك يا ألوان. لا شيء يدوم على نفس الحال، وبإذن الله ستذهب هذه الهموم إن لم يكن اليوم فغدًا وإن لم يكن غدًا فبعد غد». كان ذلك كلَّ ما قاله. أمسك يد زوجته وقادها إلى السرير، وهناك ناما متحاضنين وكأنهما يتمسكان بالحياة خشية أن تتفكك.

(38)

عندما وُلِدتْ أختي رِنْشَلْ، قالت لي ستِّي ألا أقلق. سأظلُّ أنا دائما حفيدها المفضَّل، رغم أن رِنْشَلْ سُمِّيت تيمُّنًا باسم الأمريكية الشجاعة الوحيدة التي سمعت بها ستي. قالت: «باقي الأمريكان بس شاطرين في صنع سلاح للقتل وفي بيع الخردة وأشياء تافهة لخلق الله. أريد أن أعرف فقط لماذا خلقهم الله حلوين هكذا، بياض وشقار وعيون زرقا!» ثم تأملت في كلامها وأردفت: «ربما يعوضهم الله عن بشاعة قلوبهم. ها لعاد! ربنا عادل لا يسخط أحدًا من الخارج ومن الداخل».

كانت البنات في العادة يحملن أسماء جداتهن، أو عماتهن، أو خالاتهن، أو نساء ذكرن في الدين والتاريخ. لكنَّ ابنة ألوان وعبد القادر سُمِّيت باسم فتاة أمريكية تدعى رتشل كوري، وهي ناشطة في مجال حقوق الإنسان دهستها جرافة إسرائيلية أثناء منعها من هدم منزل عائلة فلسطينية. كل شهود العيان أقسموا على أن سائق الجرافة دهسها عمدًا. حينها خرجت غزة عن بكرة أبيها لتكريم رتشل التي اعتبروها شهيدة الحقّ. كانت جنازة رتشل هي المرة الأولى

والأخيرة التي يُحمل فيها العلم الأميركي باحترام وإجلال في شوارع غزة، فقد كان يغطي تابوتا صوريًا حملته جموع المشيعين وجابت به أرجاء غزة بعد إرجاع جثمان رتشل إلى ذويها في أولِمبيا بولاية واشنطن.

ذاع اسم رتشل في كل غزة، وسُمِّيت مئات المولودات باسمها، معرَّبًا إلى «راشيل»، أو - كما أصرَّ عبد القادر - إلى «رِتْشَلْ» للمحافظة أكثر ما يمكن على اللفظ الأمريكي. وحلف عبد القادر أن تكريم رتشل كوري بهذه الصورة كان فكرته هو دون سواه، وتمسَّك بالاسم حتى وَلَدَت له ألوان مولوده الثاني.

كانت الأشهر التي سبقت ميلاد رِتْشَلْ أشهرًا صعبة، لكن الله استجاب لدعاء عبد القادر وصبره بأن رزقه مالا ودجاجا بُعَيْد ميلاد ابنته. فقد تمكن من الحصول على قرض صغير من منظمة إغاثة غير حكومية بقيمة خمسمائة دولار. اشترى بقسم منها أخشابا وأسلاك أقفاص وعلف دجاج، أما الباقي فسينفقه في شراء دجاج وصيصان ليبدأ تجارة متواضعة.

بدا لخالد كما لو أن أمه ظلت حاملا لسنوات، فلم يتذكرها دون بطن منفوخ قبل أن تولد أخته رِتْشَلْ عندما كان في السابعة من عمره. كان راغبا في أخ وشعر بالتبرم مما أبداه الأهل والأصدقاء من سعادة بالمولودة الجديدة. قال لصديقيه وسيم وتوفيق: «يباي ما أبشعها! قرعة ولا شعرة برأسها ولونها أصفر. لا تسكت عن البكاء، وبابا يحكي معها وكأنها تفهم. لماذا يفعل هذا؟ وكأنه انجن!»

قبل أن تولد رِتْشَلْ كان أبوه قد تقلب في أمزجة متعكِّرة، إذ خسر مركبه ورفض أن يحدثهم عن الموضوع. أغلقت إسرائيل العالم من حوله بحصار وجعلت بعض الناس يتضوَّرون جوعًا. سمع خالد أباه يقول: «الله ينتقم من اليهود على كل ما يفعلونه بنا».

وفي ذلك اليوم، تابع خالد على التلفاز مباراة إسرائيلية لكرة القدم وراح يتمتم بدعاء أبيه وهو يتتبع أرجل اللاعبين بعضلاتها ورشاقتها وأصحابها يرتدون زيًّا رياضيا جميلا: أزرق تزينه أشرطة ذهبية لامعة. كرَّر الدعاء ثانية عندما استعرضت الكاميرا جمهور الملعب فرأى صِبية في سنِّه وقد استبد بهم

حماس منقطع النظير. حينها واصل دعاءه عليهم بقوله: «ولما تنتقم من اليهود يارب أعطِنا مريولهم هذا»، وأضاف زيادة في التوضيح: «زيهم الأزرق الذي عليه شَبَرَ ذهبي لمَّيع».

كان خالد يرى أنه هو، لا تلك المولودة الجديدة، من جلب الحظ السعيد للعائلة. أليس هو من يصلّي خمس مرات في اليوم ويرفع الدعاء لله؟ كيف يذهب الفضل إذًا إلى أخته من دونه؟ راح يجتهد في جذب أنظار أهله إليه بطرق أخرى. ساعد أباه في بناء قُنّ الدجاج على سطح البيت. تعلَّم بسرعة دقّ المسامير فسمح له والده بأن يصبح سيد الشاكوش، وهذه، كما تعلَّم الجميع، أهم وظيفة في بناء الأشياء. أما ما يقوم به والده فليس إلا مهمة ثانوية مساعدة، كنشر الخشب وتثبيت قطعه ليدق خالد فيها المسامير بشاكوشه.

ابتسمت ألوان وهي تضمِّد يدي عبد القادر المثختنين بالرضوض والجروح فيما هو يخبرها بتفاصيل يومه في بناء قنّ الدجاج مع ابنهما.

قال عبد القادر: «كان خالد متحمسا كثيرا ويكاد يطير من الفرحة بالشاكوش. لم أستطع أن أكسر بخاطره وآخذه منه. والله لا أدري غدًا كيف سأدبِّر الأمور وأنا في هذه الحالة؟ لا يزال يلزمني نهار آخر حتى ينتهي العمل».

قالت ألوان بدلع وغنج: «لا تهكل همّ، سألف لك يديك. وإن شاء الله ستشفى بسرعة. سبحان الله كيف يطيب جسم البني آدم ويرجع صحيحا مثل ما كان.» همس عبد القادر: «يمّه عليكي، وهل شفيتِ أنتِ من الأسفل؟ متأكد أن الأربعين يوما انتهت.» ردت: «لم ينقضِ منهن غير اثنين وعشرين يوما.» ثم قالت بغنج: «بس آه، كل شيء عال العال.» قفز عبد القادر نحوها متناسيا أنه يحرم إتيان المرأة إلا بعد انقضاء أربعينها. ترددت ألوان تحت وطأة ضميرها الديني، حاولت دفع رغبة زوجها ورغبتها هي أيضا، اعتذرت قائلة: «دعني أرضع رِتْشَلْ أولا، صدري يضرب علي من كثرة الحليب.» لكنه كان قد التصق بها وأصبحت هي بين يديه.

«اتركيها نائمة، ودعي ذلك عليّ». كان قد التقم ثديها وراح يمصُّه بنهم،

أردفه بالآخر، ثم تناوب عليهما بجوع. وكلما زاد ولوغا في تلك الخطيئة الشهيّة ازداد انتصابه ولم يطل به المقام حتى وطأ جنتها فعاد كل شيء في عالمه إلى مساره الصالح.

تمدد عبد القادر إلى جانب زوجته وأشعل سيجارة ثم راح يعدِّد نعم الله عليه. وضع ألوان على رأس القائمة، فقد خلَّفت له خالد الذي سيكبر إن شاء الله ويصبح رجلًا قويًا يحمل اسمه. قُنُّ الدجاج يكاد يكون جاهزا ولمّا ينفق ثلث القرض بعد، وهذا يعني أن ما سيشتريه من دجاج سيكون أكبر مما قدَّر في بادئ الأمر. نفث دخان سيجارته، راح يعيد حساباته، يغيّر ويبدّل أعداد الدجاج والصيصان حتى توصل إلى أعظم ربح في أقصر وقت ممكن. استقرَّ رأيه في النهاية على أربع عشرة دجاجة وعشرين صوصًا وديكًا واحدًا. وفيما إذا سارت الأمور بحسب خطته، إن شاء الله، سيكون لديه ما ينفقه على عائلته ويسدد القرض خلال ستة عشر شهرًا. تراقصه مع تلك الأرقام، على ضآلتها، أشعره بالرضا. سحب بتلذذ آخر نفسٍ من سيجارته، أطفأها في المنفضَة واستدار لينام على جنبه. تمتم في سره: «الله كريم»، وشعر أن ثباته على الإيمان بالله في الضرّاء بدأ يجلب عليه السرّاء. في تلك اللحظة تململت رِتْشَلْ في نومها: إنها نعمةٌ أخرى في سجل نعم الله عليه.

(39)

عندما حوصرت السماء والبحر والبر، سلَّمنا أنفسنا إلى رحم الأرض مثل القوارض كي لا نموت. انتشرت الأنفاق تحت أقدامنا كأنها سطور حكاية كتبها التاريخ ومحاها ثمَّ أعاد كتابتها. كانت عائلتنا لا تزال تملك دجاجا وحصلت على النقود من نقل البيض إلى من يشتريه. وفي ذلك الحين، أيضا، وقعت في

حبّ يُسرى. ذات مرة، عثرت في دكان على بيضة يتيمة من بيض شكولاتة الكندر فاشتريتها على الفور. وضعتُها بين حصة بيت يُسرى من البيض وسلمته لهم. كنتُ فخورا بمنح هدية كتلك للبنت التي أحب، لكنني شعرتُ بشيء من الذنْب لأنني لم أعطِها لِرتْشَلْ. فقدكان في نفسها أن ترى وربما تذوق بيض الكندر.

كان خالد يعلف الدجاج يوميا قبل ذهابه وإيابه من المدرسة، يراقب أعدادها وهي تتضاعف. أحبُّ واجباته إليه كان توزيع طلبات البيض على بيوت الزبائن، فبعضهم كانوا كرماء يسامحونه «بالباقي». كان ينتقي أكبر البيضات ويخصصها لبيت يسرى. فهو كلما بكّر في إكرام أهل حبيبته، مهد لنفسه طريق طلب يدها حين يبلغ سن الزواج. عندما يقصد بيتها لتسليم البيض كان يهتمُّ بتشذيب شعره الأشعث. يمسّده بشيء من زيت الزيتون، يمشّطه ثم يشق فرقا مستقيما على الجانب وسط غابة شعره السوداء اللامعة. وبعدها يرتدي أفضل بنطلون جينز لديه ويدسّ فيه بعناية أطراف قميصه الأبيض الذي يزرِّره حتى الرقبة. كان يعرف بأن شعر ذقنه لن ينمو قبل سنوات، ولكنه يتفحَّص ذقنه على أي حال، فقد يكون من أصحاب البلوغ المبكر.

لكن أشد ما يثير ضيقه هو نظرات ستّه نظميّة تراقبه بابتسامة العارفين. تسأله: «شو؟ هل أنت ذاهب لتوصيل طلبية أهل يسرى يا بني؟»

فيكذب عليها: «لا!»

«جيد، فشكلك اليوم مثل فلقة القمر وإذا رأتك تلك البنت أخاف أن تقع في غرامك.»

تملّى خالد في عبارة «تقع في غرامك»، فراح يدعو في سره أن تكون يسرى من يفتح الباب له كالعادة. كان يسدد من جيبه أي نقص في ثمن طلبيات أهلها، فوضع عائلته المالي تحسن وأصبح لديهم ما يكفي. حتى أنهم توقفوا عن الذهاب لاستلام المؤن، وصار بمقدورهم التمتع بكماليات مثل الشوكولاتة والباستا اللتين تصلان تهريبا عبر الأنفاق من مصر.

لو لم يكن لديه عمل لأغرته الأنفاق، فهي من الأعمال القليلة في غزة التي تدرّ أجرا حسنا. كما أن أصحابها عادة ما يشغِّلون الصبيان واليافعين. فأحجام هؤلاء صغيرة تناسب الزحف في الدهاليز الضيِّقة جيئة وذهابًا. وهم يدفعون أو يسحبون السلال أو يعيدون الحاويات الفارغة لإعادة ملئها بالبضائع المهربة: حفاضات أطفال، وسكَّر، وأقلام رصاص، وبنزين، وشوكولاتة، وهواتف، وأواني طعام، وكتب، وغير ذلك المزيد. حتى أن صاحب أحد الأنفاق صار يتخصص في تهريب دجاج «كِنتكي» المقلي من مصر. لم يطل الوقت حتى بدأ أصدقاء خالد يتخلون عن الدراسة للعمل في الأنفاق. كان أولهم توفيق، وهو ولدٌ صغير الحجم في الثانية عشرة. كان أخوه الأكبر قد اشتغل هناك لكنه لم يعد ذا فائدة بعدما فقد عينه اليسرى وعطبت اليمنى إثر حادث في النفق. ولما كان توفيق يعقبه في العمر صار لزاما عليه مساعدة عائلته.

رافقه خالد في اليوم الأول، وبينما سجَّل المعلِّمون غياب كلٍّ من توفيق وخالد، كان الصديقان جالسين مع خمسة ممن في سنِّهم في حصة التوجيه بقرية الأنفاق. أنصتوا بانتباه لتعليمات كيفية تشغيل الرافعات والعتلات وتحريك الحاويات، وكيفية التصرُّف إذا اهتزت الأرض بتأثير قنابل أو انهيار نفق. ذهب خالد إلى هناك وهو يعرف أن أمَّه وجدَّته ستتناوبان على ضربه إن علمتا بغيابه عن المدرسة. كما كان متأكدا من أنهما لن تخبرا أباه طالما أنه لم يكرر فعلته تلك، فهو يحصل دائما على تحذيرٍ واحدٍ على الأقل.

لقد ذهب في ذلك اليوم وفاء للصداقة، فكان توفيق متوترا واصفرَّ وجهه قبل الدخول في النفق. كانت التعليمات تقضي بأن يرافق كل صبي جديد فتى أكبر ذو خبرة خلال الأسبوع الأول من العمل.

أجواء قرية الأنفاق مريبة، أبوابها مغلقة ونوافذها موصدة. ليس فيها أشجار ولا أطفال يلعبون. فالأطفال هنا يعملون، يمشون بوجوه ملثمة تقي رئاتهم غبار الحفر الذي يحوِّم في الهواء كأنه ضباب أبدي. ويعرف توفيق أن عليه لفَّ وجهه بكوفيَّته. قال: «أنا جاهز.»

مشيا في طريق مغطى بالحصى يؤدّي إلى مدخل النفق المُخفى في حظيرة غنم داخل حديقة مهجورة. يختلف هذا النفق كثيرا عن تلك التي بنيت حديثا ويسمونها أنفاق «خمس نجوم» والواسعة إلى حد سير المرء فيها معتدلا، كما أنها مضاءة بقناديل على طولها، ومسندة بدعامات خشبية تضفي شيئًا من الأمان. أما هذا النفق فضيِّقٌ مظلمٌ ليس فيه سوى شبكة واحدة من الرافعات والعتلات، ولهذا فإن صاحبه لا يُشغِّل سوى صبية أجسادهم نحيلة.

جلس توفيق في السلة البلاستيكية وقبض بشدة على الحبل. رفع بصره إلى أعلى نحو خالد بينما بدأ الحبل يهبط به إلى باطن الأرض. تابع خالد من مكانه فوق حافة النفق صديقه وهو يرتجف قبل أن يبتلعه الظلام.

سأل خالد عاملًا يقف بجواره: «كيف سيرى تحت في العتمة؟»

«يوجد أضواء».

«كيف الجو في الأسفل؟»

«الجو بارد مثل عضو أمك! انقلع عني أنت وأسئلتك السخيفة.»

انتظر خالد بصبر لعدَّة ساعات قبل أن يظهر أخيرا توفيق وقد تغبَّر وجهه بالتراب والأوساخ. كان الوقت متأخرًا إلى حد كافٍ لنيل علقة جامدة، ولكنه لم يبلغ بعد حد بدء قلق أمه وجدَّته عليه. حصل توفيق على أجرة يومه هناك، وأصبح في جيبي الصديقين البالغين من العمر تسع سنوات واثنتي عشرة سنة أجرة رجال يعيشون من عرق الجبين.

سأل خالد توفيق وهما في طريقهما إلى الدكان: «قل لي، كيف كان الوضع تحت في النفق؟»

تمخَّط توفيق ثم مد منديله صوب صديقه، وقال: «هكذا».

فنظر خالد إلى كتلة مخاط طيني مقرف.

قال توفيق بما يشبه الحسد: «كان يوجد ولد تحت اسمه محمود. ولد ازغُرْت، صرت أنا وهو أصدقاء. يا إلهي لو رأيت ما خرج من مناخيره! هذا

الذي أخرجته من منخاري الآن لا شيء بالمقارنة معه». ثم قال: «أتعرف ما الذي فاجأني أكثر من أي شيء؟»

ردَّ خالد بترقب شديد: «ماذا؟»

«الجوُّ بارد كثيرًا تحت الأرض»، ثم لوى بوزه وقال: «ظننت أنه سيكون حارًا لأنه في الأسفل يكون الشخص أقرب إلى جهنم.»

ساد الصمت بينهما واكتست ملامح وجهيهما بالحيرة من تلك الأحجية، لكنها سرعان ما تبددت في زحام أفكار أخرى.

قال توفيق: «هل تعلم أن محمود بدأ ينمو له شعر في ذقنه! أراني إياه ورأيت ذلك بعيني. لديه بعض الشعرات المرتبات على ذقنه، لكن شعرات شنبه لا تزال خفيفة». ثم تابع: «لكن المسكين أسنانه متباعدة كثيرًا، متأكد أن البنات يضحكن ويسخرن منه عندما يرينه. الله يعينه!»

لقي خالد بالفعل عقابًا شديدًا من أمّه ولم تُبْدِ جدته أيَّ تعاطف معه، لا سيَّما عندما اعترف بأنه ذهب إلى الأنفاق. صرخت به ألوان: «والله لو أعلم أنك خطوت هناك خطوة واحدة مرة أخرى، يا خالد يا ابن عبد القادر، سترى ماذا سأفعل. ألا ترى كيف يموت الناس يمين وشمال بالأنفاق. عليَّ الحيرة يا خالد لئن كررتها سأحبسك في الدار.» وأضافت جدّته نظميَّة: «اسمع كلام أمك.» وأخيرا، هدَّدتاه بإخبار والده إن ذهب إلى الأنفاق ثانيةً.

وعد بألا يعيد الكرَّة، ولكنه لم ينقطع عن الالتقاء بتوفيق بعد دوامه في المدرسة. يمشيان ويذهبان إلى ذاك الدكان الذي وعدهما صاحبه بجلب مزيد من بيض الكندر.

بعد أسبوعين، لم يحضر توفيق إلى مكانهما اليومي المعتاد حيث انتظره خالد. بل بدل أن يجيء إلى هناك ذهب إلى البحر، وفي اليوم التالي شرح السبب.

كان توفيق قد تسلَّق في تلك السلَّة البلاستيكية. ولكن قبل أن تهبط به إلى النفق، تدفقت موجة عظيمة من التراب من فتحة النفق ودفعت بتوفيق نحو السماء

حتى سقط على بعد أربعين قدمًا. جلس هناك وضباب يغشى عينيه، لا يستطيع تمييز أي شيء أمامه، لكنه سمع أناسًا يتجمَّعون، ويركضون، ويصرخون: «النفق وقع!» ثم اختلط صراخ سيارة الإسعاف بعويل نساء ركضن نحو أصوات كارثة معهودة. كان صديقه محمود داخل النفق، ذاك الصبي الزُغْزُت بابتسامته المرحة، والفرجة الكبيرة بين ثناياه الأمامية، والشعر النابت على ذقنه الذي حسده عليه توفيق، والذي لم يعد له من وجود. هرع البعض لنجدة توفيق فأعطوه ماءً، ثم تحوَّلوا عنه ليساعدوا الآخرين في حفر الأنقاض علَّهم يصلون إلى من هم تحتها.

مشى توفيق ثم ركض وركض مبتعدًا حتى وجد نفسه وحيدًا وجهًا لوجه مع المدى الأزرق يتمدّد ويتمهّد في وسع البحر المتوسط.

قال لخالد: «قعدت هناك قليلًا ثم رجعت إلى الدار.»

(40)

كنت صغيرًا ومصابًا بداء الغيرة فلم أر حينها السحر الذي جلبته رِتْشَلْ إلى عالمنا. لقد كنت ألومها على ألمي رغم أنه لا دخل لها به. عندما ذبح أبي سمسم، دجاجتي المفضلة، صاح عليَّ وطلب مني أن لا أكون جبانًا، وأصير رجلًا. قال: «كيف تسمي الدجاج؟ شو مالك؟ الدجاج ليس لعبة! هذا لحم، نعمة ربنا ولقمة عيشنا. هيا تعال هنا يا بني وساعدني في نتف ريشاتها.»

فعلت ما أراد، ومنذ ذلك أصبحت مسؤولًا عن مهمة ذبح الدجاج. وتولت رِتْشَلْ مهمتي السابقة في إطعامها. وبعد أمد ليس بالطويل جرى ما جرى، تغيَّرت الدنيا وعبرت في الأزرق.

عرف خالد أنه لا بد من إظهار رباطة الجأش في تنفيذ مهمته الجديدة،

يسمّي ويغمغم قبل أن يغرس نصل السكين ويحزَّ بحركة قوية وخاطفة رقبة الطير النحيلة.

أما رِتْشَلْ، التي بلغت الثالثة من عمرها الآن، فكُلِّفت بإطعام الدجاج. كانت تقذف العلف بما لطفلة صغيرة من مهارات، تقذف البذور فلا تسقط إلا على قدميها الصغيرتين وحولها، وأحيانًا في جدائلها. مشهد يومي صاخب كان والدها يتلهف على مراقبته كلَّ يوم. يقف عبد القادر عند فتحة الباب وبيده فنجان قهوته وسيجارته، يتلذذ بفرحة رِتْشَلْ عندما تهرع إليها الدجاجات. تلقي على صويحباتها الهائجات الأوامر حتى يتأدبن ويحترمن النظام: «لأ، لأ، لأ، يا جاجات، بالدور بالدور!» ثم تقرّعهن وتمد إصبعها الغض وتأمرهن: «وسعن للصيصان ليأكلوا، أقول ابعدن! لأ، لأ، لأ، مش شاطرات. أنتن مش مليحات!»

كلٌّ من عرف عبد القادر كان يعلم أن رِتْشَلْ هي نغمة قلبه التي يطرب لها ويهتز فرحا. ولعلها كانت الحب الأعظم في حياته. أما خالد فعدَّها مصدرًا للإزعاج، فهي تفلت من العقاب مهما ارتكبت من ذنب، وهم يكيلون لها الثناء على كل ما تفعل حتى وإن كان سخيفا. ليس لديها من واجب سوى إطعام الدجاج، ومع هذا فهي لا تؤديه كما يجب. حاول خالد أن يعلمها كيف تؤديه على الوجه الصحيح فما لقي من جزاء سوى تقريع أبيه. والأنكى من كل ذلك، أن والده طلب منه ألا يذبح الدجاج في حضورها، قال له: «لا أريدها أن تخاف وتبكي». فحنق خالد عليهما معًا لأن أحدا لم يلتفت لمشاعره هو أيضًا. هل يظن أبوه أنه كان من السهل عليه أن يذبح الدجاج وينتف ريشه؟ ثم ما المشكلة في أنها بنت وصغيرة جدا؟ إنها ليست بتلك البراءة. كما أنه من الخير لها ألا تكون جبانة وأن تكبر وتفهم أن الدجاج ليس لعبة، بل هو لحم، نعمة من الله ولقمة عيش. ولهذا، فإنه لم يكن يقدم لها سوى معروف عندما تظاهر بأنها رأته مصادفة فوق السطح وهو يذبح دجاجتها المفضلة، تلك التي يزين عنقها شريط أبيض.

صرخ عبد القادر في وجه خالد: «يا حيوان! ألم أقل لك ألا تذبح هذه الدجاجة؟»

«مزبوط يابا، لكن...»

«لا تناقش في الكلام! لقد فعلت ذلك عمدًا. قلت لك ألا تذبح هذه الدجاجة، وحتى لا تغلط بالذات وتذبحها علَّمتها لك وربطت على رقبتها شبرة بيضاء».

فقال خالد: «الشبرة كانت واقعة يابا». ترنح من شدة الصفعة التي كالها له والده الغاضب.

«وله لا تكذب عليَّ، إياك في حياتك أن تكذب. لا تكذب أبدًا!» ثم خلع عبد القادر حزامه وبدأ بجلد خالد.

ركضت رِتْشَلْ إلى الغرفة تبكي وتحاول إنقاذي عندما رأت بابا يضربني.

أشعر بشيء من السكون، كأنني تحولت إلى لحظة من الصمت، كأن تجويف جسدي كهف أقبع فيه وأحيا حياة أخرى داخل الحياة. أرى أبي، وقد تحول غضبه إلى جزع ثم فزع فرعب.

«خالد! خالد!» صاح عبد القادر مسقطًا الحزام من يده.

«يابا! حبيبي! شو صارلك؟ أنا متأسف يابا متأسف، والله لم أقصد. خالد! ردّ عليّ يابا! يا ربي! ما الذي فعلته؟» كان عبد القادر ذاهلًا جزعًا حين بكت رِتْشَلْ، مرتعبة هي أيضًا. هرعت ألوان إلى الغرفة.

قالت لزوجها وهي تحضن ابنها: «أبا خالد، قبل عدة أيام صار معه نفس الشيء لكنه فجأة رجع طبيعيا.»

«ما الذي يحدث له؟» سألها والهلع يستولي عليه من منظر خالد الذي تقلَّبت عيناه في محجريهما وجمد وجهه كالأموات.

قالت ألوان وهي ترتجف: «مدِّده هنا. عندما صار معه نفس الشيء المرة الماضية تحسن عندما دلَّكت له صدره.»

الطريقة التي تدلِّك ماما بها صدري تريحني، فأشعر بحب فيّاض يسري في جنبات نفسي. لا تزال أختي رِتْشَلْ تشهق بالبكاء. التصقت وتشبثت بي فشعرت بحنان جيّاش يلفنا معًا. أشعر بالندم والخجل لذبحي دجاجتها.

قالت ألوان لزوجها: «توفيق ووسيم أحضروه مرة وهو في نوبة مثل هذه قبل عدة أسابيع. كانوا يتحدثون وفجأة صارت عيناه تتقلبان كما هو الآن.»

«لماذا لم تخبريني؟ هيا نأخذه للدكتور!»

«لم تطل النوبة ورجع طبيعيا بسرعة.» قالت وهي تدلّك صدر ابنها بهمة أكبر، بكل ما في قلب الأم من هلع مهول. نظرت إلى زوجها، وراح الجزع يقفز جيئة وذهابا بينهما. فجأة رمشت عيون خالد بضع مرات وبدأت عيناه تستقران في محجريهما، ثم نطق قائلا: «إيش مالكم؟ لماذا الدكتور؟»

خالد

«تشعر كأنك طفلٌ يلعب بعدسة زجاجية مكبِّرة يحرق بها نملًا.»
جندي إسرائيلي يصف الهجوم على غزَّة

كنت أعلم أن 27 كانون الأوَّل من سنة 2008 لن يكون يومًا عاديًا. سيكون مناسبة انتهاء الآحاد وبدء العشرات في سنِّي.

لأن عبد القادر وألوان ولدا في عائلتين كبيرتين تمر عليها أيام الميلاد مثل أي يوم آخر، لم يحفلا بهذه المناسبة واعتبرا الاحتفال بها من قبيل الأمور المترفة. علاوة على ذلك، فإن الحجَّة نظميَّة كانت تعارض تلك الحفلات لأن مازن اعتقل في المرَّة الوحيدة التي نظمت فيها حفلة عيد ميلاد. لكن خالد كان شديد الهوس بعيد ميلاده وأخذ يعدُّ الأيام قبل أشهر على موعده، مما جعل العائلة تشعر الشعور نفسه. وهكذا تداولوا فيما بينهم التخطيط لحفلة عيد ميلاده. حتى عبد القادر تلهَّف على مجيء ذلك العيد، وبدأ يسأل خالد كلَّ ما يخطر في البال من أسئلة: «ها يابني، كم يومًا بقي؟»

قال لي كلٌّ من توفيق ووسيم، وكان عمرهما الآن قد تخطى منزلة الآحاد، إن بلوغ سنِّ العاشرة أمرٌ ساحر، إذ سيمنحني هذا العمر قوة لم أمتلكها من قبل. ولما سألتهما ماذا يقصدان، تضاحكا بتآمر وقالا إن عليَّ أن أنتظر. لكنني أحسست أنهما يحاولان إيقاعي في «مقلب». كانا يفعلان ذلك أحيانًا لأنني كنت أصغر منهما سنًا.

عندما ذهب الأطفال إلى المدرسة، بدأت ألوان تحضّر «الكيك» للحفلة. وافقت الحجَّة نظميَّة على مضض ألا تمنع الاحتفال.

قالت لألوان: «أنتِ كنتِ صغيرة ولا تذكرين ما حدث لما عملنا حفلة عيد ميلاد في هذه العائلة.» ردت ألوان برجاء: «يمَّه من شان الله، اليهود لم يأخذوا مازن لأنك أقمتِ لي حفلة عيد ميلاد. وبعدين عاد! خالد سيطير من الفرح بهذه الحفلة.» فردت الحجّة نظمية: «الله يعفو عنا ويتولانا برحمته يا بنيتي»، وهي ترضخ للأمر الواقع وإن كان في باطن كلامها شيء من المناكفة وعدم الرضا.

ظننتُ أن وسيم وتوفيق كانا يكذبان عليَّ، ولكنهما كانا صادقين. كان بلوغ العاشرة كما وصفاه وأكثر. لقد كان حدثًا سحريًّا وغير عادي على الإطلاق. حتى اليهود جاؤوا للاحتفال معي. غزة كلُّها، بل العالم بأسره، احتفل بعيد ميلادي العاشر.

كان طلبة الفترة الصباحيَّة قد أنهوا دراستهم وخرجوا من المدرسة ليفسحوا الدور لطلبة الفترة المسائية. ولهذا كانت الشوارع تغصُّ بالتلاميذ الغادين والرائحين عندما أسقطت إسرائيل أولى قنابلها. هزَّت الانفجارات الأرض، وقذفت المباني والأجساد وتناثر في الهواء الموت والخراب. لم يكن ثمة مكان يمكن اللجوء إليه وباتت غزة تحترق.

وقف خالد حيث هو، عبر إلى ذاك المكان الذي تسميه أمُّه «نوبة». سعت للحصول على عون الأطباء، لكن دون جدوى. كان ملاذا هادئا، داخل أعماق نفسه، مكانا من الأزرق.

ألعاب نارية هائلة هزَّت الأرض. أطلقت السيارات أبواقها وركض الناس في كل الإتجاهات، يصرخون ويلوحون بأيديهم في الهواء. سيارات الإسعاف سارت مسرعة في الشوارع وأصوات أبواقها زادت ضجَّة الحفلة. حتى إسرائيل أرسلت طائراتها لأجلي، طارت على انخفاض، ترجُّ المباني وتفتح كل الشبابيك على مصاريعها. كم كنت مخطئا بحق اليهود! إنهم رائعون! بابا كان مخطئا بحقهم أيضًا. أسأل الله أن ينسى كل دعواتي عليهم بالانتقام.

تدفَّقت الدماء وثار الغبار وتصاعد الدخان واشتعلت الصدور واشتطَّ نبض القلوب. قصفوا آخر مطحنة، آخر مصدر خبز في غزة، وهدَّموا المدارس والبيوت والمساجد والجامعات. ثمَّ رشَّت إسرائيل غزَّة بالفوسفور الأبيض.

جاؤوا بمروحياتٍ نثرت شرائط زينة بيضاء وكأنه بيت عنكبوت في السماء. ثم تساقطت حبات الكونفيتي على الأرض وكأنها ملايين من الشموع بملايين من الشُّعلات. سقط الكونفيتي على بعض الناس فراحوا يدورون ويصرخون. يا لهذا الاختراع الرائع! حقا إن اليهود أذكى بني البشر!

أصبحت بلا وزنٍ، طَفَوتُ فوق الهواء وطرت فوق غزة. حتى أنني انزلقت فوق البحر أيضًا. هكذا إذًا هو سحر سنِّ العاشرة!

من الضجيج العارم في غزة، انبثق السكون هنا، داخل سنِّ العاشرة. وبينما كنت أحوِّم في هذا السكون، رأيت رِنْشَلْ داخل كهف في مكان بيتنا. كان بابا يسند حائطا بظهره يمنعه من السقوط، ويصرخ على رِنْشَلْ لتتركه وتذهب. عرفت أن عليَّ أن أنادي رِنْشَلْ، ففعلت. ثم واصلت تجوالي في العالم وكأنني نسمة من هواء.

لم تستجب رِنْشَلْ لندائي، لكنَّ رجلًا خرج من جسد أبي ودفع برِنْشَلْ نحوي. أعرف أن ذلك الرجل ليس رجلًا، بل هو سليمان. هذا ما أريد قوله لكم عن بلوغ سنِّ العاشرة: إنك تعرف أشياء ولا تدري كيف تعرفها.

ثم حملني رجال البلد عبر الشوارع وأوصلوني إلى أمي. كانت في غاية السعادة لرؤيتي وأخذت تحضنني وتبكي.

كتبت القصص على بشرة ستّي نظميّة. وعندما كنت في الرابعة أو الخامسة من العمر كانت تجاعيدها مسرحا للعبة لعبناها سوية. تضع علامتين عشوائيتين على وجهها، ثم تغفو لفترة قصيرة. أما شرط اللعبة فهو ألا أوقظها إلا إذا اهتديت إلى طريق عبر خطوط وجهها يصل بين تلكما النقطتين. وبهذا كانت ستي تفلت بنصف ساعة من النوم وهي تدري بأنني منكبٌّ على دراسة خريطة تجاعيدها. وكان أكثر ما يستهويني هو البحث عن الدرب المفضي من أذنها اليسرى وحتى زاوية عينها اليمنى. لقد كان خطا مستقيمًا تقريبًا يقطع جبينها ثم يستدير إلى الأسفل فيتعانق مع ثلاثة خطوط عميقة تبزغ من زاوية عينها، وخاصة عندما تضحك. نقشت تلك اللعبة وجه ستي في ذاكرتي، وكانت تجاعيده دروب العودة إلى الدار والوطن.

قصفُ إسرائيل على غزة غيَّر أساس الوقت. كأن الزمن أيضًا أصيب وأخذ يحبو عبر الأيام، يعيق مروره ركامٌ افترش الأرض. وبلغ من طول دقائقه أن أحست الحجّة نظميَّة بالشمس تزحف وتجرُّ ثقل الساعات. ثمَّة عملٌ كثير ينبغي إنجازه، ولكن لم يكن ثمَّة شيء يُعمل. تجمَّع الناس وهم لا يملكون ما يقولونه. وإن تكلموا، غُلِّفت كلماتهم بصمتٍ يحدِّق في هوَّة بينما هم يسحبون أمواتهم من بين الأنقاض ويدفنونهم. حتى الغضب وكلام الانتقام لم يشفِ الغليل وأصبح لا معنى له. سطوة الحطام لبَّدت الحواس، فصارت الدموع ملاذًا للإحساس بشيء، أي شيء. بدا الأمل شيئًا قبيحًا مبتذلا، وغدا الموت مغريًا ومرغوبًا. تواطؤوا جميعا على السكوت في ضباب مظلم يلفُّ الناس وموتاهم وخراب حياتهم.

لكنَّ الزمن مضى رغم إيلامه. ورويدا رويدا، ثاب الناس إلى رشدهم

وراحوا ينقذون ما تبقى من أشلاء حيواتهم. لملمت الحجَّة نظميَّة من بين دمار منزلها بعض أوانيها، وأوراقًا وأقلام رصاص مكسورة ولكن ما زالت صالحة للدراسة، وفردةَ حذاء يمكن لأحدهم الاستفادة منها وانتعالها مع أخرى حتى ولو لم تطابقها. أما الأطفال فهم يتأقلمون بسرعة، ولذلك حوَّلوا البحث بين الأنقاض إلى لعب ومسابقات. لكن الكثير من الكبار ترددوا بين مناظر الدمار التي تحيط بهم خشية أن يجدوا بعضا من نفوسهم المنشطرة في ذكريات القصف المرعبة وجثث الأحبة. جلسوا على أطراف حياتهم، على الصخور، وتحلَّقوا حول نيران التمسوا فيها الدفء وانتظروا أن يغذَّ زمن أعرج خطاه ويمضي. رمى أحدهم لوح خشب فوق صخرة، لعب الأطفال لعبة «سي سو»، فنثرت ضحكاتهم شموسًا صغيرة في القلوب. انزاح الشتاء عن كاهل من عاشوا ويلاته في خيام وسط الركام. وانطلق الربيع من أرض محروقة، جدَّدها ولوَّنها بالخضرة، وبدَّل سموم القنابل وحزن القلوب بالورد. ثمَّ عادت الحشرات ولحقت بها الطيور فالفراشات.

دُمِّر جزء من بيت الحجَّة نظميَّة. بابه الأمامي بقي صامدا فعبرته هي وألوان ووجدوا أن الطابق العلوي الذي كان يسكنه أحد أبنائها مع أسرته لم يعد موجودًا، والبابُ الذي كان يفضي إلى غرفة نوم ألوان وعبد القادر أصبح مُشْرَعًا على فناء مكدَّس بالركام. واختفى الحمَّام أيضًا.

أعطتهم الأونروا خيامًا هم وأربع عشرة عائلة أخرى قُصفت بيوتها. كانت الخيام مزوَّدة بفوانيس وأسرَّة زرقاء مدموغة بصورة للكرة الأرضية، شعار الأمم المتحدة. لكن الحجَّة نظميَّة لم تلجأ إلى الخيمة، ولاذت بحمى أحد أبنائها في تلك الليلة الأولى. بينما عمل أولادها على انتشال جثة عبد القادر. وهكذا تماسك الحزن وتصاعدت قراءات القرآن من كل مكبر صوت، من كل منارة، من كل نفس وقلب.

استغرق استخراج جثَّة عبد القادر من تحت الأنقاض بضعة أيام. ولهذا منعت ألوان ابنتها رِتْشَلْ من المشاركة في مسابقات الأطفال بين الدمار. ومرة

أخرى، ترك أبناء نظميَّة حيواتهم الخاصة وتجمَّعوا عند قدميها. جحفل من الرجال الأشداء الذين نال منهم العجز خلال الاجتياح، جعلهم بلا حول أو قوة، يفرون ويختبئون من سطوة الموت ونزواته. شمَّروا عن سواعدهم، اشتغلوا بكل ما في سعير أنفسهم من غضب وذل وتصميم وحب. لابدَّ لهم أولا من استخراج جثَّة عبد القادر وغسلها ودفنها، ثم التصدي لمهمة تعمير بيت أمِّهم وأختهم.

كانت إسرائيل قد منعت إدخال مواد البناء إلى غزة منذ أمد بعيد. لكنَّ رجل أعمال غزيًّا دشن مشروعا مربحًا، استثمر فيه الحجارة والأنقاض وحولها إلى طابوق صالح للبناء. جمع الإخوة فيما بينهم ما استطاعوا لشراء ذلك الطابوق، واستخدموا خلطات من الطين بدلا من الإسمنت المفقود في غزة. كانت زوجاتهم وأولادهم يأتونهم بالطعام، وأخذ الجوُّ الجدِّي يتحول مع الأيام إلى فوضى عائلية مألوفة يتخللها الضحك والمناكفات.

مرت الأيام مزدحمة بإعادة التعمير، والاصطفاف لأداء صلاة الجماعة، وتشييع الجنازات كلما انتشلت جثة من تحت الأنقاض، والنبر الشعريِّ لآيات القرآن، وتزاور الأهل والجيران، والثرثرة، والبكاء، ولعب الصغار. وهكذا رممت البيوت بقدر المستطاع، وتبددت الضغائن والأحقاد، وانتهت الفضائح. استعاد الرجال رجولتهم في أعين نساء عكفن على الاعتناء بأجسادهم المتعبة وثيابهم المضمَّخة بالعرق. استمدوا القوة على مواجهة نهاراتهم من أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم. أمهات كالحجة نظميّة تصدين للصمت الثقيل ويددنه بدعوات حفظ الأبناء، وزوجات عمَّرن الليل بالحب ودفء الفراش، وأطفال تشبثوا بالأرجل والصدور والأعناق التماسا لطمأنينة جسد الأب. أما النساء فعملن جنبا إلى جنب مع الرجال في رفع الأنقاض والتصليح وإعادة البناء. كما أنهن نظَّفن وطبخن وخبزن واعتنين بالأطفال. كان الإجهاد المتواصل وألم العظام والعضلات يهدهد جراح أرواحهم المتعبة.

لكن لم يكن أحد بقادر على فعل أي شيء لألوان. أصبحت مثل شجرة دائمة الخريف، تنتصب بسكون، أوراقها تذبل، تجف، ثم تسقط. تحولت إلى

جزيرةٍ منعزلةٍ في مكان ما في نفسها، وبات صعبا لبعض الوقت العثور عليها داخل عينيها. أرادت أن تعود للبس النقاب، لكن الحجَّة نظميَّة وبختها: «ما هذا الكلام الفارغ! يمّه هذا حتى ليس فرضًا في الدين. لن ينفعكِ أن تدفني الحزن وراء شقفة قماش».

سطحيًّا، بدت الحياة وكأنها تعفَّنت. دمار المباني والبنية التحتية صبغ الهواء بغبار رمادي طيلة أيام. احترقت خضرة الأرض وانطمرت تحت طبقات من الحطام والأشلاء والموت. ولكن بعد دفن الشهداء وسكب ما سكب عليهم من دموع أصبحت غلظة الوقت أكثر سلاسة،، وراح يجري في غزة مثل جدول يتدفق فوق الصخور، ينعِّم نتوء حوافها ويكسوها بطحلب الحياة من جديد. كما أن فيلق الأجساد التي تصدت للأنقاض وإعادة البناء والطبخ وتدوير الأشياء نفخ الحياة بين الأهالي من جديد.

انشغلت نظميَّة وألوان بحالة خالد. مضت أسابيع بعد القصف ولم يخرج من أسر تلك «النوبة» اللعينة التي طالت أكثر من المعتاد. ظلَّت العائلة تلهج بالأدعية قبل كل زيارة عقيمة للأطباء. كان يتنفَّس، يشهق ويزفر، ذلك الجانب منه ما زال يعمل والحمد لله. أدخل طبيب نرويجي طيِّب اسمه مادْس أنابيب داخل جسده وأخرجها ثم أوصلها بأكياسٍ تُغَذِّيه وأخرى تجمع فضلاته. قال إن كلَّ ما في جوف خالد يعمل، وعلَّم ألوان ونظميَّة كيف تملآن كيس الغذاء وكيف تفرغان كيس الفضلات.

«معنى ذلك يا دكتور أنه يسمع ويفهم ما نقول؟»

ردَّ الطبيب معتذرًا: «لا أعرف. ليس لدينا الأجهزة التي تمكِّننا من فحص نشاط الدماغ لديه. هذا كلُّ ما أستطيع عمله في الوقت الحاضر».

خالد

«أين ولمن أصرخ بسبب كلّ ما انتابني من غضب وعجز
أمام هول ذلك المصير المرعب الذي شاهدناه بأمّ العين؟»
- الدكتور ماذسْ غِلْبرت

لا وجود للزمن هنا. ليس من كان وسيكون، بل أكون الآن فقط. ولكنني عندما أكون مع سليمان لا أستطيع أن أكون مع ماما ورِنْشَلْ وستّي نظميّة. أتركُ سليمان عندما أشعر بأمي. أسمعها تتحدّث مع شخصٍ لا أعرفه. تقول لهذا الغريب إن عينيّ كانتا في العادة تدوران في محجريهما. ولكن الآن: «انظر! ثابتتان في مطرحهما وجفناه يرمشان. وكأنه مستيقظ».

تحاول أن تقنع أحدهم بأنني أستطيع سماعها. ولكن، طبعا أنا أستطيع. أصرخ: بلى! ولكنني أدرك أيضًا أنهم لا يسمعونني. توقّفتُ عن المحاولة عندما قال لي سليمان إن كلماتي تدور في ذهني ولا سبيل إلى خروجها منه.

أسمع صوتَ رجل يقول: «مصيرنا واحد يا حجّة». أتمنى أن يتحرك فيصير داخل مجال رؤيتي كي أراه بوضوح، ها هو. معه كاميرا، هل سأظهر على التلفزيون؟ يسأل ماما عما حدث. يريد أن يعرف ما إذا كنت أعاني من شيءٍ قبل الاجتياح. تقول له ماما إنني كنت أعاني من «نوبات» تأتي وتذهب.

تقول ماما: «عندما وجدوه كان هكذا، حملوه وأحضروه لي هنا. ثم صار ينتفض وأصابته نوبات مثل الصرع. كنا في مدرسة الأونروا مختبئين، تركنا بيتنا لما بدأ القصف يقترب منا. كل الناس ركضوا لمدرسة الأونروا حتى يحتموا

بها. كان خالد ورِنْشَلْ معي وقتها». هذا ما تقوله أمي ولكني لا أدري إن كانت تتحدث عني أنا لأنني لا أتذكر أي شيء من ذلك.

«زوجي أبو خالد تركنا هناك ورجع ليحاول إنقاذ الدجاجات». صوت أمي يتهدَّج كأنها على وشك البكاء. ثم تفعل وستِّي تممد إلى حمد الله والتماس القوة والصبر على تحمل مشيئته. ماما تتابع ثانيةً: «كنا في مدرسة الأونروا لما سهوت ورِنْشَلْ ضاعت. لما لم نجدها ذهب خالد للبحث عنها. كنا متأكدين أنها تلعب في صف من الصفوف، لذلك أرسلت خالد ليبحث عنها في المدرسة».

ولكنني لا أتذكر أنني ذهبت للبحث عن رِنْشَلْ. أرى قمّة رأس ماما تتحرَّك يمينا ويسارا وخلفها الستائر الصفراء التي علّقها أعمامي على نوافذنا. ماما ترتدي حجابًا أسود، وأرى من زاوية عيني خطًّا أسود يتشكّل من حركة رأسها إلى الخلف والأمام. هي دائمًا تهدهد نفسها عندما تبكي.

يتكلَّم الرجل ويسألها عما حدث بعد ذلك. لا تجيب أمي. تتعبني ملاحقة الخط الأسود وأريد تركهم حتى أكون مع سليمان. يطلب الرجل من أمي أن تتوكل على الله، فترد ستي وأمي: لا إله إلاّ الله.

تقول أمي: «أولادي الاثنين اختفوا، طلبت من كل من في المدرسة أن يبحثوا معي عنهم. وإذ بالطيارات الإسرائيلية تقصف المدرسة». الآن فقط أدرك أنه ما من شيءٍ رأيته آنذاك كان حقيقيًا. لم يكن ما جرى احتفالًا بعيد ميلادي. أعيد استعراض الشريط ثانية، أفتِّش في تلافيف الذاكرة، فيطل عليَّ الرعب بوجهه، رعبٌ يخلو من أي رحمة. لقد دمَّر اليهود غزة مرة أخرى وقتلوا أبي. تقول ستِّي: «الله يقصفهم بجاه النبي محمد!»

أريد أن أتركهم الآن. لا أرى الخط الأسود الذي يرسمه حجاب ماما وبكاؤها توقَّف. أسمع ستي وهي تغلي القهوة.

«في النهاية لقينا رِنْشَلْ تمشي فوق ساحة المدرسة المحروقة. كانت قابضة على إصبعها تمصُّه كأنها تريد أن تخلعه من مطرحه. سحبته من فمها حتى أفهم

ما تقول. لكنها ما قالت إلا أن خالد أحضرها وتركها هناك. لا تدري أين ذهب، ولم تقل أي شيء آخر».

لا أتذكّر أي شيء من هذا.

«بعد ساعات أتى رجال يركضون وهم يحملون معهم خالد».

أتذكّر ذلك، حملوني إلى ماما، وكانت...

«كانت فرحتي قدّ الدنيا عندما رأيته، هجمت عليه، حضنته وبكيت».

V

اعترانا الخوف من غرق الشمس في بحر السماء
فقام الظلام وأثار نجومها
فهو القادر على ذلك ولا أحد سواه
توسدنا الثرى وعبّث عيوننا بهاء الخلود في علاه

(42)

كانت نور عندما تقع في الغرام تحب بجموح وإلحاح وطيش. كما لم تكن صاحبة قلب فطن يعرف أين تنتهي حدود كرَمِه. ولعل هذا ما يصيب فؤاد المرء عندما تهجره الأم في عمر مبكر. يصاب بالعطب فيقع في حب من هو ليس بأهل له ويغرم به سريعا وبلا حدود.

حافظت نور ونزنغا على علاقتهما حتى بعد زواج نزنغا وإنجابها أطفالا، وبعد أن أصبحت نور صبية واستغنت عن الرعاية الاجتماعية، وبعد تخرجها من الجامعة وانتهائها من دراساتها العليا، وبعد سقوط نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا وعودة نزنغا إلى ديربان مع عائلتها. بعد كل هذا بقي ذاك الشيء الذي بينهما، تقلَّب وتحول ولكن حسب رغبتهما، فجمع تلك الصلة التي تربط الأم بابنتها، والأخت بأختها، والمرأة بالمرأة، والرفيقة برفيقتها في الكفاح السياسي، والمعلِّم بالمتعلِّم، والصديق بالصديق.

وعندما بدأت إسرائيل هجومها المدمِّر على غزَّة في كانون الأوَّل من سنة 2008 كانت نور أخصائية نفسيّة تعمل في بلدية مدينة شارلوت. كانت تساعد المراهقين على مواجهة الاغتصاب، وزنا المحارم، والتحرش الجسدي، والإهمال وسوء المعاملة، والمخدِّرات، وأزمات نفسيَّةٍ أخرى لا تخطر على بال.

قالت لها نزِنْغا عبر سكايب: «تخصصك في هذا المجال أمر مفهوم ومنطقي. فنحن وكل النساء المجروحات نمتهن تجميع شتات التعساء الآخرين».

وبعد الهجوم الإسرائيلي بفترة وجيزة أرسلَت نزِنْغا رسالة إلكترونية فيها رابطاً لمقطع ڤيديو إلى نور:

«حبيبتي نور،

«هوزيه»، كيف الحال؟

هذا هو شريط الفيديو الذي حدَّثتُكِ عنه. أذكر أنك كتبتِ بحثًا أثناء دراستك في الجامعة عن متلازمة الانغلاق على الذات، وخطر لي أنك قد تريدين الاطّلاع على هذا. تأكَّدتُ بالطبع من الاسم الأخير للمريض كما أفعل دائما مع القصص الآتية من غزَّة، إنه لا يتطابق مع اسم جدِّك.

لقد تأثَّرتُ جدًّا بالجهد الجبارّ الذي تبذله أمُّ الصبيِّ وجدَّتُه للعناية به، رغم أنهما وبلا شك فقدتا الكثير الكثير.

أخبريني كيف تجري الأمور عندك فيما يتعلَّق بجمع التبرُّعات. إن ما تقومين به يا حلوتي يثير الإعجاب وأنا فخورةٌ بكِ.

زنغي».

كبست نور على الرابط وشاهدت الفيلم الوثائقي بدقائقه الثماني. ظهر فيه، بلقطات عن قرب، وجه الصبي. تأملته نور ولاحظت خطًّ الشعر الأبيض وسط سواد رأسه. شعرت أن وجهه مألوف. اسمه خالد. تظهر امرأتان تجلسان خلف ستائر صفراء. الكبيرة في العمر هي جدته. أمه ترفض التصديق بأنه في غيبوبة، وتقول بإصرار: «أنا متأكدة أنه يسمعني. أحيانا عندما أطلب منه أن يرمش يردُّ ويرمش».

رنَّ التلفون في مكتب نور. كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً. بلَّغها أحد أعضاء اللجنة التنظيمية لصندوق غوث الأطفال الفلسطينيين بأنهم استلموا أخيرا تأكيدًا بحضور الضيف من غزة. إنه فلسطيني وأخصائي في علم النفس، وواحد من القلائل في هذا التخصص ممن يعيشون في غزة. ها هم وبعد ستة أشهر من الاتصالات الهاتفية والمراسلات والمقابلات مع مسؤولين في الكونغرس ووزارة الخارجية ينجحون في الحصول من إسرائيل على إذن للضيف بالسفر من غزة، يصلهم خبر يؤكد أن الدكتور مُسمار يُسمَح له بعبور معبر رفح والسفر إلى الولايات المتحدة من مطار القاهرة.

قالت نور وهي تمدُّ يدها وتتناول كيسًا من رقائق البطاطا المقلية: «عظيم»، ثم أغلقت الهاتف.

(43)

كانت نور منظمة ومرتبة بشكل صارم في كل مناحي حياتها. حتى أن معدتها لم تسلم من هوسها هذا. اتخذت لنفسها طريقة منهجية في التحكم بما يدخل ويخرج من جوفها. فهي تملأ بطنها بأطعمة غير نافعة، ثم تفرغه بإقحام إصبعيها في الحلق، تتقيأ، وفورًا تنظف أسنانها وفق نمط ثابت محكم. نظام صارم ودقيق في كراهية الذات وتعذيبها. كانت تعمل لساعات لا تعد ولا تحصى، سواء كانت مدفوعة الأجر أو بلا أجر، لتكتمل وحدتها ويكتمل هروبها من نفسها عبر تشاغلها بإنقاذ الآخرين. ويوميا تُخمد ثورة اللون في عينيها وتلزمهما بالتطابق بلبس عدسات لاصقة بنيَّة.

كان كل شيء قد أُعِدَّ مسبقا في ذلك اليوم ولذلك كان سير الأمور مرتبا وسريعا. أشرفت نور على المتطوِّعين بنفسها، تأكَّدت من أن كلَّ مهمة من مهام حفل جمع التبرُّعات يضطلع بها أشخاص مناسبون. ودائما ما كانت المنظمات الخيرية تطلب عون نور في تنظيم تلك الفعاليات لما يتسم كل ما تقوم به من نظام وإتقان وأحيانًا القليل من الخيال.

كلَّفت ثلاثة متطوِّعين بمهمات التسجيل، وعشرة لتوزيع المأكولات والمشروبات، واثنين للإشراف على الأطفال. المسؤولون عن طاولات البيع في أماكنهم، المكلفون باستقبال المدعوين جاهزون ومعهم قوائم بالأسماء وأرقام المقاعد. أما من طلبت منهم تجهيز أكياس بمواد دعائية لتوزيعها على المانحين

فيعملون هناك في زاويتهم المخصصة لهم. رأت معهم رجلا لا تعرفه يمد لهم يد المساعدة. هذا المتطوع المجهول طويل أسمر، شاربه كثيف، وتحيط به هالة من الجاذبية. ظلَّ حضوره يلحُّ عليها حتى توجهت أخيرا نحوه بذريعة تفقد سير عمل المتطوعين هناك.

بعد أشهر ستعود نور لتفحُّص ما شعرت به من اندفاع نحوه. ما الذي جعله مختلفا عن الآخرين؟ كان في تلك الفعالية كثيرون لا تعرفهم أو لا تتذكرهم، ومعظمهم بملامح عربية مثل ملامحه. لماذا اجتذبها هو بالذات؟

قال أحد المتطوِّعين: «نور، مرحبا! كدنا ننتهي».

فقالت: «عظيم! يبدو أنكم أنهيتم عملكم بسرعة. على كل حال ما زال أمامنا ساعتان على وصول المدعوين». وهنا نهض الغريب، إنه طويل بالفعل وخجول أيضا. قال بالإنجليزية: «اسمي جمال»، ومدَّ يده مصافحا.

كان صوته رخيما يحمل نَبْرَ العربية وجَرسها. جسمه دقيق فارع يكاد ينحني كما لو أنه يحاول ألا يحتل مزيدا من المكان عن قصد. بشرته قمحيَّة، ملابسه فضفاضة تبدو مجعدة بعض الشيء، وشعره غير مرتب ولعله أطول مما ينبغي. نظراته تشي بالاهتمام، عيناه بنّيتان تقبعان تحت جفنيين متهدلين يضفيان على وجهة مسحة من حزن. وخلافا لمظهره غير المهندم فإن شاربه كان فائق الترتيب، متطابق الشكل في الجهتين، مشذبا ومسبَّلا ببراعة. بدا جميلا في عيني نور.

قالت وهي تمدُّ يدها: «أنا نور».

عندما لامست يدُها يدَه شعرت بشيء من الإثارة، على رغم قصر تلك المصافحة. ثم ضاعت الكلمات وغدا الصمت بينهما مربكًا.

سأل أحد المتطوِّعين: «نور، هل تريديننا أن نوزِّع أكياس المواد الدعائية على المقاعد؟»

فردت بحماس أكبر مما يتطلبه الموقف: «نعم، نعم! أشكرك جدًّا».

وبينما بدأ المتطوِّعون بترك زاويتهم، شكرت نور جمال على مساعدته.

فردَّ بارتباك ناقلًا ثقل جسده على إحدى ساقيه: «هذا من دواعي سروري».

سألته: «ما الذي أتى بك إلى هنا إذًا؟»

فأجاب وقد ازدادت ثقته بنفسه: «أتيت زائرا فحسب».

«إذًا زيارتك ستكون مثمرة، فالضيف الذي سيتحدث اليوم شخص رائع. أنا واثقة من أن ما سيقوله سيكون ملهمًا للجميع».

فقال وقد ارتسمت ابتسامة على أحد جانبي وجهه: «من هو المحاضر؟»

«أخصائي في علم النفس من غزة اسمه الدكتور مسمار. كان استصدار إذنٍ له لمغادرة غزة أشبه بكابوس».

عندها، رفع حاجبيه بشيءٍ من الفضول: «كم أتشوق لسماع ما سيقوله».

تلفَّتت نور حولها وقالت: «لا بدَّ أنه هنا الآن».

«هل تعرفينه؟»

ما يكتنفها من حماس غريب لإثارة إعجابه دلق من شفتيها كذبة: «أجل».

حاولت التراجع فورا وترقيع غلطتها، ولكن لا سبيل إلى ذلك دون كذبة أخرى: «عبر الرسائل الإلكترونية.» أغاليطُ تنهال عليها بأسرع من قدرتها على التفكير، وهكذا كلما تكلمت ورَّطت نفسها بالمزيد من الأكاذيب. «لقد تراسلنا بشأن مريض معيَّن كنت مهتمَّة بحالته. حالته محزنة جدًّا...» تستعين بما في ذاكرتها من تفاصيل حول شريط الفيديو، خط الشعر الأبيض، اسم الصبي لا يحضرها. «... صبي صغير من مخيم النصيرات...» شعرت بالرضى لتذكرها اسم المخيَّم على الأقل. «في حالة من الغيبوبة. أو لنقل إنها ليست تمامًا كذلك...»

فقاطعها بقوله: «هل أنت متخصصة في الصحة العقلية؟»

ردت بارتياح لتمكُّنها من قول شيءٍ حقيقي هذه المرة: «أجل، أنا أعمل في دائرة الخدمات الاجتماعية في مدينة شارلوت. أشرف على من تتولى دائرتنا رعايتهم من مراهقين يعانون من أوضاعٍ صعبة».

«حدثيني عن، عفوا، ما هو اهتمامك؟ آسف وأعتذر عن إنجليزيتي التي لم

أمارسها منذ وقت. ما يثير فضولي هو سر اهتمامك بهذا المريض بالذات لأنه بعيد جدًّا عنك». حسنا، أصبح هو الآن من يتعتع في الكلام.

اتكأت نور على سلطة المعرفة واستحضرت شريط الفيديو الوثائقي. تحدثت باستخدام مصطلحات مهنية عن أم الصبيّ وما تعتقده من قدرة ابنها على سماعها. قالت إن «متلازمة الانغلاق»، كما وصفتها، التي يعاني منها الصبي هي حالة نادرة ولا تحدث إلا جرَّاء عطب في «ساق الدماغ». هذا العطب يؤثر على حركة كل عضلات الجسم ولكنه لا يمسُّ القدرة على الفهم والإدراك.

ولكنه عندما اكتفى بالتململ دون الرد، أودت نور بنفسها عميقا في شَرَك الكذب غير المتعمد: «أنوي الذهاب إلى غزة للعمل مع هذا المريض وغيره في مركزٍ للعلاج النفسي هناك».

طأطأ رأسه ونظر إلى الأرض، تململ أكثر وكأنه يشعر بالذَّنب.

صاح رئيس اللجنة من الطرف الآخر للغرفة: «دكتور مسمار! ها أنت هنا إذًا!» التفتت نور خلفها بحثًا عن الدكتور مسمار ولكنها لم تجد أحدًا. وعندما استدارت حاول أن يبتسم معتذرًا، فاحمرَّ وجهها خجلًا وهرولت مبتعدة.

ناداها محاولاً إيقافها: «نور، انتظري، أرجوك!» لكن العديد من أعضاء اللجنة تحلَّقوا حوله ومدوا له أيديهم مصافحين.

وجدت نور زاوية بعيدة عن جموع الحاضرين، رأته وهي مختفية يمسح بنظراته القاعة من حين لآخر. أتراه يبحث عنها؟ توارت حيث هي عن الأنظار إلى أن حانت فرصة الهرب من مكانها بأمان فغادرت سريعا ومبكرا.

لمَّا أصبحت في البيت، أكلت ثمَّ تقيَّأت.

في يوم الثلاثاء التالي لحفل جمع التبرُّعات تلقَّت رسالة إلكترونية قصيرة منه.

«عزيزتي نور،

بحثت عنكِ فور انتهاء المحاضرة وطيلة المساء، لكن لم يسعفني الحظ.

وها أنا أتمكن من العثور على عنوان بريدك الإلكتروني. أرجو أن يكون صحيحًا.
أودُّ الاعتذار لك بشدة لأنني لم أخبرك حال التقيتكِ من أكون. لا أعرف لماذا سمحت لنفسي بالمضيّ في تلك اللعبة. إنني خَجِلٌ من نفسي بسبب ذلك.
أرجو أن تسامحيني على ما بدر مني. كما أرجو منك على الأقل أن تُعلِميني أنّك استلمتِ هذه الرسالة.

المخلص،

جمال».

قرأت الرسالة مرّات عدة، ثمّ كتبت ردًّا وحررته ثم محته. قضت يومها لا تفكر في أي أمر آخر. أرادت أن تتكلّم مع نْزِنْغا، لكن الوقت في ديرْبان كان قد تأخر حين فتحت تطبيق سكايب للاتصال بها.

«عزيزي الدكتور مسمار،

ليس ثمة ما يستحقّ الاعتذار، وأنا سعيدة برسالتك. لقد انتابني حرج شديد لما دار بيننا من حديث في ذلك اليوم ولهذا قررت أن أغادر مبكرا. أرجو أن تكون قد قضيت وقتًا ممتعًا في شارلوت.

أجمل التحيات،

نور».

الوقت في ذيل رسالتها كان الساعة الرابعة والنصف صباحًا، ولما وصلتها رسالته كان يشير في ذيلها إلى الرابعة وثمان وثلاثين دقيقة صباحًا.

«عزيزتي نور،

أرجو أن تخاطبيني بجمال، وأرجوك ألّا تشعري بالحرج. لقد كنتِ رائعة وكلامك رصين وأنا في غاية السعادة للقائي بك. أود الاستمرار في التواصل معك، خاصة بشأن نظريتك حول ذلك الصبي في فيلم الفيديو. إنني على دراية

بذلك الفيديو لأن ذاك الصبي، واسمه خالد، أحضرته أمه إلى عيادتنا، ولديَّ ملفٌّ طبي خاص به. قام أحد منتجي الأفلام المحليين بإجراء مقابلة مع أمِّ خالد عندما سمع بابنها وما يلفُّ حالته المرضية من غموض. (فهو لم يتعرض لإصابة بليغة في أيِّ جزء من جسمه أو في دماغه مما قد يفسر للأطباء سبب الغيبوبة: أو ربما قد لا تكون غيبوبة كما تظنين أنت). لم يتسن لنا فعل شيء يذكر له، ولكن ربما نتعلم منك ما يمكننا من مساعدته.

لا أدري إن كنت ما تزالين تودين المجيء إلى غزة، ولكن لديَّ منحةٌ كافية لتسديد نفقاتك لمدة سنة وتوفير مكان لك في سكن متواضع خاص بنا. ستجدين في المُرْفَق نسخة من طلب تقديم للمنحة إن راقت الفكرة لك. أرجو أن تفكِّري في الأمر.

تحياتي الحارَّة،

جمال».

استمرَّت مراسلاتهما وأصبحت ملاذا يوميًّا لنور تلتجئ إليه لتشعر بهدف ومعنى لحياتها. ومن تلافيف ذاكرتها، استرجعت نور لحظةَ قال لها جدها إن عينيها المختلفتين هما تماما مثل عيني أخته. وحضرها ما قاله منذ زمن بعيد: «أنت يا سيدي الوحيدة في العائلة التي ورثت عينيها. ونحن يا حبيبتي عائلتنا كبيرة جدًّا وإن شاء الله نلتقين بهم كلهم عن قريب». راحت تتخيل أن تعثر في غزة على امرأة مسنة لها مثل لون عينيها، وتتذوق طعم أن تكون محاطة بعائلة كبيرة وأن تهتدي إلى مكانها الذي تنتمي إليه.

حلَّ اليوم الذي قطعت فيه معبر رفح للمرَّة الأولى بعد أشهر. وكان جمال ينتظرها هناك على الجانب الفلسطيني منه. شعره مقصوص وبدا هندامه أحسن حالا مما كان عليه في حفل جمع التبرُّعات في الولايات المتَّحدة.

قال، وهو يتولى أمر حقائبها: «أهلًا نور، نوَّرت غزة بوجودك».

«أنا سعيدة برؤيتك وبوجودي هنا».

«هل ما زلت ترددين في مناداتي بجمال؟» قال ذلك مبتسمًا فضحكا معًا.

قالت: «هندامك يبدو مختلفا هذه المرة».

فردّ: «بالطبع. لأن زوجتي لا تتهاون مع ميلي إلى إهماله. عندما رأيتِني كنتُ حرا طليقًا لمدَّة شهر لأن زوجتي كانت في زيارة لأهلها في كندا».

اقتحمت كلمة «زوجتي» بهدوء ذاك الحيز الذي صنعته نور من كلمات ورسائل وأشواق.

(44)

حضر حفل تخرُّج نور إلى جانب نِزْنغا وعائلتها خالُها سانتياغو. كان قد شاخ قبل أوانه، بهت لونه لعدم تعرضه للشمس، واصفرَّت أسنانه بسبب حقن الهيروين التي شقَّت أخاديد في ذراعيه. باع غيتاره واستبدله بهارمونيكا متواضعة ليخرج ما في جوفه من ألحان. وفي يوم تخرج نور، عزف لها برقَّةٍ لا مثيل لها، رقَّةٍ مجروحة بلا دواء أو شفاء. وبعدها بشهور، عندما استلمت نور تلك الهارمونيكا عبر البريد مع رسالة تخبرها بوفاته، رسمت ذاكرتها صورة له وهو يذوب بهدوء في حزن تلك الأنغام التي عزفها يوم تخرجها.

لم يكن مكتب جمال أكثر من غرفةٍ صغيرةٍ، جدرانها عارية وطلاؤها أخضر مقشَّر، فيها مروحة معدنية في السقف، ونافذة بزجاج مكسور. أكوامٌ من ورق فوضوي وملفات تتوزع على الأرض، وعددٌ من فناجين القهوة وأكواب الشاي المستعملة فوق طاولة مكتبه. نظر في أحد الملفات وراح يقرأ بشرود: «أعتقد أنني أخبرتك كلَّ شيء عبر البريد الإلكتروني. كما قلتُ، قابلته مرَّتين. عادت

به عائلته في المرَّة الثانية بعد أن كنت قد قلتُ لهم ليس لديَّ ما يمكنني فعله.»
هزَّ رأسه، ثم أضاف: «لا يتوقف الناس في هذا المكان اللعين عن التمسك بأمل حصول المعجزات».
وهنا طافت في ذهن نور كلماتٌ من قصيدةٍ

ليس الأمل مادة،
ولا فكرة،
إنه موهبة.

قلَّبت نور أوراق الملف. كلُّ ما فيه يشير إلى أن خالد لا يعاني من خلل جسدي يُفسِّر الحالة التي يعاني منها والتي تشبه الغيبوبة.
قالت وهي تشير إلى ملاحظة كُتِبَ جانبٌ منها بالإنجليزية فقط: «هل تعني هذه الملاحظة أن في العائلة من عانى من انفصام في الشخصية؟»
فقال: «يبدو أن والدة جدَّته كانت تكلِّم الجن. وهذا غالبا ما يعني هنا الإصابة بانفصام في الشخصية». طفا من أعماقها اسمٌ وشقَّ طريقه إلى وعيها.
ردَّت قائلة: «قد يبدو سؤالي غريبًا، لكن هل اسم هذه الجدَّة سليمان؟»
«لا يمكن أن يكون هذا اسمها، لأن سليمان اسم مذكَّر لا يطلق على الإناث».
وقفت سيارة جمال في زقاق ضيِّق جدرانه خرسانية رمادية عالية تكتظ بالشعارات وملصقات الشهداء الذين تطلّ وجوههم الفتية على الأحياء من هيبة مروعة لقبور طوت أجسادهم باكرًا. في زاوية من الزقاق صغيرات يلعبن الحَجْلة، إحداهن تنطُّ وهي تشدُّ على رضيع وضعته على خصرها، وأخريات أصغر سنا وقفن يراقبن. في ركن آخر، صبية يحاكون مشاهد لجنود يعتقلون فلسطينيين. يتظاهرون بإطلاق النار من عصيٍّ حلت محل أسلحة رشاشة. لمَّا خرجت نور من السيارة، أحست فجأة بثقل المهمة التي جاءت لأجلها سيما وأن شعورها بعجزها يطاردها دوما ويكاد لا يفارقها.

وكما لو كان جمال يعرف ما يجول في نفسها قال: «هناك نقص فادح في عدد الأخصائيين النفسيين في غزة ولا يسد سوى قدر طفيف من حاجات الوضع المأساوي هنا. لهذا فإن وجودك هنا مهم للغاية مهما كان ما تستطيعين فعله بسيطا». تبادل نظرات خاطفة مع عدد من الصبيان فاقتادوهما بحماس عبر متاهات الأزقّة. أشار جمال لنور كي تتبعه، وأضاف: «من يدري؟ قد تكونين في نهاية المطاف تلك المعجزة التي تنتظرها العائلة».

توقّف الأطفال عند بابٍ معدنّي ملطخ برسومات تتخطاه ويمتدُّ إلى الجدران الإسمنتية الهزيلة المحيطة. جدران يفحُّ منها غضب ما تحمله من صور حداد على صياد سمك يفكُّ شباكه قرب البحر. ملامحه غير واضحة، لكنه يُسبِلُ جفنيه اتقاءً لوهج النهار. سمرته وخشونة يديه تشيان بعلاقة حميمة مع الشمس والبحر. «هذا عمو أبو خالد»، قال أحد الأطفال وهو يشير إلى الملصق ثم تابع: «لكن خالد الآن مريض وما بيقدر يتكلم».

انفتح الباب المعدني فعرفت نور أمَّ خالد من مقطع الفيديو. استقبلتهما بترحاب عارم، كما تجري العادة في الضيافة العربية، وفيض من الأمل والإيمان بأن الله يجزي الصابرين، قالت: «الله يفرح قلبك مثل ما فرحتِ قلبي بقدومك». ولما دلفت نور إلى البيت، صافحتها وقبّلتها على الخدّين وعرفتها بنفسها: «أنا أم خالد وأمي هي الحجّة نظميّة أم مازن، ستأتي بعد قليل من المطبخ».

حيًّا جمال النساء بوضع يده اليمنى على صدره بدلًا من مصافحتهن. سار نحو خالد الذي كان جالسًا وسط الغرفة في كرسيٍّ متحرك وتسنده بعض الوسائد. أخته الصغيرة تحتضن دمية محشوة على شكل دب، تلتصق بأخيها وإصبعها في فمها. ينظر الاثنان إلى شاشة تلفزيون صغير، يتابعان بأعين متسمرة فيلم كرتون توم وجيري الصامت. شموع في أنفاسها الأخيرة يلتمع لهيبها من صينية بقرب خالد عليها بقايا شموع أخرى. حثّت أم خالد ابنتها الصغيرة على الترحيب بالضيفين: «رِتْشَلْ يلّا سلمي على ضيوفنا»، فقامت ومدت يدها لجمال ثم نور.

في تلك اللحظة خرجت الجدَّة من المطبخ وقالت: «أهلا يا ابني، أهلا يا بنيتي». كانت ترتدي ثوبًا فلّاحيًا مطرّزًا بألوان ورد فلسطين وزيتونها وليمونها. طرحتها السوداء تنسدل فوق طلّة مشرقة بالابتسام. أما صدرها العارم وحوضها العريض فيشهدان على أمومتها السخية الفيّاضة. ورغم كثرة التجاعيد فإنها لا تبدو أكبر بكثير من ابنتها، وكأن الدهر شق أخاديده في وجهها فأفلت شبابها من قبضته وتخندق هناك.

جذبت الحجَّة نظميَّة، التي كانت أقصر من نور بكثير، وجه نور بيديها ونظرت في عينيها مليًّا، ثم طبعت بشيء من خيبة الأمل قبلة على خديها. استدارت نحو رِتْشَلْ وقالت: «تعالي يا حبيبتي ساعديني نضع الأكل». فقال جمال: «لا يا حجَّة، ما كان عليكِ أن تتعبي نفسك». لكن الحجَّة نظرت إليه نظرة استنكار وقالت: «ما هذا الكلام؟ من يدخل بيت الحجة نظمية لا يخرج منه على لحم بطنه. ولا تحمل هم قعدتك وسط الحريم. ابني الله يرضى عليه سيصل الآن». ثم اختفت في المطبخ لتساعد رِتْشَلْ في جلب الطعام.

أخذت ألوان يوم إجازة من عملها تأمل أن تتمكن عالمة النفس الأميركية تلك من فكِّ ابنها من حبسه وإعادته إليها. وصل أحد إخوتها فتناول الجميع إفطارًا متأخِّرًا من البيض والبطاطا والزعتر وزيت الزيتون والزيتون والحمُّص والفول والمخللات والخبز الساخن الطازج. ورغم إجادة نور للغة العربية، لم يكن سهلا عليها فهم اللهجة الغزية عندما يتحدث بها أصحابها على نحو سريع. ولهذا لم تتمكن من التقاط ما دار من حديث مقتضب لمّا تساءلت ألوان عن تدقيق أمها في وجه نور.

قالت: «كنتِ تحسبين أنها هي؟»

ردت الحجَّة نظميَّة: «ها ولِّه! يعني كم أمريكية في هذا العالم اسمها نور؟ لكن علامة نورنا نحن في عينيها مثل مريم».

أخفت ألوان انزعاجها وأنهت غمغمتها وسط الضيوف: «الله أعلم، ربما

هنالك آلاف النساء اللواتي يحملن هذا الاسم هناك. يكفي يمّه خلص ليس وقت هذا الكلام، الآن علينا التركيز على خالد».

كانت الحجّة نظميّة سعيدة ومندهشة من قدرة نور الأمريكية على التحدُّث بالعربية. وبينما كانت ألوان تسألها عن وضع ابنها وعما يمكن لها فعله، راحت الحجّة نظميّة تصحّح لنور لفظ ما تنطقه من كلمات. أما رِتْشَلْ التي ما انفكت عن مصّ إصبعها، فلاحقت نور بعينيها وعلى وجهها أمارات من الفضول والخجل والارتياب.

وعندما انتبهت أمُّ خالد إلى أن الشمعة قد أوشكت على الانطفاء طلبت من رِتْشَلْ إحضار واحدة أخرى من المطبخ. شرحت السبب لنور: «طالما خالد مستيقظ أُبقي جانبه شمعة مشتعلة. هذا ما حدث عندما رمش لي بعيونه أول مرة. هذه هي الطريقة الوحيدة التي قدرت أن أجعله يتواصل فيها معي. أنا متأكدة من الذي أقوله». أغلقت عينيها، أخذت نفسا عميقا وزفرت: «هو واعٍ علينا لكنه محبوس في جسمه».

أشاح جمال وأخو ألوان ببصرهما بعيدًا لما انتابهما من عجز أمام حزن هذه الأم، أما نور فمدت يدها وأمسكت بيد أم خالد، وسارعت الحجّة نظميّة إلى تبديد الحزن قبل استحكامه: «يكفي يا بنيتي. احمدي الله على كل حال.» ثمّ أشارت لِرِتْشَلْ لكي تنقل أطباق الطعام معها إلى الداخل.

خرج الرجلان إلى مقهى الحي وتركا المرأتين تخططان لجلسات نور مع خالد. لكن جمال همس في أذن نور بالإنجليزية قبل ذهابه: «لا تعدي بشيء لا تقدرين على تنفيذه».

كان أولاد الحارة يلعبون كرة القدم فأغلقت ألوان الشباك وابتسمت بتردد لنور، قالت: «هل بإمكانك جعل ابني يستيقظ؟»

خفضت نور بصرها إلى الأرض وراحت تبحث عن الكلمات المناسبة: «أم خالد...»

قاطعتها ألوان: «عندما نكون نحن النساء وحدنا في البيت ناديني ألوان. أنا

أعرف أن الأمريكيين ليسوا متعودين على أمور مثل أم وأبو فلان. على كل حال، أنا متأكدة، ابني ليس في غيبوبة».

«كلامك صحيح ومعك حق يا ألوان، بس...» اعترى التردد نور لما رأت ما فعلته كلماتها القليلة بالأم الملهوفة التي تقف قبالتها. لقد أضاءت في عينيها شموسا من فرح سرى إلى جسد نور وعمَّ أرجاء الغرفة. ثم تذكَّرت تحذير جمال: «لا أقدر الآن أن أفعل أي شيء أكثر من إيجاد طريقة للتواصل بها معه».

فقالت ألوان وهي تحتضن نور: «الله يفرِّح قلبك مثلما فرَّحتِ قلبي».

رجعت الحجَّة نظميَّة، وقالت لألوان: «والله لا أفهم ولا كلمة من كلام هذه الأمريكية»، ثم التفتت نحو نور وابتسمت: «معلش، ما دام جعلتِ ابنتي النكديَّة تضحك هكذا، والله لنعلمك الحديث بالعربية بشكل صحيح».

التفتت نور صوب رِتْشَلْ التي كانت متوارية في زاوية مع ألعابها. قالت لها: «شو رأيك تساعديني؟» فابتسمت رِتْشَلْ للمرَّة الأولى وإن بخجل وسارعت إلى تغطية وجهها بلعبة من ألعابها. ذهبت نور إليها وأخرجت شيئا بلاستيكيا من حقيبتها، انحنت لتصل إلى مستوى رِتْشَلْ وقالت: «لا أعرف اسمها في العربي، لكن اسمها هارمونيكا بالإنجليزي» ثم راحت تنفخ فيها.

لكن رِتْشَلْ لم تجرؤ على مدِّ يدها لأخذها.

«تودين تجربتها؟»

فهزَّت رِتْشَلْ رأسها بالإيجاب.

قالت نور: «هذه كانت لعازف مهم كثيرًا، لذلك مش ممكن أهديك إياها. لكنني بسمح لك بالعزف عليها قدر ما تشائين. ما رأيك أن تعتني لي بها؟»

وعدت رِتْشَلْ بذلك، وقالت: «هل أستطيع أن أريها لأصحابي؟»

«بالتأكيد».

في تلك اللحظة سجَّل أحد الأولاد ممن يلعبون كرة قدم في الخارج هدفًا، فتعالت صرخات الفرح وملأت الغرفة. هرعت رِتْشَل لتشهد لحظات الفرح والمرح تلك ولتزينها بالأنغام التي حمَّلتها إياها.

خالد

فناجينُ قهوتنا. والعصافيرُ والشَّجَرُ الأخضرُ
الأزرقُ الظلِّ. والشمسُ تقفز من حائط
نحو آخرَ مثل الغزالة.
والماءُ في السُّحُب اللانهائية الشكل في ما تبقَّى لنا
من سماء. وأشياءُ أخرى مؤجَّلَةُ الذكريات
تدلُّ على أن هذا الصباح قويٌّ بهيّ،
وأنّا ضيوف على الأبديَّة.

محمود درويش

سجَّلتُ هدفًا في لعبة كرة القدم مع وسيم وتوفيق هذا اليوم. كان بإمكاني أيضا أن أرى يُسرى تراقبنا من شباك نافذتها. أعلم أن ذلك كلَّه في رأسي. ولكنني شعرت حقا برجلي وهي تركل الكرة نحو شباك الهدف وبهجوم أصحابي عليَّ واحتضانهم لي. أحسست بنظرات يسرى وبذراع صديقي التي تطوِّق كتفي كذلك.

جاء وسيم لزيارتي. وقف في مجال رؤيتي ثمَّ حرَّك وجهه، لم تعد أعيننا قادرة على الالتقاء. لكنني رأيته بما يكفي حتى ألحظ ما نما على وجهه من شعر، وكيف كبر كتفاه وأصبحا أكثر اتساعا. لا ليسا بعرض كتفي رجل بعد، ولكن ليس كصبي مثلي أيضا. كم مضى من الوقت يا ترى؟

كثيرًا ما أذهب إلى بيت دراس. أتوجه دائما إلى النهر، وهناك أجلس مع مريم في فضاء لا حدود له من الأزرق. كتبنا أغنية معًا، أو ربما تذكَّرناها. ورثناها ولا ندري كيف وممن.

جدّني
أنا في الأزرق
بين السماء والماء
حيث الزمان كلُّه الآن
ونحن الأبدية
نجري كنهر.

يأتي جدُّو عطيّة إلى هنا أيضًا، وهو يعرف مريم جيِّدا، ولكن منظره يبدو غريبا بلا ستّي نظمية. الحبُّ يملأ كلَّ بقعة هنا ولكنني أجد مشقة في فهم حقيقة الواقع، لأنني أتذكر أنهم غير أحياء. كيف أخبر ماما عن هذه الحرِّيَّة؟ كيف أقول لها أن ثمة بيت دراس في فلسطين بلا جنود وأن بإمكاننا جميعا الذهاب إليها؟

نتواصل الآن بواسطة الشموع. وعندما أجلس إلى جانب نهر بيت دراس مع أجدادي وكبار السن في البلد، تضيء السماء شمعة فأعرف أن ماما تناديني حتى أعود. أعود دائمًا من أجلها وأرمش بعيني لأجل خاطرها. تهمس لي بأنها تعرف أنني أسمعها. ستِّي تعرف أيضًا، قالت: «أنا أعرف أنك لا زلت هنا يا بني». تعرف أنني داخل جسدي، تغنِّي لي وتفضفض عمَّا في قلبها. تروي لي قصصًا من بيت دراس، فأعيشها عندما أذهب إلى هناك. الأماكن والناس الذين تخبرني عنهم يظهرون عندما أعود إلى النهر. أتركها وحيدة مع جسدي، الذي أحس أنه بات غريبًا عني أكثر فأكثر: مجرد قوقعة لا أرجع إليها إلا لأكون مع شموع توقدها أمي من دم قلبها.

أما الآن ونور هنا، فإني أظل مقيدا بشموع أمي لفترات طويلة. لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي تلعب إلى جانب النهر معي ومع مريم، إنها الآن امرأة أميركية في مَهمة. تتكلَّم مع رِنْشَلْ وتروي لها قصصًا عن جدٍّ من غزة، وعندما أعود إلى النهر أكتشف أنه ممدوح. إنه معنا جميعا طوال الوقت هناك. نور لا تعرف

أنها عادت إلى عائلتها وبيتها. عندما جذبتها ستي لتنظر في عينيها، كانت نور أيضا تنقِّب في عيني ستي عن أخت جدها. بقايا حكايات جدها تقول إنها ورثت اختلاف لون عينيها من أخت جدها تلك. أريد أن أخبرهم بكل ما أعرف.

طلبت مني نور أن أرمش بعيني إن كنت أسمعها وأفهمها. فعلت، فصاحت ماما بلهجة المنتصر: «ألم أقل لك؟»

رِتْشَلْ الآن مساعدة نور ويدها اليمنى، عندما تتحدَّثان أسمع صوت أختي ينفض القلق والخوف عن كتفيها الضئيلين. تعملان بلا كلل لكي تصنعا لي بطاقات عليها أحرف وكلمات شائعة.

كانت نور تأتي يوميًا وتمكث وقتا أطول مما يتطلبه عملها. كانت تظن أنها إنما تفي بوعد قطعته ليس إلا. تصنع في حياتها أمرا خيِّرا وله معنى. تقدم المساعدة لمن هو بحاجة لها. وبالطبع، كان ذلك كله صحيحا، إنما كان عرضيًّا فحسب، إذ لم تأتِ إلا لتغمر نفسها في صخب الحياة العارمة لعائلة وجيران. جاءت حتى ترقب الحياة عن كثب وتنبش روحها لتمرِّغها في نبضنا. أتت حتى تطفئ عطشها مما يتكثف من بخار حياتنا الدافئة فوق سطح نفسها القاحلة الباردة. من أجل ذلك أتت، من أجل أن ترشف ندى العائلة عندما يلامس جسدها.

قالت نور بفرح وهي تحمل سماعة الهاتف: «ظل مركِّزًا معي لحوالي نصف ساعة وأجاب عن أسئلة بسيطة. رمشة واحدة يعني نعم ورمشتين يعني لا».

فأجاب جمال: «ممتاز يا نور. لا بد أنك مسرورة جدا لهذا التحسن السريع».

تابعت نور قائلة: «لا أعرف إلى أي مدى يمكننا أن نعلق آمالنا على ما استجد في حالته. لكن التغيير الأكبر حصل على يدي رتشل التي جاءت بمعظم الأسئلة. سألته عما إذا كان يحب شعرها وما إذا كان يريد مشاهدة فيلم معها».

كان يوما أشبه بمعجزة، شهد تحرر طفلين من انغلاقهما داخل نفسيهما ولو لمدة قصيرة. كانت رِتْشَلْ هي صاحبة فكرة وضع الأغاني القديمة التي يحبها خالد. ولما راحت تؤكد لهم أنه سيحاول الرقص عليها، رأوا خدَّ خالد ينقبض انقباضة سريعة. كانت تلك الانقباضة السريعة كفيلة بإسقاط ألوان على ركبتيها وإجهاشها في البكاء.

كانت الحجَّة نظميَّة تشرب الشاي مع جاراتها أثناء جلوسهن لخبز عجينهن في الطوابين تحت شجرات الليمون. وصلت رِتْشَلْ ونفسها مقطوع. طلبت من جدتها أن تترك كل شيء وتسرع حتى لا يفوتها الأمر. هرعت الحجة نظمية وهي

تسبِّح وتحمد الله بعدما قالت لها حفيدتها بحماس إن خالد بدأ يصحو. لحقت بهن بعض صويحبات الحجة نظمية من حجَّات وختيارات.

رغم خيبة آمالهن برؤية خالد على حاله قعيدًا في كرسيه، شعرن بحلاوة الاستسلام لبهجة رِتْشَلْ وفرحتها العارمة. كانت أغاني نانسي عجرم وعمرو دياب تلعلع في بيت الحجة نظمية لتنعش هواءه وتزيد من بهجة يوم أصبح فارقا تحت تأثير سحر رِتْشَلْ. ربطت منديل أمها حول خصرها النحيل ورقصت. صديقاتها الصغيرات كنَّ أيضا هناك بعد أن لحقن بالجدات. شاركنها الرقص على الأنغام وصفقت الجدات بحبور وابتهاج. لم يطل الأمر بالحجة نظمية، نزلت إلى حلقة الرقص هي الأخرى وجذبت ألوان إلى المعمعة.

تواصل فرحهن العفوي واحتدم لما أبداه خالد من يقظة واستجابة بالرمش لكل ما طلب منه. شغَّلت نور الأغاني التي اختارها خالد برمش عينيه بعدما عرضت عليه رِتْشَلْ مجموعة منها. خمس أغنيات، كانت كفيلة بإعادة الفرح الضائع إلى رِتْشَلْ وإصلاح عطب نفوسهم وتبديد الحصار العسكري وإنهاء الاحتلال العسكري وإعادتهم إلى بيت دراس.

(46)

لم تكن اللياقة تسمح لماما أن تعود إلى ارتداء النقاب بعد وفاة بابا، لكنها كانت تودُّ فعل ذلك. كانت ترغب بالاختفاء وراء ستار أسود لتظل قابعة في أسر الظلمة والذكريات. وحدي أنا وليس سواي من كان قادرا على سبر أغوار فجيعتها. خبأت ألمها خلف ستائر عالمها الخاص بعيدا عن الأنظار. أحيانا، كانت تخرج بعضه وتحيله إلى كرات من غضب ترجم بها الآخرين دونما سبب مقنع. لكن جلَّه ظل يتقيَّح داخل جسدها.

مضت على النجاح المبدئي الذي أحرزته نورمع خالد شهور من الإحباط، فشلت خلالها في الحفاظ على رد فعل مستمر منه. قالت لها الحجة نظمية إن المعجزات عزيزة، لا تتحقق إلا عندما يكون الإيمان قويًا. لكن بينما ظل خالد ينظر إلى هذا العالم بخواء انتعشت رِتْشَلْ، وبصفتها مساعدة نور، نصَّبت نفسها مسؤولة عن رعاية شؤون أخيها. تكلمه، تمشط شعره، تغسل وجهه، تنقب في أذنيه وأنفه وسرة بطنه وتحت أظافره عن «الوسخات». وفي المساء، عندما تتركهم نور تتظاهر رِتْشَلْ بالقراءة لخالد كما تفعل نور خلال جلساتها معه. كما أخذت على عاتقها مسؤولية تغذيته أيضا، سيَّما أن أمها بدأت تسعل أكثر بعد عودتها من العمل ووجهها يذبل شيئًا فشيئًا، كما أن بصر جدتها لطالما كان ضعيفًا ولن يعود ليقوى من جديد.

باتت ألوان تعود من التعاونيَّة شاحبة ومرهقة من تطريز الأثواب الفلاحية طيلة النهار. وكانت تلك الأثواب تهرَّب عبر الأنفاق إلى مصر وتباع في أرجاء العالم. أما أهم زبائن تلك التعاونية فكانوا الأثرياء من الفلسطينيين الأميركيين، والأمريكيون كلُّهم أغنياء، أليس كذلك؟ فهم يدفعون دولارات كثيرة لأجل الحصول على أي شيء من أرض الوطن. حتى أن ألوان سمعت بعائلة دفعت بضعة آلاف من الدولارات مقابل حفنات من تراب نابلس. كانوا يريدون نثرها فوق قبر أبيهم بعد رفض إسرائيل السماح بتنفيذ وصيته ودفنه في فلسطين.

علقت إحدى زميلات ألوان ساخرة: «يا هل ترى كم يدفعون مقابل تراب من غزَّة؟» فضحكن. لكن أخريات عبَّرن عن التعاطف والإشفاق: «الغربة مُرَّة، المسكين قضى عمره وهو يشتهي العودة لبلده، فلا رآها حيًّا ولا رجع إليها ميتًا. رحمة الله عليه».

فقالت أخرى بعد أن اعتدلت في جلستها لتوزِّع سخطها بالتساوي على الجميع: «والله ما من مسكين غيرنا، نحن المحاصرون هنا في غزة. وقبل أن تقلن أي شيء دعنني أكمل كلامي، هم يأخذون منا حاجات ليست رخيصة ويدفعون مقابلها. المسألة بسيطة وما فيها تعقيد، لا أحد هنا يشحد منهم.

فليقاوموا مثلما نقاوم أو ليبعثوا لنا السلاح، عندها نقول إنهم فلسطينيون بحق».

استحسن بعضهن قول المرأة بينما استاءت منه أخريات. ذكَّرن الحاضرات بأقاربهن الذين ذهبوا للعمل في الخارج بغية إرسال النقود إلى الأهل في القطاع. كما حذَّرت إحداهن، وهي أصغرهنَّ سنًّا، لكنها تحظى باحترامهن لحسِّها الوطني الصارم، من تعميق هوَّة الخلافات التي خلقها العدو بين الفلسطينيين. لكن أخرى تصدت لها بالقول: «يختي توكلي على الله، مللنا من كثرة محاضراتك في السياسة!» ثم التفتت إلى الأخريات وتابعت: «عن جد يا بنات، هل سنلاقي من يشتري منا ترابًا من غزة؟» استفضن في مناقشة الموضوع ولكن ألوان بالكاد فتحت فمها.

سألتها إحداهن: «ها، ما رأيك يا ام خالد؟ تلك البنت الفلسطينية الأمريكية ليست سيئة. ماذا كان اسمها؟ نور؟»

فكَّرت ألوان كيف تنظر رِتْشَلْ نظرة تقديس لنور، وتذكرت ما قالته لها من أنها تريد أن تكون تماما مثل نور عندما تكبر. فردَّت قائلة: «النميمة حرام». هزَّت صاحباتها رؤوسهن وانفجرن بالضحك: «والله إنك عكس أمك! لا علاقة بينكِ وبينها لا من قريب ولا من بعيد».

لكن هذا الحديث منح لألوان الإذن بالتجرؤ على فتح أبواب كانت موصدة في نفسها. لقد منحتها نور أملا كاذبا. ما السبب الذي حمل تلك المرأة على ترك حياتها في أميركا والمجيء إلى مخيمهم التعيس في غزة؟ هل تستغل ابنها لأجل بحث دراسي أم أنها تحاول نيل ترقية في مجال عملها؟ هناك كثير من الأجانب الذين لا يزورون عالم الفقر والحرب إلا لأجل كتابة بعض الكتب. تخيلت ألوان الرضا الذي ستشعر به لو قررت قطع رجل نور عن زيارة بيتها. لقد ضاع خالد منها وتمنَّت له الراحة في الموت. فأيُّ حياة يحياها الآن وهو مجرد جسد يتنفَّس ويتغذى من أكياس ويخرج فضلات في أخرى تتولى هي أمرها رغم الضعف الذي ينتاب جسدها؟ شعرت باحتراقٍ بطيءٍ يتَّقد من عجزها عن

تقديم حياة أفضل لخالد ورِتْشَلْ، تلك المسكينة التي تهرع لملاقاتها عند دخول البيت متعبة علَّها تساعدها وهي تحاول الجلوس أو الحركة بإعياء شديد. لقد أصبحت رِتْشَلْ مسؤولة عن خدمة أخيها بالرغم من صغرها. شدت هوة المرارة ألوان إلى قاعها، لتلوم بدورها نور على كل ما ألمَّ بها. وعندما بدأ سعالها يزداد توغلا في صدرها، بلغ استياؤها من نور مبلغه. وكأن جسدها المتعب كان أحد خطايا نور. وبلغ الأمر بها أن حقدت على نور بسبب المرارة التي تجمعت في قلبها، وللإحساس بالخطيئة التي رغبت في التخلُّص منها، ودعت الله أن يعينها ويغفر لها رغبتها المتنامية في استدعاء سليمان.

قالت مستعطفة: «سليمان، إن لم يكن في طلبي إغضاب لله ساعدنا. أرجع لي خالد أينما كان».

جاءت رِتْشَلْ راكضة نحو أمِّها: «ماما! زوجة الدكتور جمال تعزمنا عندهم غدًا على الغدا من أجل نور!»

دخلت نور في أعقاب رِتْشَلْ وقالت: «سيارة المركز معي ليومين حتى أزور المرضى، سمحوا لي باستعمالها لحاجاتي الشخصية كمان».

لاحظت ألوان أمارات الرجاء التي ترتسم على وجه نور، أو لعله شعورها بهدنة صامتة قررت نصبها في وجه عداوتها الكامنة. أشاحت بوجهها عن نور وقالت: «ما بقدر أترك خالد، عليَّ أن أبقى معه».

لكن رِتْشَلْ لم تكن على استعداد لقبول أي حجة من أمها، قالت: «معلش، نستطيع أن نضع كرسيه في السيارة. الله يخليكي يا ماما، دعينا نذهب كلنا معًا!»

سمعت ألوان أن زوجة جمال تنتمي الى إحدى العائلات الغزِّيَّة الثرية، ولكن ثمة شكوك بأن لها أخا قد يكون عميلا لإسرائيل. فكَّرت في أنها قد تتأكد من صحة تلك الشائعات التي ظلَّت تتردَّد منذ مدة طويلة. كيف هو بيتها من الداخل؟ هل هي طبَّاخة ماهرة؟ كيف يعيش أمثالها من الناس؟ ثار الفضول في نفسها فلانت قليلا.

قالت: «طيِّب يا حبيبتي، سنذهب إن قبلت ستّكِ المجيء أيضًا».

ارتفع حاجبا نظميَّة وقالت: «سنذهب وستصير عندك وعندي سواليف جديدة نخرّفها للنساء!»

فصحَّحت ألوان لأمها: «ستصير عندك أنتِ لا عندي أنا». كانت ألوان قد توقَّفت عن حضور ما اعتادت عليه من جمعات نسائية برفقة الحجة نظمية. فعلت ذلك في البداية لأنها كانت ترجو أن يخفَّ سعالها إذا توقفت عن تدخين النرجيلة. لكنها سرعان ما تذوقت حلاوة العزلة، وصارت تتحرَّق شوقا لتلك الساعات التي تقضيها بصمت بعد ذهاب والدتها إلى «اللمّة» الجارات. يجلسن عادة للتدخين، وشرب الشاي، وفصفصة البزر، واستغابة الناس، وحولهن أطفالهن وأحفادهن يلعبون.

غدًا ستلتمُّ النسوة في غيابها هي وأمها. تخيَّلتهن ألوان وهنَّ يتحرقن لسماع ما ستعود به الحجَّة نظميَّة من أخبار زوجة الدكتور وسفرة غدائها.

ذهبت رِتْشَلْ إلى خالد وقالت: «ارمش ثلاث مرات إذا كنت تحبني. يلّا ارمش، ارمش يا خالد! طيِّب. ارمش فقط مرَّتين. لماذا لا تريد أن ترمش؟ ارمش! إذًا مرة واحدة فقط! ماما، ماما، نور! رمش! والله خالد رمش!» ثم التصقت بشقيقها لمشاهدة التلفزيون. سمعتها ألوان تغمغم في أذنه شيئا عن «عزومة غير شكل» في بيت أناسٍ أغنياء، و«أراهنك أنهم يأكلون على طاولة وليس على الأرض».

(47)

كانت ستّي تتولى أعمال المنزل كلّها بينما تعمل ماما طوال اليوم خارج البيت. قالت لنا إننا محظوظون بوجودها بيننا لأنَّ أمَّنا «لا تستطيع قلي بيضة». في

أيام الجمع، يضجُّ بيتنا بصخب جوقة كاملة من الأخوال، وأبنائهم، وزوجاتهم المشغولات بحروبٍ لا تنتهي. تتولى ستّي توجيه مسار اليوم: ترسم الحدود والقواعد، تخرس ما لا يعجبها سماعه، وتشجّع ما يروقها. تضحك في تلك الأيام أكثر مما تضحك عادةً، تضعني دائما في صدارة المجلس وما يدور فيه، وهذا ما يضع رِتْشَلْ مباشرة هناك أيضا. تتصاعد الضحكات والمناكفات مع عبير القِرفة والهيل والفلفل وجوزة الطيب. بعدها، تقود ستّي الركب إلى الشاطئ، يجرُّونني على الكرسي، ونجلس جميعا لفصفصة البزر، وتدخين النرجيلة، وشرب الشاي بالنعناع، واللعب برفقة القمر. تنضم إلى ستي صويحباتها من عجائز المخيَّم، ممن كانت تذهب معهن للغسيل عند النهر أيام بيت دراس، فتتجدد بلمتهن عقود من القيل والقال عن الزيجات، والولادات، والحرب، والفضائح، والصداقات، والصلوات، وكل العيش بحلوه ومرِّه، عيش خطَّ تجاعيد في جلودهن وترهلات في أجسادهن.

كان بيت الدكتور يتناقض مع شخصيته كرجل متواضع يعمل مع أطفال المخيَّم. لوت نظميَّة بوزها تعبيرا عن استيائها مما تراه، وصعدت الدرجات الرخامية المؤدِّية إلى باب ضخم طويل يتقوَّس أعلاه. كان بيتًا فخما ولكنه ليس على شاكلة بيوت العزّ العتيقة التي شيدت في غزة قبل قرون. إنه مبني على الطراز الحديث، شيء للتباهي والتفاخر ينتصب في حي ثري وسطَ أكبر غيتو في العالَم.

استقبلتهم امرأة بالغة الجاذبية، ترتدي ثيابًا غربية أنيقة، شعرُها المكشوف صفَّفَتْه يدُ كوافير محترف. شعرت الحجَّة نظميَّة أن المرأة كانت تتوقَّع حضور نور بمفردها. فورا بحثت في وجه نور عن ردّ فعل على ما لمسته من تفاجؤ صاحبة البيت من حضورهم، لكنها لم ترَ سوى انبهارها بجمال تلك المرأة. تداركت نور نفسها وتمكنت من رسم ابتسامة مصطنعة، لكن عين نظمية التقطت ما اعتراها من شعور بالنقص وما وشت به لغة الجسد من حركات اعتذارية. ففي

مواجهة ضآلة حجم زوجة الدكتور راحت تحاول لملمة طولها وتقزيم حضور جسدها الأنثوي الفارع.

مدت نور يدها وقالت: «مرحبا ميساء، سعيدة جدًّا برؤيتك! وأخيرا التقينا! جمال قال لي الكثير عنك». كانت الحجَّة نظميّة تعلم أن نور تكذب.

تابعت كلامها: «دعيني أعرفك على عائلتي في غزة: الحجَّة أم مازن، أم خالد، رِتْشَلْ، وهذا خالد». شعرت الحجَّة نظميَّة أن نور تحاول تخفيف جرح الكرامة الذي راح صوت كعبيه يطرقع فوق وجه ألوان. فهي أيضًا لاحظت تفاجؤ المرأة لدى رؤية العائلة.

قالت ميساء: «طبعًا، طبعًا». ثم صافحت ضيفاتها وقبَّلت خدودهن.

قبل أن تصافح ميساء، خَطَت ألوان خطوة صغيرة إلى جانب نور في حركة اصطفاف تضامني عفوي معها. ومعنى هذه الحركة في اللغة الغريزية الصامتة للنساء أن ألوان وبلا شك ستساند نور ضدَّ هذه المرأة الدعيَّة في حال نشوب حرب أثناء العزومة. دبَّت الحيوية والنشاط في الحجَّة نظميَّة خلال مراقبة هذه الدراما الصامتة، خاصة وأنها لاحظت تنامي انزعاج ألوان من نور طيلة الأسبوع الفائت. عندما حلَّ الدور عليها، خطت هي الأخرى خطوة إلى جانب نور وصافحت ميساء قائلة: «الله يزيدك من فضله يا ست ميساء ويرزقك بالصبي، آمين».

لكزت ألوان رِتْشَلْ حتى تسلم على مضيفتهن فخطت البنت نحوها بخجل.

أخذت ميساء يدها الصغيرة وقالت: «اسم الله عليها ما ألطفها. الله يحفظها يا رب. ذكرتني ببناتنا عندما كنَّ بعمرها». ثم أضافت أن بناتها يقتربن من دخول الجامعة وأنهن الآن في زيارة الى أهلها في كندا.

قالت ألوان وهي تعدِّل وضع رأس خالد: «أكيد تشتاقين لهن كثيرا».

«طبعًا، أنا وزوجي نشتاق لهن كثيرا. لكن بنفس الوقت نحن سعيدان لاختلائنا ببعضنا البعض، متأكدة أنكن تفهمن قصدي». غمزت ميساء بعينها وضحكت، ثم تابعت: «تفضلن ادخلن، أهلا وسهلا».

توتَّرت نور، وبدا الاستياء جليا على ألوان من وقاحة هذه المرأة التي تلمح علانية إلى علاقتها الجنسية بزوجها. أما نظميَّة فأسندت ظهرها بارتياح إلى مقعدها. كانت راضية عما صار في جعبتها من تفاصيل لجلسة نميمة لذيذة. استشفَّت من أطراف كلماتهن، من طريقة جلوسهن، من نظراتهن المختلسة، من تراقص أعينهن وخدودهن، السبب الحقيقي لهذه العزومة وهذا «الغدا».

قالت نظميَّة وهي تنظر إلى نور التي كاد فكاها يصطكان من شدة التوتر: «الله يحفظ الدكتور جمال ويجعله دائمًا قويا مثل الحصان».

وسط الثرثرة غير المريحة والضيافة الشهية، دخلت شابَّة تستأجرها ميساء عادة في مثل هذه المناسبات لتهيئة المائدة. حاولت ألوان القيام بواجب المساعدة حسبما تقتضي الأصول، لكن ميساء، التي كانت تجلس مرتاحة، أوضحت لهم أن تلك الفتاة التي ذكرتها دون الإشارة إليها باسمها من مخيَّم الشاطئ وأنها بحاجة إلى العمل. قالت: «نعمل الذي نقدر عليه لمساعدتهم. يا حرام، لم تصلهم المياه بالحنفيات إلا قبل فترة بسيطة، تصورن! شيء يقطِّع القلب». وهزت رأسها تعبيرًا عن أسفها.

أما نور ونظميَّة وألوان فتبادلْن نظراتٍ فيما بينهن نمَّت عن رغبة جماعية تدور في أذهانهنَّ في المغادرة.

قالت ميساء: «وصلتني رسالة من زوجي على جوالي، وصل وهو يصفُّ السيارة الآن. الأكل جاهز تفضلن على الطاولة».

دفعت رِتْشَلْ كرسيَّ أخيها نحو طاولة الطعام وهمست له: «شايف؟ مش قلتلك بيوكلوا على طاولة مش على الأرض».

أما نظميَّة فأدهشها قدوم الدكتور جمال بمفرده لمشاركتهن الطعام، لكنها ظنت أنه سيسلِّم عليهن ثم ينصرف حتى لا يجلس وحيدا بين الحريم.

دلف جمال من الباب وهو يحمل أكياسا من الخبز الطازج والفواكه، مجرد قطع من الديكور لأداء تمثيلية العائلة السعيدة بنجاح، ولكنها سرعان ما انفضحت ولم تصمد طويلا. إذ أن عيني الدكتور وقعت أولا على نور وجذبته

نحوها بلا وعي فسار باتجاهها. ثم أدرك ما فعل فأوقف نفسه، ثم غيَّر مساره، وحيَّى زوجته بإعطائها ما يحمل من أكياس.

غرفت شيرين، الخادمة الشابَّة، الأرز ووضعته في الصحون. شكرتها نظميَّة وألحت عليها بالجلوس والأكل معهم. فقالت شيرين: «الله يطوِّل في عمرك يا حجَّة»، وتابعت تقديم الأكل ثم عادت إلى المطبخ.

تعجبت نظمية من عدد أدوات الأكل من ملاعق وشوك وسكاكين حول صحنها. مدت يدها وأمسكت بملعقة الأرز الكبيرة ثم حملت قطع اللحم بيديها. جرَّدت لحم الدجاج ولحم الضأن من العظم ووزَّعته على أفراد العائلة من حولها كعادتها عند الأكل. استبقت العظام لنفسها حتى تقرقط بقايا اللحم العالق بها، وتشفط المخَّ منها، فهذا ألذُّ ما في اللحم بالنسبة لها. وبعدما ملأت صحن رِتْشَلْ، كوَّمت قطعًا من اللحم الطري في صحن جمال، فاعترض على الفور، فقالت: «أنت تعرف يا بني عاداتنا وتقاليدنا جيدا. أنت راجل تكد وتشقى وتستاهل أن يهتم أحد ما بغذائك وأكلك».

شعرت ميساء بلسع ذلك الكلام المبطن فتململت في مقعدها قليلا. لكنها عادت واستدارت صوب نور التي ظلت تتجاذب أطراف الحديث معها بالإنجليزية فلا تردُّ نور إلا بالعربية. وأخيرًا، وبسخرية مكشوفة، دلقت نظمية كل الكلمات الإنجليزية التي تعرفها دفعة واحدة: «فود، غود، ويلكام»، ثم تابعت بالعربية وأثنت على صاحبة اليدين التي طهت الطعام ودعت الله أن يزيد مضيفتها من نعمته ورزقه.

أبقى جمال نظره مسلَّطًا على صحنه. كان يحرك الطعام بشوكة وبالكاد يأكل.

قالت ميساء: «اعذريني يا حجة. في غيبة بناتي لم أتحدث إنجليزي مع أي أحد مدة طويلة. نحن في العادة نتكلم إنجليزي وفرنسي في البيت حتى نحافظ على لغاتنا ولا ننساها». ثم حاولت أن توضح للجميع مدى سعادتها بوجود شخص مثل نور يمكنها أن تتدرَّب معه على اللغة خاصة وأن زوجها يقضي وقتا طويلا في عمله.

لم تستطع نظميَّة مقاومة إغراء الغمغمة في الفسحة بينها وبين نور: «قال ولا تعرف سبب غياب الدكتور طول اليوم!» لم يسمع هذه الكلمات أحدٌ سوى نور، لكن الآخرين شعروا بفحواها. خيَّم السكون عليهم، ولم يتبقَّ من صوت حول المائدة غير ما يصدر عن رِتْشَلْ وهي تأكل وتكلُّم خالد.

أما جمال فلم ينطق بشيء تقريبًا طوال جلوسهم على المائدة، ولما انتهوا من الطعام استأذن وانصرف. ترك ميساء لتتدبر أمرها في جو بيتها الثقيل مع ضيوف تلتقيهم لأول مرة. اضطرت إلى اختلاق قصص وهمية عن حياتها لتشغل وقت الزيارة. ولم يَخفَ على نظمية مما تخلل أحاديثهن من صمت مربك أن ميساء وفور مغادرتهن ستجهش بالبكاء وستفتح معركة كبيرة مع زوجها. انتابتها السعادة وشعرت بالرضا من ذلك.

بعد الطعام اللذيذ قدِّمت لهن أصناف من الفاكهة والحلويات والشاي والقهوة. وكان القسط الأكبر منها من نصيب الحجَّة نظميَّة ورِتْشَلْ. بعد انتهاء الزيارة، خرجتا مثل صغيرتين في الخامسة، سعيدتين ببطنيهما الممتلئين، وراحتا تعددان فيما بينهما أشهى الأطباق التي قدمت وتتناكفان حول من منهما أكلت أكثر من صاحبتها.

قالت الحجَّة لحفيدتها: «عزا يرقَع اليهود! طبعا أنا. أنتِ يا ست رِتْشَلْ لا ترين كم أن كرشي كبير وبطنك صغير». لم تستسلم رِتْشَلْ فردت كيدا بكيد ولجأت إلى رد ترددت كلماته ذات مرة على لسان جدتها: «طيب، بكرة تصبحين تخينة وأنا أصبح طويلة». اضطرت الحجة نظمية إلى التوقف لالتقاط أنفاسها من شدة الضحك.

قالت ألوان: «الله يكون بعوني، هذا اللي ناقصني! صارت رِتْشَلْ تتعلم أصول الردح من ستها». كانت تضحك هي ونور وهما منهمكتان في وضع خالد في كرسيه داخل السيارة. وبعدما استقر الطفلان في السيارة أشَّرت الحجَّة نظميَّة لكلٍّ من نور وألوان لتكلمهما على انفراد. تحركتا نحوها لما بدا على وجهها من أمارات الجد.

قالت الحجَّة نظميَّة بنبرة تقصدت أن تكون جديَّة، ووجه خال من أي أمارات للهزل: «هالحين قولوا لي، يا ترى ميساء تصرخ بالإنجليزي ولا الفرنساوي عندما يركبها الدكتور جمال؟»

انفجرن بالضحك وصعدن إلى السيارة وهنَّ مبتهجات. حتى ألوان التي اعتادت على توبيخ أمِّها عند تجاوزها حدود اللياقة لم تستطع مقاومة الضحك.

أصابت رِتْشَلْ عدوى المزاح فأرادت أن تدلي بدلوها هي الأخرى: «ماذا يكون الوقت الذي يقعد فيه الفيل فوق الحيطة؟» لم تعطهم فرصة للإجابة كانت متلهفة لقول الجواب: «يكون الوقت الذي يجب عنده بناء حيطة جديدة!»

ضحك الجميع وتحول الضحك إلى صخب عندما أضافت ألوان: «وعندما تكون البنت التي تستأجرها من المخيم هي التي تبني الحيطة الجديدة، يذهب الواحد لكندا حتى يمارس لغته الإنجليزية والفرنساوية». سُرَّت رِتْشَلْ لأنها استثارت كلَّ ذلك الضحك واقتربت من أخيها الذي لا يتحرَّك: «ارمش إذا كنت جوًّا بتضحك».

عندما غلب النعاس على رِتْشَلْ راحت الحجَّة نظميَّة تحوِّل القصَّة الصامتة التي جرت خلال العزومة إلى قصة محكيَّة: «ربنا الله، طبيخها طيب وبيتها بجنن. لكن لا تخافي يا نور ليس لديها عليك ولا ممسك».

ضغطت نور فجأة على دوَّاسة تخفيف السرعة.

تابعت الحجة نظمية: «سوقي يا نور لا توقفي. لا أحد يقدر أن يخفي عني شيئا، أنا الحجة نظمية. الرجل يحبك لكن واضح أن زوجته تعرف، وهذا هو السبب الحقيقي للعزومة. تريد أن تروزك بعينها وتريكِ كم هما سعيدان معًا. ولّه لعاد، ما الذي يدفع الرجل للجلوس لوحده بين النسوان؟ هي التي جرته وأجبرته على الجلوس! جلس مثل الولية التي ما لها لزوم. يا عيب الشوم عليه كيف يسمح لامرأة أن تتحكم فيه هكذا!»

«يُمَّه بكفي!»... طفح الكيل بألوان من كلام أمِّها المعيب.

«لا تقولي لي بكفي! أنا لا أطيق أن يقول لي أحد أن أسكت لأن كلامي كله صحيح. بعدين ليس من العيب أبدا أن يحب الدكتور نور. الله ورسوله حلل للزلمة أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة. وما دام مقتدر فلمَ لا؟ ونور ستجد من يحبها ويعتني بها، لا يوجد عيب بهذا الكلام».

اعترضت ألوان بالقول: «لا تتقولي على الناس يمَّه. ها هي نور جالسة أمامك وليست مهتمة. اسأليها بدل أن تختلقي الكلام». لكن نور ظلَّت صامتة وأبقت عينيها على الطريق.

«أنا في غنى عن سؤالها لأني أعرف سلفا أنها تحبه. صحيح ولا مش صحيح يا نور؟» كانت الحجَّة نظميَّة تبتسم لنور التي اشتدَّت قبضتها على المقود. عدَّلت الحجَّة جلستها، ويبدو أن ذلك غير اتجاه أفكارها أيضًا، قالت: «بل ربما لذلك أتيتِ إلى هنا أصلًا. وهذا أيضا ليس فيه عيب. لكن الأمر الذي يجنني هو كيف أن هذه المرة وبناتها يسافرن بهذه البساطة من غزة أما المرضى والمخطرون فيمنعون من العلاج في الخارج؟ قولوا لي ما معنى هذا الكلام؟»

«أستغفر الله! يمَّه بكفي. حرام عليكِ أن تطعني بشرف الناس وتتهميهم اتهامات كبيرة مثل هذه».

«لا ليس حرامًا. شو مالك؟ أحيانا أعتقد أن الداية أعطتني بنتًا ثانية غير التي سحبتها من بطني. الحرام هو أنه لا يوجد في غزة ولا جهاز طبي يستخدمه الدكاترة ليصوروا رأس ابن بنتي ويطببوه. الحرام أننا ممنوعون من أن نأخذه في سفرة لا تتحمل ساعتين للقاهرة حتى يفحصه أخصائي. وحرام عليكِ كمان أن تهملي نفسك وتتركي وزنك ينقص هكذا وتقلقي منامي طول الليل وأنتِ بتقحي. والله يا ألوان، إذا لم تزوري الدكتور في اليومين القادمين لأضربك بالشبشب مثل بنت صغيرة». وعندما رأت الحجَّة نظميَّة رِنْشَل تفتح عينيها بخوف همست في أذنها: «لا تخافي لن أضربها بالشبشب عن جدّ».

التفتت نور نحو ألوان بعينين ملؤهما التفهُّم والإشفاق وسرى بينهما شيء

شفيف فضح الوحدة التي تعيشها كلتاهما. رأت كل منهما نفسها في عيني الأخرى. ألوان متعبة ومريضة، ونور وحيدة وحدة قاتلة. كانت لحظة ضعف مرَّت بسرعة وخلَّفت وراءها شيئًا أشبه بمشاعر الأخوَّة بينهما.

قالت ألوان: «لمَ لا تنامين عندنا الليلة يا نور؟ غدًا تجتمع عندنا العائلة، وسألف ورق دوالي للغداء. ابقي عندنا وأنا سأعلمك كيف تلفين ورق الدوالي».

كما أكَّدت الحجَّة نظميَّة لنور أنها ستتولى الطبخ بنفسها، وقفزت رِتْشَلْ من مقعدها بحماس وقالت: «ستنامين معنا أنا وماما».

صمت المساء، تلفع برداء من العتمة، وألقى عليهم بفيض من الحب والمودة: ثلاثة أجيال من النساء مع طفلين، أحدهما يتفتَّح والآخر يذبل. لم تعد نور إلى السكن ثانية بعد تلك الليلة إلا لكي تأخذ أغراضها القليلة منه.

خالد

«مشيتُ ما يكفي لأعرف أين يبتدئ الخريف
هناك، خلف النهر ينضج آخر الرُّمَّان
في صيفٍ إضافيٍّ
وتنبت شامة في حبَّة التفاح»
محمود درويش

كلَّما اشتقت إلى أمي أعانق لهب الشمعة فيأخذني إليها. وحينها أستطيع أن أرى وأسمع وأشم غزة في رائحة طبيخ ستي. هذا القدر من الحياة في سن العاشرة رائع ولكنه ناقص، لا أنال فيه قسطا كاملا من دفء البيت. تواصلي مع رِنْشَلْ ونور يبعث فيهما سعادة غامرة ولكنه يتعب جسدي كثيرا. كان لديَّ الكثير مما أودّ قوله، ولكن وبعد أن أصبحت الوسيلة متاحة، انسحبت كلماتي من لوحة الحروف التي ابتكرتاها. لم يعد مهمًّا أن يعرفوا أن مريم ما زالت تقرأ عند النهر، أو أن ثمة «الآن» أخرى تعود فيها بيت دراس إلى أطفالها، أو أن نور هي نورنا نحن، ابنة شقيق ستي. أريد أن أقول لماما ألا تخاف ولكنني لم أعد أجد لهب الشمعة مؤخرا. قال سليمان: سيخبو اللهب شيئا فشيئا ولن يتمكن من النفاذ إلى هنا.

أحيانًا لا أحتاجه. أعود الى البيت لأن ماما تجذبني جذبا، مثلما فعلت عندما شعرت بالإهانة. يمكنني أن أراها، تجلس إلى مائدة تلك المرأة، تعتني بمتطلبات ذلك الجسد حبيس الكرسي ذي العجلات، جسدي، لكنني لم أعد أشعر بأنه أنا. لقد أصبحت ذلك الولد لأجل أختي فقط، لأنها تعتمد عليَّ حتى

أرمش لها بعيوني. عالمها ينبض بحسب عدد المرات التي أرمش فيها. رِتْشَلْ كثيرة التململ، تتشبث بأمي تارة ثم بجسدي، ثم بنور تارة أخرى. وأنا أشعر بالهوة بيني وبينهم تزداد اتساعا.

أتفهم ما تقاسيه أمي من كرب ورغبة في التنفيس. ولكن هناك كثير من المشاعر والعواطف الأخرى في تلك الغرفة. شيءٌ كثيف لزجٌ بين نور والدكتور جمال. يقول لي سليمان إنه الحب، فأفكِّر في يُسرى وآخر بيضة كندر أعطيتها إيَّاها. ولكن هذا ليس كذلك. ما يجري بين هذين الشخصين عميق وضارب الجذور، لا هما قادران على بلوغ منالهما منه، ولا هما يستطيعان الفكاك من قبضته، وأنا أريد أن أكون جزءًا منه. أحسُّ بما له من وطأة وجاذبية وحيرة. يبقى بينهما حتى عندما تغادر نور مع أمي وستي وجسدي وأختي. الحديث في السيارة يستفزُّ مشاعر متنافرة. أرمش بعينيّ لرِتْشَلْ عندما يضحكون، ويحطُّ جناح مرحهم فوق حبِّ ستي الدائم، ودهشة ماما، وحبل الأفكار اللزجة التي ستشغل بال نور والدكتور جمال لوقت طويل. ثم أغادرهم وأذهب مع سليمان.

(48)

توقَّفت نور عن ارتداء الشورتات في الصف الثامن بعدما قال لها صبيٌّ إن ساقيها تشبهان جذوع الشجر. وأثناء المرحلة الثانوية، قالت لها إحدى بنات صفها إن مؤخَّرتها سمينة إلى حد يستوجب الانتحار. وبعد سنة علَّمتها تلك الزميلة كيف تصير جميلة: «ما عليكِ سوى إقحام إصبعيك في حلقك بعد كلِّ وجبة طعام». صارت في تلك الفترة أيضا تضع العدستين اللاصقتين البنِّيَّين لكيلا تبدو مثل «مسخ». وعندما أزاحتهما أخيرا، هزَّ لون عينيها عالمنا. أخذ الزوار يأتون كلَّ يوم لسماع القصَّة وتسبيح الله على حكمته ورحمته اللتين لا حدود لهما. عادت سني للتحدُّث مع مريم، وانتشرت شائعات عن عودة الجنِّيِّ سليمان. لقد كان القدر قاسيًا عندما أخذ واحدة منا ونسج مصيرها من الوحدة والغربة والهجر والشوق ثم أعادها إلى بيتها ولكن غريبة. كبَّر الناس وهللوا لقدرة الله وحكمته التي لا يعلمها أحد سواه. لقد أعطى عيني مريم لنور كي تبصر بهما الطريق إلى بيتها في أرض الوطن.

لم تكن هنالك مرآة في الحمام، فنظرت نور ورِتْشَلْ في وجهي بعضهما أثناء فركهما أسنانهما وغسلهما وجهيهما قبل الذهاب إلى الفراش.

سألت رِتْشَلْ: «ما الذي تفعلينه لعينيكِ؟»

فقالت نور: «أريد أن أزيل العدسة اللاصقة لأستطيع النوم، شوفي»، وضعت نور العدسة الأولى على طرف إصبعها.

«لماذا؟»

«لأنها تؤذي عيوني إذا تركتها لوقت طويل».

«لماذا؟»

ابتسمت نور وقالت وهي تزيل العدسة الثانية: «تودين رؤية سرّ؟»

فصاحت رِتْشَلْ: «ياي! كل عين لونها شكل! كيف فعلتِ هذا؟»
«أنا ولدت هكذا، ما رأيك فيهما؟»
«بجنّنن!» كانت رِتْشَلْ مذهولة، «يا ريت عندي مثلهن».
وقبل أن تجيبها نور اندفعت خارج الحمام وهي تجرُّها من ذراعها وتصرخ: «ماما، ستّي، خالد! احزروا ماذا! احزروا ماذا!»

زجرتها ألوان وهي تخرج من الباب لاقتراض شيء من الهيل من عند الجيران من أجل قهوة الصباح التالي: «رِتْشَلْ اخفضي صوتك، الوقت متأخر».

«ليش بتخرسي البنت!» قرَّعت الحجَّة نظميَّة ابنتها. ثم رفعت رِتْشَلْ إلى حضنها وقالت: «تعالي هنا يا حبيبتي واحكي لستك ماذا يجري». فقالت رِتْشَلْ بصوت خفيض نزولًا عند أمر أمِّها: «نور عندها عين خضراء! عندها عين مثلنا لكن الثانية ملوَّنة. لونها أخضر، انظري!» وأشارت باتِّجاه نور التي كانت تبتسم.

سقطت ذراعا نظميَّة إلى جنبيها، أطلت من وجهها دهشة دعاء أجيب، وصدمة تحوّل أمل قديم إلى حقيقة. هطل دمعها غزيرا مدرارا، كأنه ينحدر إلى ذقنها ثم يتسلَّق خلف عينيها ليهطل ثانية وثالثة ورابعة ويدور في حلقات مثل حلقات أفكارها. هزَّت رِتْشَلْ جدَّتها وصرخت: «شو مالك يا ستي! ماذا يجري؟»

جلست نور على الأرض وعيناها المختلفتان تحدِّقان في الحجَّة نظميَّة من زمن آخر. قلبها فهم ما ألمَّ بالحجة، قالت: «أبي اسمه محمَّد، وسيدي هو ممدوح بَرَكَة، وستي هي ياسمين».

همسة متحشرجة أفلتت من بحر الصمت الذي غرقت فيه نظميَّة: «إنتي نورنا؟»

يدان مرتعشتان مسَّدتا خدي نور ثم ضمتهما إليها: «الله أكبر! الله أكبر!»

ارتجفت نور وهي بين يدي الحجَّة نظميَّة الحانيتين. ها هي تلتئم مع حبلها السريّ من جديد، ها هو يمتد فيربطها بأجزائها الأولى فتعود لها روحها بعد طول موات.

التفتت نظميَّة نحو رِنْشَلْ وقالت: «قومي ياحبيبتي هاتي لي صندوق مريم».

أسرعت رِنْشَلْ نحو الخزانة وعادت بصندوق خشبي أكل عليه الدهر وشرب.

فتحته نظميَّة على مهل، انهمرت دموعها من جديد لذكرى استلام طردٍ من الولايات المتَّحدة قبل سنوات طويلة.

كان هذا بعد سنوات من ذلك اليوم المرعب في السوق، حينما اتَّصل صديق ممدوح بنظمية وأطلق عبر تلفون تاجر البهارات الأحمر في أذنها رصاص الفجيعة. عاود الرجل الاتصال مرَّة ثانية. حينها لم تكن أوضاع نور قد استقرت بعد، وكانت المسؤولة عن ملفها قلقة لأنَّ أهم ممتلكاتها قد يضيع منها إلى الأبد. إنه كتابٌ كانت هي وممدوح قد ألَّفاه معًا، ولا يحق للمسؤولة بموجب القانون الاحتفاظ به. كما أنها لم تكن واثقة من مهنيَّة البريد الإسرائيلي في تسليم طرود إلى غزة. لهذا فإنها سألت صديق ممدوح، بعد نجاحه في تسليم ممتلكات الجدِّ الشخصية إلى أخته في غزة، إن كان على استعداد أيضا لتسليمها متعلقات نور الشخصية. كانت نْزِنْغا قد شرحت الأمر لنور، ولكنها كانت منشغلة في مواجهة صعوبات حياتها ودوامة سن المراهقة عن التشبث بماضٍ لن يعود. كان الصندوق الأول صغيرًا فيه حاجيات ممدوح: ساعة يده، صور فوتوغرافية قديمة، نسخة مهترئة من القرآن، دبلتا ممدوح وياسمين، ما تبقى من شبكتهما: سوار ذهبي مجدول كانت نظميَّة قد أعطته لياسمين بمناسبة الزواج.

كانت نظميَّة قد استسلمت لحظها العاثر في أنها قد لا ترى نور أبدا. ومثلما فعلت عندما فقدت أختَها وأمَّها وأخاها وابنَها وزوجَها فإنها تجملَّت بالصبر، ابتهلت بالرجاء، ثم تركت قلبها على عتبة القدر.

قال صديق ممدوح للحجَّة نظميَّة «مثل ما فهمت، هذا الكتاب يجب أن يظل دائما لنور. والله لا أدري للآن عن طريق من سأوصله لها». تحدث عن خشيته من عدم تأدية الأمانة. وفي نهاية المطاف، سلَّم الكتاب الى صديق له

كان مسافرًا إلى غزة وطلب منه العثور على نظميَّة وتسليمه لها. هكذا كانت الأمانات تصل إلى فلسطين. مسافرون يؤتمنون على طرود يسلمونها لبعضهم البعض حتى وإن لم يكن أحدهم يعرف الآخر، ولم يحدث أن خان أي منهم الأمانة.

وضعت نظميَّة الغطاء الخشبي جانبًا فرأت نور محتويات الصندوق. ساعة مألوفة، أوراق كثيرة عليها كتابة بخط طفولي لم تستطع فكَّ حروفها. ثم أزاحت نظميَّة الورق على مهل فبان الكتاب. مدت نور يدها، مررت راحتها فوق غلافه، تحسَّست الكلمات التي كتبتها قبل زمنٍ طويل: جدُّو وأنا. رسمٌ يصورها (بنت مبتسمة لها شعر أسود)، ذراعها (خطٌّ واحد) تنتهي بيدها المفتوحة (خمس شحطات صغيرة) تمتد لتتصل بالشحطات الخمس الصغيرة المتَّصلة بخطٍّ مستقيم يصل إلى رجل مسنٍّ مبتسم له شعرٌ ملون بالأسود والأبيض. رفعت نور الكتاب من الصندوق، شريطه متهالك مغبرّ وما زال معقودا على هيئة جناحي فراشة. عندما أمسكت بطرفيه تحوَّل إلى شريط أزرق لامع تحمله يدان صغيرتان ممدودتان. «سيدي اربطلي إياه على ذنباتي لو سمحت»، تردد صدى صوت تلك البنت الصغيرة في أذنيها. أمسكت يدٌ كبيرةٌ بالشريط، سألها: «أيّ ذَنَبة منهن يا سيدي؟» كان صوته قويًّا وحنونا. فتَّشت نور في ذاكرتها عن وجهه لكنها لم تعثر له على أثر. لم يكن هناك سوى الشريط، يديها ويديه، صوتها وصوته.

فتحت عينيها وهي تضم الكتاب إلى صدرها وقالت للحجَّة نظميَّة: «لا أستطيع تذكر وجه سيدي».

تحوَّلت دموع نظميَّة إلى ضحك: «الله أكبر!» راحت تكبِّر بصوت أعلى وأقوى ثم بدأت تخاطب أختها الراحلة: «أعرف أن لك يدًا يا مريم في كل هذا الحكي، أعرف أنك هنا ولم تتركينا أبدا. يا ربي الحمد لك والشكر، بنتنا رجعت لبيتها وأهلها». ثم نظرت في العينين المختلفتين، أمسكت وجه نور براحتي كفيها وقرَّبته من وجهها: «الحمد الله نورنا في بيتنا. ظللت دائمًا أدعو لك، والله يا حبيبتي بعمري لم أوقف الدعاء. دعوت ربنا أن يرجعكِ إلينا. يا

ويلي يمّه، كنتِ بيننا طول الوقت وإحنا مش دريانين! الله أكبر! رأيتِ كيف أن الله علام الغيوب؟ رأيتِ كيف ردنا معًا؟ رأيتِ حكمته؟» قبّلت الحجة نظمية وجه نور وراحت تتمايل: «يا ربي دخيلك! رائحة ممدوح وياسمين هجمت على دارنا الآن، ألف حمد وشكر لك يا رب».

كانت رِتْشَلْ مسحورة بكل ما جرى أمامها، ركضت إلى بيت الجيران لتأتي بأمها.

«الله أكبر! كان قلبي حاسسني أن فيكِ شيئًا لا أعرف ما هو. بعمري لم أحس أنك غريبة في دارنا. الله أكبر!» حضنت ألوان نور لحظة عبورها إلى الغرفة، ومن ورائها كل من كان في بيت الجيران. ثم اتصلوا ببقية أفراد العائلة فحضرت السلفات في صباح اليوم التالي. ذاع الخبر في المخيَّم مثل النار في الهشيم: «دريتن بالخبر؟ تلك الأمريكية! تبين أنها ابنة أخ الحجَّة نظميَّة. هل تذكرن ذلك اليوم في السوق؟ كان له بنت ابن وكانت نظمية تحاول إرجاعها هنا؟ وإذ بتلك الأمريكية هي البنت الصغيرة! الله أكبر!»

توافد الناس على البيت لتهنئة الحجَّة نظميَّة على دعواتها التي استجيبت، وعادت الشائعات التي تتكلم عن الجن بل زادت واشتدت. وأثناء ضجيج الحديث عن المعجزات والدعوات والحديث عن الجن، انسحبت نور إلى داخل نفسها حتى أطفأ المساء قنديله وانصرف الجميع عدا من كانوا يدورون في فلك قلبها: نظميَّة أخت جدِّها، ألوان، رِتْشَلْ، وخالد. جمعت الحياة شتات نفسها وأعادتها إلى منبعها الأصيل. لم يكن كل ذلك صدفة. كان العالم مدهشًا حقا. خطر ببالها أنها لم تشعر بدافع يقودها إلى إفراغ معدتها ولو لمرَّة أثناء وجودها في غزة. في تلك الليلة حملت بقايا الحب وقرأت صفحاته لرِتْشَلْ. أدرك النعاس الصغيرة فنامت على وقع تهويدة شخير الحجَّة نظميَّة وسعال ألوان وصمت خالد العميق. بعدها، سرح فكرها في تلافيف ذاكرتها وأشواق قلبها. وكالعادة، شرَّق وغرَّب لكنه عاد مثلما يفعل دائما إلى جمال، إلى التفاصيل والأجزاء ثم إليه كله.

VI

أبحرت نحونا مراكب الحكايا عبر طريق البحر العتيقة،

فلملمناها ونظمناها أغنيات جديدة.

وطلعت الشمس ثانية والتصقت ظلالٌ على الإسفلت،

فنزعناها وغزلناها ثيابًا جديدة

عندما كانت ماما بنتًا صغيرة سبحت ودون قصد فوق سربٍ من قناديل البحر فلسعتها لسعات مؤلمة. بعدها قرَّرت ألَّا يمس منها البحر سوى الساقين. لكنَّ تلك المسافة بينها وبين البحر ضخَّمت من وجوده داخلها، وصار هدير أمواجه المتلاطمة يقرع طبول قلبها عندما تقف على شاطئه. كانت تقف وتنظر إلى أزرق الله الفسيح وتستشعر وجود بابا. تقف هناك كما لو أنها تنتظر أن يؤوب إلى الشاطئ بشباك تنوء بصيد وفير.

تباطأت ألوان في ارتداء ملابسها علَّ نور تيأس وتذهب إلى عملها. كانتا قد تأخَّرتا عن الموعد بالفعل لأنها تشاغلت قصدًا في العمل حتى لا تعود في موعدها المعتاد. حاولت محاولة أخيرة لحمل نور على التخلي عن ذلك الموعد بافتعال شجار في البيت.

تبرمت قائلة: «سئمت من العودة إلى البيت لأجد كلَّ هذا الضجيج». أخرست الموسيقى الصاخبة التي كانت رِتْشَلْ وصاحباتها يرقصن على وقعها فتوقَّفن واجمات. غمزت نور لألوان تواطؤًا، وهمست في أذنها بأنها مرتاحة مما فعلته لأن قلبها لم يطاوعها على فعل ذلك بنفسها. زمجرت ألوان في نفسها وقد رأت أن كيدها ارتدَّ إلى نحرها، وانحنت لتحتضن رِتْشَلْ التي سارعت إلى تحيتها. قالت رِتْشَلْ بلهجة معترضة: «شغَّلنا الموسيقى يا ماما عشان خالد، حتى نساعده ليرمش!»

قبَّلت ألوان جبين خالد وسألت نور سؤالَها اليوميَّ العابر: «قوليلي، هل تواصل اليوم ورمش بعينيه ولا لأ؟» ولم تنتظر لتسمع جوابا.

قالت نور: «أنا سأتصل بالدكتور وأقول إنا سنتأخر بضع ساعات. صار معنا الآن وقت كثير وعليكِ أن تأكلي شيئًا قبل أن نذهب». إلا أن ألوان زمجرت وتأففت بصوت أعلى الآن.

نادتها نور ثانية: «ألوان، هنالك مباراة في الملعب الجنوبي. سآخذ الأولاد ليتفرجوا عليها. خذي وقتك في اللبس».

«كان يحب أن يلعب مع هؤلاء الصبيان»، قالت ألوان. أما نور فجفلت لما شعرت بخطواتها من الخلف قبل أن تصل وتقف بقربها إلى جانب الملعب الجنوبي.

قالت نور: «أرعبتيني، لم أعرف أنك هنا. جاهزة لنذهب؟»

جاء اثنان من أصدقاء خالد مسرعين نحو عمتو أم خالد وسلّما عليها وطلبا منها أن تسمح لابنها بالبقاء معهما.

فقالت نور: «إذا اعتنيتم به ربما يكون ذلك جيدًا كثيرًا له إذا قضى وقتًا مع أصحابه من باب التغيير». وعندما لاحظ الصبيان أن هذه المرأة الأمريكية تؤيّدهما تشجّعا وازدادا إلحاحًا في الطلب.

قالت ألوان: «طيّب يا وسيم. أنت وتوفيق كنتما أعزّ أصحابه على قلبه. لكن الآن هو لا يستطيع الاعتناء بنفسه أبدا، منشان هيك عليكم أن تظلوا معه طول الوقت. وأيضًا لا تلمسوا الأنابيب الخاصة به كيلا يصاب بأي التهاب. لدينا ورقة على حيطة الدار فيها قائمة بالأحرف إذا أحببتم أن تأخذوها. أحيانا قد يتواصل معكم ويرمش بعينيه بنعم أو لا». توقّفت لتنظر في عيون الصبيّين لترى مقدار استيعابهما. «فهمتهما ما قلت؟»، فأجابا: «آه فهمنا، سنفعل كل ما نستطيع لنعتني به». عندها أخرجت ألوان من حقيبتها قطرة عيون وقالت: «خذوا هذه القطرة، ضعوا له قطرة واحدة في كل عين إذا لم يرمش وحده. أنا راجعة للدار بعد ساعة أو ساعتين. أريد أن أجده هناك لما أرجع، لا تتركوه لوحده أبدًا. مفهوم؟»

اندفعت من فم الصبيين عبارات التأكيد والتطمين والشكر، ثم جرّا صديقهما القعيد بعيدًا. كان صوت أحدهما مسموعا حين قال لصاحبه الآخر: «والله سنجعله يستيقظ ويصير مثل البومب مثل أيام زمان».

لكن رِتْشَلْ التي أمسكت يد أمها من جانب ويد نور من الجانب الآخر، راحت تبكي وهي تسير نحو السيارة وترجو أخاها ألا يذهب إلى أيّ مكان.

خالد

«لا أريد أن أموت».

أمسيات الفلسطينية ذات الخمسة عشر عامًا

كأنها حياة أخرى تلك التي كنا أنا ووسيم وتوفيق لا نفارق فيها بعضنا البعض. كنت أصغر منهما بسنتين، الحَكم بينهما عندما يتخاصمان، والضحية لمزاحهما عندما يتفقان. كان كلٌّ منهما ابنَ عمٍّ الآخر وابنَ خالته لأنَّ أبويهما أَخَوان ووالدتيهما أختان. ذات مرة، سرقنا مجلَّة فاضحة من ابن عم وسيم المتزوِّج، خبّأناها في مكان سري ولم يعرف أحد عن ذلك. أحببنا بعضنا كالإخوة، بل كنّا إخوة بالفعل. دفعني وسيم وتوفيق في ذلك اليوم عندما ذهبت ماما لمراجعة الطبيب، تعاونا فيما بينهما على جرّ الكرسي في الطرقات وفوق الحجارة. قضينا بعض الوقت في المقبرة القديمة، وهي من الأماكن التي كنا نحب الالتقاء فيها بعيدًا عن أعين الرقباء. دخَّنا السجائر وتحدَّثا إليَّ، وعنّي، دون أن يكونا متأكّدين من أنني أسمع ما يقولانه. أحيانًا كان بإمكاني أن أرمش، وأحيانًا لم أستطع. بقيت عيناي مفتوحتين فقطَّراها بهوس. تخيَّلت ما كنا نفعله عند زيارة الأماكن التي نحبها، خاصة تلك التي كنا نسميها فيما بيننا نافذة الجنة. إنه ثقب رصاصة في حائط تعلوه ثقوب طلقات أخرى، وجنتنا كانت على جانبه الآخر.

لما وقعت في حب يسرى كنت في السابعة، أي أنني أكبرها بسنة. كانت عائلتها تتألف من ستِّ بنات فقط دون صبيان، ولهذا أطلق الناس على أبيها كنية

أبي البنات. امتازت بنات أبو البنات بجمال غير عادي، ولهذا كان يقول دائما إنه سيموت بالسكتة القلبية لخوفه عليهن. لكنه مات غريقًا.

بدأ وسيم حديثه بالقول: «الله يسامحني على الذي سأقوله. لكن بما أن أبا البنات استشهد، الله يرحمه، ما من خوف الآن من البصبصة على اللواتي ستتزوجهن عندما نكبر. لكن يجب أن نتنبه من أمهن والجيران».

رفعاني لكي يضما عيني اللتين لم تكونا ترمشان إلى مستوى الثقب.

«البنات لسن في الحوش، انظر إلى الشباك الثاني من اليمين».

لم أتمكن من رؤية أي شيء ولكنني تخيلت يسرى كما كانت في الأيام الخوالي: تسرِّح شعرها، تتشاجر مع أخواتها وتساعد أمّها في جلي الصحون.

قال وسيم: «علينا أن نذهب عند التلال على الحدود حتى نلملم أشياء أكثر، لم أستطع أن آخذ اليوم الكمية المطلوبة». لم يكن بإمكاني سماع كلِّ شيء لأنهما كانا يتكلمان أثناء البصبصة من ثقوب الجدار ووجهاهما يلتصقان به. لكنني أعرف أنهما يتحدَّثان عن جمع قطع الحديد من الخردة ثم بيعها. كانا يفعلان ذلك لمساعدة أهلهما، سيما وأن توفيق توقف عن العمل في الأنفاق. ثم أخذا يتجادلان: «ولك قوِّ قلبك ولا تَخَفْ، ذلك المكان أحسن مكان فيه خردة. ثم يا غبي غدًا السبت، يعني الجنود محرَّم عليهم أن يقتلوا أحدا. أشارطَكْ أن خالد لا يخاف أن يذهب هناك، ولو استطاع أن يقف على رجليه لذهب هناك مثل الطلق».

ردَّ توفيق: «والله أنت الغبي وَلَه. تذكر القصف في السنة الماضية. هل نفعنا سبتهم ابن الحرام؟ هل جعلهم يوقفون القصف؟ أم أنهم ظلوا يقصفوننا ليل نهار؟»

«القصف مختلف».

«أنا ذاهب للدار ومن الأفضل أن تأتي معي. ويجب أن نرجع خالد ونسلمه لأمه».

ردَّ وسيم بنبرة استعطاف جدية: «يلّا يا توفيق، الله يخليك يجب أن أذهب. أمي تعتمد عليَّ كثيرًا هذه المرة».

أخذت ذاكرتي تنتعش وسط ما اكتنف جسدي من صمت. راحت تحضرني تفاصيل كنت لا أذكرها. تذكرت يوم وُلِدَت رِتْشَلْ وكيف فاضت عينا أبي بالحبِّ عندما حملها، ثم يوم عيد ميلادي الذي مادت فيه الأرض وانهارت الأبنية وبابا... صرخ في رِتْشَلْ كي تركض بعيدًا عنه. كانت تتشبث بساقه فركلها بعيدًا قبل أن تقصم الحيطان الإسمنتية ظهره فتنهار وتسحقه تحتها. فرَّت رِتْشَلْ راكضة وهي تبكي وتتشبَّث برجلي. وبعدها انطوت على نفسها ولم تفعل شيئا في الحياة سوى مصِّ إصبعها. حتى جاءت نور ومعها موسيقى وكتب وضوء من مكانٍ آخر.

جلست رِتْشَلْ مع نور بينما كان الطبيب يفحص أمَّها خلف الستارة. لم تكن تثق بالأطباء أو بأي شخص آخر يغرِز حقنا في أذرع الصغيرات أو أردافهن. هناك في أعلى ساعدها ندبة دائرية تذكِّرها دوما بطبيب غرز هناك حقنة وكذبة، قال إنها لن تؤلم. تحسَّست رِتْشَلْ ذلك الموضع ثم تركت مقعدها وجلست في حضن نور.

لم يتكلَّم الطبيب كثيرًا خلف الستارة. ولمَّا كانت رِتْشَلْ قد هيأت نفسها لسماع بكاء أمها من الحقنة، تعجبت لأنها لم تسمع أي صوت. جاءت أمها متعبة، لحق بها الطبيب، مد يده إلى جيبه وأخرج كيسًا من ملبَّس اللوز وأعطاه لرِتْشَلْ. شكرته وغيَّرت رأيها في الأطباء.

تكلَّم الكبار فلم تفهم تماما فحوى كلامهم، لكن نتفًا منه استقرت في ذاكرتها. وحين يحين الوقت بعد سنوات، ستنفض الغبار عنها لتفهم ما استغلق عليها في ذلك الحين. قالوا إن الحصار الذي سمعت عنه كثيرًا، والذي فرضته إسرائيل، كان قاسيًا. وبينما كانت هي تمصُّ اللوز وتلعق أصابعها، قال الطبيب

إنها «نفدت» ثم فتح الخزانة التي كانت رفوفها شبه فارغة. «ليس لدينا حتى...»
لم تفهم رِتْشَل الكلمة التي قالها الطبيب. لكن ماقاله عكَّر وجهه، ففهمت أنه، ومهما كان معناه، أمر مهم. كما قال إن من الأفضل «استئصالهما»، وأن على أمها أن تعتبرهما «مجرد قطعتين من اللحم»، وأن العملية ستمنحها سنة كاملة. فكَّرت رِتْشَلْ بقطع اللحم وتخيلت قطعا منَ لحم الخروف الشهية. مدت عنقها لتهمس في أذن نور: «هل يمكن أن نشتري سندويشات شاورما لحم ونحن راجعون إلى الدار؟»

ودون أن تفهم النظرة التي في عيون أمها، أحست بالفطرة أن عليها الذهاب والجلوس في حضن أمها وسؤالها: «ماما، هل يمكن أن نشتري سندويشات شاورما عند العودة؟»

«طبعًا».

أقلَّتهن سيارة الأجرة إلى عربة أبو العبد بجوار الشاطئ. قضين هناك بضع لحظات هادئة تناولن فيها وجبتهن الخفيفة على أنغام الموج قبل أن يتَّجهن صوب المخيَّم.

عندما اقتربت سيارتهن من المخيم كان في هرج ومرج. وجوه أهله مشحونة بالخوف والغضب والحنق، والكثيرون يتراكضون هنا وهناك على غير هدى. وضعت ألوان يدها على قلبها وقالت: «لطفك يا رب! من المؤكد أنه شهيد جديد». تضرَّعت إلى الله أن يلهم أمه الصبر والسلوان ثم قالت: «يا ويلي علينا! لم يعد لدينا وقت في حياتنا لنفعل أي شيء. لم نعد قادرين على عدِّ جنازات الشهداء وبيوت عزاء أهاليهم المنكوبين».

عندما نزلن من السيارة بدا واضحًا أن الناس يركضون باتِّجاههن. صاح أحدهم: «أم خالد!» هرولت ألوان تاركةً قلبها ورِتْشَلْ على الأرض لتلتقطهما نور.

نادى أحد الصبية: «عمتو أم خالد! كنا نبحث عنكِ». صرخت زوجة أحد إخوانها: «ألوان. الحقي ابنك». طار قلبها من صدرها على الفور وبدأت تركض

في أعقاب الصبي. حاول بعضهم إيقافها ثم جدُّوا خلفها بالركض وهم يهتفون: «الله أكبر!» كأنما ليفعلوا شيئًا في لحظة لم يعد فيها ما يمكن فعله. ركضوا وراءها وهم يناشدونها أن تتوقف.

لكنها ظلَّت تركض حتى انقطع نفسها. قطعتا اللحم على صدرها، الممتلئتان بأورام تقتلها قتلًا بطيئًا، تلهثان في حمَّالة صدرها المرتخية. انهمرت الدموع على وجهها، ثمَّ سمعت امرأة خلفها تقول بسخط: «لماذا الكل خائفون لهذه الدرجة على هذا الولد وهو ميت من زمان؟ لا شيء فيه يعمل غير النفس وهو يجلس على كرسيه بين الحياة والموت. هذه العائلة ملعونة، هو السبب في استشهاد توفيق، هو السبب. لو لم يكن معهم لركضوا بسرعة وهربوا من الموت».

توفيق استُشهد. تابعت ألوان جرجرة نفسها بأنفاس متقطعة وهي تكاد تخرُّ على الأرض. خالد هو السبب. تابعت ولم تتوقف. جالس على كرسيه بين الحياة والموت.

«الله أكبر»، صدح غضب الناس بتكبير لا يتفق مع إيقاع رئتيها اللاهثتين وقدميها المتعثرتين. العائلة كلها ملعونة.

أبصرته أخيرا، هناك في البعيد. كان الظلام قد بدأ بالهبوط. «أم خالد، لا تقتربي وإلا والله يطلقون النار عليكِ لتتيتم ابنتك. بجاه الله ومحمد طولي بالك يا امرأة. أولاد القحبة وكأنهم في لعبة يتسلون بقتلنا. اصبري حتى الليل، بعد نصف ساعة سينشغلون بتغيير المناوبة، عندها نسحبه ونخرجه إن شاء الله أما الآن فالخطر شديد».

كانت تستطيع رؤيته من بعيد. بدا مسربلا بالسكينة وكأنه مجرد صبي قعيد على كرسي بعجلات يتأمل صفحة الأفق لحظة الغروب في أي مكان من العالم. كانت الحجَّة نظميَّة طريحة الأرض تلطم وتصرخ على مريم وتسألها لماذا عاد الكساح إلى رجليها من جديد.

«لماذا الكل خائفون لهذه الدرجة على هذا الولد وهو ميت من زمان؟»

استدارت ألوان نحو المرأة التي تابعت نفْث سمومها: «هو السبب في استشهاد توفيق!»

مات توفيق. صفع رجلٌ تلك المرأة. كان ذاك زوجها الذي راح يتلو آيةً قرآنية بصوت غاضب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ».

كيف؟ لماذا؟ هل مات توفيق حقًّا؟

نفضت ألوان أخيرا الصدمة عن عاتقها ودفعت جموع الأهالي حتى تتمكن من الوصول إلى ابنها. ولما سقطت مغشيًّا عليها قبل وصولها إليه حمدوا الله من أعماق قلوبهم.

أما رِتْشَل فكانت نور تحميها بدروع من يديها وصدرها. لكنها طفلة من أطفال هذا العالم الدموي، فهمت بما فيه الكفاية، فتكورت على نفسها، مصَّت إصبعها، ثمَّ خدَّرت حواسها حتى لا تلتقط ما يجري من حولها.

خالد

«لم أرَ من قبلُ جنودًا يُغوون الأطفال للدخول
في المصيدة كالفئران ثم يقتلونهم من أجل التسلية.»
كْرِسّ هِجْز

ثم طفقنا نسير، وبين الفينة والأخرى يتوقف صاحباي كي يرغما عينيَّ على الرمش، بأصابعهما تارة أو بتنقيط القطرة تارة أخرى. سرنا هكذا حتى وصلنا إلى تلال الرمل المحظورة. كان في تلك المنطقة قبل سنوات حي كبير بسكنه الآلاف، لكن إسرائيل هدمته لأجل توسيع المنطقة العازلة. ولهذا كانت هناك كميات كبيرة من قطع الخردة الحديدية التي يسيل لها اللعاب.

وسيم محقٌّ فيما قاله، فلم أشعر بالخوف. لكن بعد مدَّة كادت عيناي أن تحترقا، فقد غفل صاحباي عن تقطيرهما وسط الانشغال في جمع أكبر كمية من الخردة على عجل.

ركَّزت كل جهدي في تحريك جفنيَّ حتى أنني حاولت استدعاء سليمان لمساعدتي. لفَّ العالم سكون مذهل لم يتخلله سوى حركة وسيم وتوفيق المتعجلة. إنه صمت المنطقة العازلة والكثبان الرملية. فجأة، علا صوت كأنه حصاةٌ ضربت سطح مياه راكدة. رغم الغبش الذي بدأ يستولي على عينيَّ، ميَّزت من أطراف البصر لحظة سقوط توفيق. ندَّ منه صوتٌ واهن وكأنه عطسة ولا أظنُّني سأنسى ذلك الصوت أبدا. سمعت وسيم يركض على الفور، أصوات أنفاسه وقفزه المرتبك بدَّدت الصمت الرهيب. بدأ الخوف يتسلل إلى نفسي.

الموت نائم في الكثبان ونحن أيقظناه من سباته. ارمشا! ارمشا! لعنكما الله! ارمشا! سليمان، ساعدْني! ثم سقطت حصاة أخرى في المياه الراكدة.

ارمشا، لعنكما الله!

صاح وسيم: «أنا ذاهب لأحضر من يساعدنا».

ارمشا!

حل الليل ولفَّ جسدي بغطاء من جليد. ثم رمشت، وأخيرا! بعدها وجدت نفسي في صحراء تنداح أمواجها صوب درب مألوف. نهضتُ من مقعدي، عرفت أين أنا وأين يجب أن أذهب. مشيت فوق ذلك الدرب، انطلقت من التجاعيد الصغيرة فوق الأذن اليمنى، صعدت وسرت في منعرجات الجبين، ثم هبطت المنحدر المستدير إلى الجانب الآخر من الرأس. مشيت ومشيت فوق صحراء لم تكن سوى وجه ستي المتغضن حتى وصلت زاوية عينها اليمنى فجلست فوق نقطة الحبر منتظرا. جاء أبي، وجدو عطيَّة، وجدّو ممدوح، أخو جدتي. كنت أعرف أنهم سيجيئون، ثم مشينا معًا إلى بيت دراس. جلسنا جانب النهر وتحدَّثنا، ثم أبصرنا ثلاثة خيَّالة يتقدمون نحونا. لمَّا اقتربوا أدركت أن توفيق بينهم فقفزت نحوه مسرعا. «خالد، لن تصدق هذا! هذا أبو سيدي وهذه الخيل كانت لأهلي في بيت دراس!» كان جدو وجدّو ممدوح يعرفونهم جميعًا فذهبنا وإياهم لزيارة بيتهم في بيت دراس. تركنا النساء وراءنا عند النهر. التفت إلى الخلف مرَّةً أخرى. ليس من أثر لمريم. ولكن عند مرورنا ببئر بيت دراس سمعت من همَس باسمي. أطللت، فرأيت مريم متكورة في فجوة داخله. بدت أمارات الخوف على وجهها، همستْ دون أن تحرك شفتيها: «قل لأختي نظميَّة أن تأتي وتبحث عني».

(51)

حينما كانت أمي ما تزال ترتدي النقاب، اقتربت منها امرأة أجنبية في السوق وتحدثت معها بأدب جمّ. شرح لها المترجم الذي يرافقها أنها كاتبة نسوية تعدُّ مقالا عن النقاب، وعرَّف النسويَّة بأنها كفاح لأجل حقوق المرأة. ابتسمت المرأة كقديس ولمست ذراع ماما كأنها المسيح المخلِّص ثم قالت: «أرى عينين أخَّاذتين بل آسرتين وكم أتلهف لرؤية ذلك الوجه الرائع الذي أعرف أنه يليق بمثلهما». فما كان من ماما إلا أن تركتهما في حالهما ومضت دون أن تنبس بكلمة. كانت تدرك ببصيرة نفَّاذة مقاصد الناس الخفية. ولهذا لم أستغرب عندما همست ذات يوم في جسدي العاجز: «اسمع يا بني، إن كانت الملائكة تناديك فلا تظل هنا من أجلنا فقط. لا تخَفْ يا حبيب قلبي وروحي لأننا سنكون بخير». وحين تملكها الرعب خوفا من أن أُقتَل فوق الكثبان الرملية، أدركت عندما حانت لحظة رحيلي أن ذلك كان لأنها أرادت لي رحيلا وفق شروطي أنا. وربما كان ارتداءُ النقاب وخلعُه فيما بعد هو طريقتها في العيش حسب شروطها.

عندما استردت ألوان وعيها كان من حولها قد تمكنوا من إنقاذ خالد. لكن أهل المخيم كانوا ينتظرون على أحر من الجمر معرفة أخبار ذاك الصبي المحبوس في جسده الذي وقع في واحدة من مصائد القتل في غزة. حاول وسيم وتوفيق رغم إصابتهما الزحف طلبا للنجاة، لكن لم يتمكن سوى وسيم من الفرار والنجاة من الموت. أما خالد فقد تركه الجنود على حاله، لكنه ظل في مكانه ساعتين قبل أن يتسنَّى للمنقذين الاقتراب من كرسيِّه وسحبه إلى بر الأمان. حاول ممرضان دخول المنطقة العازلة، لكن الجنود أمطروا سيارة الإسعاف بالرصاص فرجعا من حيث أتيا. أسقط في أيدي الناس وعجزوا عن فعل شيء سوى مراقبة ما يجري. لكنهم شعروا بشيء من الطمأنينة، فلو كان

القناصة يريدون قتل خالد لكانوا قد فعلوا. على أن ما لم يأخذوه بالحسبان هو أن عيني خالد كانتا تجفان وتحترقان.

ما قالته تلك المرأة القاسية كانت أصداؤه تتردد في جنبات المخيم. فقد ظن كثيرون أن الموت أرحم لذلك الصبيِّ مما هو فيه، خاصة وأنه أصبح الآن فيما يبدو ضريرا. لكن ظنون الناس تغيَّرت، إذ لم يفهم أحد منهم أبدا كيف أفلت خالد من قبضة الموت في ذلك اليوم. فهو ليس أكثر من مجموعة أنابيب تصل جسده بأكياس تغذيه وتجمع فضلاته، كما أنه عاجز عن الحركة أو الكلام، وربما أصبح الآن ضريرا، بل من الذي يثق في أنه كان قادرا على الرؤية أصلا. اعتقد الأهالي أن الله يحفظ خالد ويبقيه في هذه الأرض لأجل غاية عظيمة. ولكنَّ هناك أيضًا من ظن أن أمه أو جدَّته عقدتا صفقة مع الشيطان، ورجعوا إلى تذكر وتناقل أسطورة سليمان.

لما انطرحت الحجة نظمية أرضا ولم تقو على النهوض حملها أبناؤها إلى بيتها وتذكروا المرة الأولى التي أصيبت فيها بالكساح. في تلك الليلة وبعد مغادرة الكنائن والجيران، جلست الحجَّة نظميَّة وألوان ونور ورِتْشَلْ وخالد معًا فوق فرشات على الأرض. تركوا الصمت والسكون يلفهم جميعا. عينا خالد معصوبتان وألوان تضم رأسه إلى صدرها وتمسِّد شعره. نور تستند إلى الحائط وفي حضنها تنام رِتْشَلْ التي لم تفارق ذراعِيها أبدا. أما الحجَّة نظميَّة فراحت تهدهد نفسها على وقع حبات مسبحتها وساقاها الكسيحتان ممدودتان أمامها.

تنهدت ألوان وتمتمت: «خالد، أتسمعني يا حبيبي؟ يا روح أمك، يا حياتي».

احتضنتها عينا نظميَّة وغمرتاها هي وابنها بالحب. قررت ألوان أن تخبر أمها أنها تنتظر الموت، فخبر كهذا ليس له من وقت مناسب لإعلام الآخرين به، وهذا الوقت مثل غيره من الأوقات. قالت: «يُمَّه... يجب أن يستأصلوا لي الثديين حتى أعيش مزيدًا من الوقت. لكن من الممكن أن أموت خلال العملية». توقَّفت لمسح دموعها وأردفت: «يعني الموت أكيد في الحالتين».

توقَّفت نظميَّة عن هدهدة نفسها. انتصب جذعها واشرأب عنقها في تحدٍ

عنيد لكل تلك الرزايا التي لا تنفك تعبث بمصائرهم. استعرت جحيما ثائرا بعناد ضد القدر، ضد ما كُتبَ عليهم من حياة أشبه بحفرة مرحاض يقعي فيها الموت ويفرغ أمعاءه بلا هوادة. قالت: «كلام فارغ! لا يوجد قوة في الدنيا تستطيع أن تأخذك مني. أنا الحجة نظمية، ولن أسمح لأحد أن يقترب منك».

تنهدت ألوان: «أستغفر الله. يُمَّه حرام، لا تفتحي بابًا للشيطان. يجب أن تسلمي بإرادة الله».

«نحن مؤمنون يمّه. اليوم نجا ابننا من الموت، وغدًا يوم آخر، وإن شاء الله كل شيء سيمر على خير. على كل حال الله بفرجها، نامي الآن ودعينا نتوكل على الله ونطلب رحمته ولطفه فينا». لم يكنْ لدى الحجَّة نظميَّة أي طاقة لتحمل خبر كالذي سمعته للتو. بل إنها لم تسمح له بالنفاذ إلى عقلها أو نفسها كأنها لم تسمعه أصلا.

وهكذا تجمعت الحياة والحب والموت والإرادة في بيتهم الصغير، وأنهكتهم إلى أن ناموا سوية على الأرض في تلك الليلة. وفي الصباح استيقظوا بهمة وعزيمة، غمرتهم السعادة لما رأوا أن ساقي الحجَّة نظميَّة استيقظتا معها من الرقاد. أما هي فقالت: «الله لا يبتلي العبد فوق طاقته».

(52)

تكبَّدت نور مجهودا في الإقلاع عن بعض المسلّمات الأميركية في طريقة العيش. فعندما استحمت للمرَّة الأولى في بيتنا اضطرَّت ستي لاقتحام الحمام كي تُقفل الصنبور قبل استهلاكها كامل حصَّتنا من الماء في ذلك الشهر. وبعدها علَّمتها ماما كيف تستحمُّ بغَرْف الماء من السطل ثم جمع الماء للاستفادة منه في أغراض أخرى. كنا نجمع الماء الوسخ ونستخدمه في تنظيف المرحاض. أما

رِتْشَلْ فأرشدتها إلى تدبر شؤون حياتها خلال انقطاع الكهرباء لفترات طويلة. وأخذت ستي على عاتقها تعليم نور أقذع الشتائم ومناسبات كيلها، وكيف تتصدى لتحرُّش الرجال ومضايقاتهم في الشوارع. «إذا قلتِ لهم أن ينصرفوا من وجهك ولم يفعلوا، وقتها تناولي أكبر دبشة من حولكِ، احمليها بكل ما أعطاك الله من قوة واهجمي عليهم كأنك تنوين فعلًا تهشيمها فوق رؤوسهم. طبعا سيعتقدون أنكِ مجنونة، لكن صدقيني لن يجرؤ أحدهم في حياته أن يقترب منك مرّة ثانية». وعلّمتها زوجات أخوالي كيف تزيل شعر بدنها بالسُّكَّر، وبخنها قائلات: «الحلاقة للزلام فقط، وحضرتك يا هانم لستِ زلمه». ولعل أشد الافتراضات الأميركية استحكاما في نفسها هو الاعتقاد بقدرة المرء على التحكم في مصيره عبر ترَّهات مثل الجدِّ في العمل أو حتى ربح بطاقة يانصيب؛ أو بإمكانية التصدي لمصير مجحفٍ بالاعتراض ورفع الدعاوى القضائية. في اليوم الذي أعقب ما ارتُكب من عنف عند الكثبان الرملية، تعلمت نور من ماما وستي، دون أن تدريا، درسًا في كيفية المضي في العيش دون أن تنال منها مرارة مهلكة يفرزها غضب واهن عاجز.

كان جمال منشغلا بالعمل في رفح، ولم يسمع بما حدث لخالد إلا بعد يومين. أخبرته نور وأرسلت له رسالة نصيَّة شرحت فيها ما حدث وطلبت إجازة أخرى من العمل ليوم واحد.

«نور هل من الممكن أن أزوركم اليوم؟»

لم تستدعِ الحجَّة نظميَّة أيًا من أبنائها ليكون في استقبال الدكتور، قالت لحفيدها: «أنت زلمة البيت». قبّلت جبينه وهو معصوب العينين ودفعت كرسيَّه إلى المطبخ حيث انهمكت في إعداد وجبة طعام للضيف، وذلك رغم إصراره على أن زيارته ستكون قصيرة ومخصصة لعيادة خالد.

كانت نور مع رِتْشَلْ، أما ألوان فانضمت إلى أمها وابنها في المطبخ. قالت: «على كل الأحوال هذا ليس مهمًا، أكيد أن زوجته ستأتي معه».

«أولًا، ما ظننت أن الست بلقيس تحب أن تتسخ رجلاها بالقدوم إلى المخيم. إن جاءت فسيكون ذلك لتظل محدقة في وجه زوجها مثل البومة عندما يلتقي نور. وإن لم تأتِ فسيكون ذلك إما لأنه جاء بالسر أو لأنها تعاركت معه بسبب نور فغضب وتركها وأتى لوحده»، قالت الحجة نظمية بشيء من الاعتداد بالنفس لقدراتها التحليلية الباهرة. مكتبة الرمحي أحمد

رحَّبت الحجَّة نظميَّة بجمال عصر ذلك اليوم: «تفضَّل اقعد أهلا وسهلا، حلَّت علينا البركة. أين امرأتك الأميرة يا بني؟ ألم تأتِ معك؟»

اعتذر الدكتور اللمَّاح بالنيابة عن زوجته وابتدع قصة عن مرضها كان الكلُّ يعرف أنها ملفَّقة. لاحظت نور النظرة التي تبادلتها ألوان والحجَّة نظميَّة فغيَّرت الموضوع إلى الحدث الذي هز المخيم. كانت تجد مشقة في فهم تجاوز الناس لما وقع من أحداث جسيمة في اليومين الماضيين بتلك السرعة العجيبة. فهي لا تلمس من الترويع المذهل الذي حلَّ بهم جميعا سوى آثار باهتة على الحجَّة نظميَّة وألوان. حتى رِتْشَلْ أخرجت إبهامها من فمها وأنهت انطواءها على نفسها، ربَّما لما تراه من عودة أمها وجدتها إلى حالتهما الطبيعية. ما زالت مرارة جنازة توفيق عالقة بالطعام الذي يأكله الناس وبالهواء الذي يتنفَّسونه، ولكنهم توقَّفوا عن الحديث عنها. هل هذا تعبير عن القدرة على التكيُّف والاحتمال؟ أم هو الإنكار؟ لجأت نور لعلم النفس: هل هي إحدى حالات «التجزئة»؟ أم أنها نوع من «الانفصال عن الواقع»؟

أخذت نور تسترجع تفاصيل ما جرى، فالحديث عنها ضروري لمحاولة فهمها واستيعابها. لكن الحجَّة نظميَّة قاطعتها بقولها: «الذي صار صار، أما الآن فلنضع مصائرنا بين كفي الرحمن وندعوه حتى يشفي عيني خالد».

امتثلت نور لطلبها واكتفت بالمشاركة في المجاملات الدائرة من حولها. لكنها انسلَّت إلى عالمها الداخلي، إلى ذلك الجزء من نفسها الذي ما زال رازحا تحت وطأة حذاء بالٍ وعقد انفرطت حباته وتناثرت.

أما جمال فجاء متأخرا عن عمد حتى يتجنب الحضور في وقت الطعام.

لكنه لم يستطع الرفض تحت إصرار الحجَّة التي قالت إنهم انتظروه ولم يأكلوا بعد. راقبته نور دون النظر إليه وتحسَّست كل حركاته وما تفوه به. ولمَّا راح يأكل بشهيَّة مفتوحة لم تنتبه لنفسها وهي تسكب المزيد في صحنه على طريقة نساء غزة مع ضيوفهن أو أبنائهن أو أزواجهن. كما لم تلحظ في غفلتها تلك النظرات المتبادلة بين ألوان والحجَّة نظميَّة. تركهم وذهب، لكن حضوره ظل طاغيا في نفسها متحكما بعقلها رغم أنها لم تكن تتذكر أيًا مما دار من حديث. أصبح الوقت بعده شديد الوطأة عليها. انقضت ساعاته في مشاغل روتينية بعد وجبة الطعام: تغيير ومسح وإفراغ لأكياس خالد، التأكد من عدم إصابته بأي التهابات؛ ركوع وسجود في الصلاة؛ تطريز ألوان لتلحق ما فاتها من عمل؛ نور تساعد رِتْشَلْ في واجباتها المدرسية؛ الحجَّة نظميَّة تلتقي صاحباتها في بيوتهن لشرب الشاي وتناول الحلويات وتدخين الأرجيلة.

عادت الكهرباء في الوقت المناسب، مع هبوط الظلام ووقت رجوع رِتْشَلْ من اللعب مع صديقاتها في الخارج. وبشكل آلي وبدون تفكير، وصلت نور وألوان، ومعهن غالبية سكان المخيم، جوَّاليهما بسلك الشاحن. أما بطارية جهاز خالد للتنفس فقابعة في شاحنها تنتظر. كان المسلسل اليومي على وشك البدء والحجة نظمية تهرول إلى البيت لمتابعته. أما عندما يكون البيت بلا كهرباء فإن الحجةً تذهب لمشاهدته في بيت فيه مُولِّد. «أحب أن أتابع المسلسل في بيتي»، تقول ثم تمضي في تعليقاتها على شخصياته. تندب حظ هذا، وتلعن ذاك، وتتمنى وقوع حدث معين لآخر. تصرخ أحيانًا على من في الشاشة، وأحيانًا تضحك أو تبكي، وتستخدم ما يجري من أحداث وسيلةً تعليمية لرِتْشَلْ. «أرأيتِ ما صار؟ هكذا يأخذ الإنسان ما يريد من الدنيا»، أو: «عندما تكبرين على خير وتريدين أن تتزوجي ابحثي عن زلمة مثل هذا». تابعت نور المسلسل إلى أن استلمت رسالة نصِّيَّة من جمال فتحت قلبها على مصراعيه.

«هل يمكننا التحدث؟ أنا ذاهب إلى الشط لأصفي ذهني. أحتاج لصديق ليكون معي».

ظنَّت نور أنه أرسل لها تلك الرسالة بطريق الخطأ. كلا، لم يخطئ. قال إنه في طريقه إلى الانفصال عن زوجته، وإن حياته فارغة من الحب منذ زمن طويل. ما الذي يقوله؟ ولماذا يقوله لنور؟ الحميمية المفاجئة في كلماته أرعبتها وأثارتها في آن واحد. وهنا وجَّهت الحجَّة نظميَّة نصحها إلى إحدى شخصيات المسلسل: «ما تردي عليه! إنه يخونك مع كل شرموطات البلد».

ها هو يقولها في رسالته النصِّيَّة: «هي تعرف أنني أحبك».

حدَّقت نور بجوَّالها وضوء التلفاز يتراقص على الحيطان المعتمة من حولها، ولم تنتبه إلى أن ألوان كانت تراقبها. لم تجبه، فاعتذر جمال بسرعة. قال إنه ظنَّ أنها تبادله نفس المشاعر وإنها جعلته يشعر بالحياة من جديد.

كتبت بيدين مرتعشتين أنها تشعر بما يشعر به ثم محت ما كتبت. كتبت ومحت أنها مشتاقة جدًّا وأنها تريد رؤيته. وهنا جاء منه نصٌّ آخر:

أرجوكِ قولي شيئاً.

أحسَّت نور بأن ألوان تراقبها فذهبت إلى الحمام وكتبت:

لنلتقِ بعد ثلاث ساعات قرب الشط عند تل أمِّ عامر.

تذكَّرت المرَّة الأولى التي أخذها فيها إلى تلك الآثار القديمة لدير القديس هيلاريون. ذلك الدير الذي ظل قائما دون أن يتهدم من زمن الإمبراطورية الرومانية إلى العصر الأموي في القرن السابع. كانا قد توقَّفا عنده للغداء بعد زيارة بعض المرضى، وحدَّثها جمال حينها عن خمسة آلاف سنة من التاريخ.

كان المسلسل قد انتهى منذ مدة فتابعوا في تلك الأثناء فيلما مصريا لكن الكهرباء داهمتهم بالانقطاع من جديد. لم ينزعجوا كثيرا، فرِنْشَلْ تغطُّ في سبات عميق كما أن النعاس يداعب أجفان ألوان والحجَّة نظميَّة.

مضت ساعة أخرى صرفتها نور في أحلام من اليقظة أشعلت فيها العتمة برغبة لا تطاق وشوقٍ لا يلين. رفعت طرف اللحاف بهدوء، بدأت تنسحب للنهوض ولكنها بوغتت بيد ألوان تقبض على معصمها. همهمت بصوت ناعس: «حبيبتي، البحر بقدر يستنى».

انتظرت نور إلى أن خيَّم الهدوء على الغرفة من جديد ثم انسلَّت بصمت. مرت بفراش الحجة نظميَّة وشخيرها وهي في طريقها إلى الباب. دفعته فأصدر صريرًا خافتًا. تجمدت في مكانها حتى عادت إيقاعات الليل في البيت تسري دون صوت نشاز. خرجت وتلفَّعت بعتمة الليل. لم تكن نور قد عرفت في حياتها ظلامًا حالكًا لا يبدده شيء مثل ظلام غزة. ففي أماكن أخرى، حيث ينتشر الضوء في أي لحظة بكبسة زر، تكون الشوارع مضاءة على الدوام. يتسلل الضوء من شبابيك غرف نوم السهارى المؤرَّقين. من محلات البقالة التي تعمل على مدار الساعة. من أعمدة المصابيح على الشوارع الرئيسية. في أماكن مثل تلك لا يمكن العثور على ظلام دامس بمثل حلكة ظلام غزة. ذلك الظلام لا يتأتى لمجرد غياب الضوء، بل لحضور شيء غير مرئي يقبع متربصا تحت كل مسامات الحياة. أما هنا فلا القمر ولا النجوم الساطعة بوسعها أن تضيء أكثر من دائرتها الضيِّقة في هذا الظلام الدامس. مشت نور فيه. لوعة رؤيته خلال النهار، والشعور بالوحدة والرغبة باتت تعرش على جدران العتمة لترشد خطاها. تعالت موسيقى تلك الليلة من تموُّجات البحر الصاخبة، صرير الصراصير، هرولة القطط وراء الفئران، ووقع خطاها. ظلَّت تمشي إلى أن عرفت أين هي. ليس بعيدا إذًا، في مكان ما من هذه العتمة الجميلة سيكون جمال بانتظارها. ذهبت إلى المكان الذي تناولا فيه غداءهما ذات مرة. كان القمر يتراقص فوق سطح البحر وعلى بعض الآثار الدارسة. مشت إلى أن سمعت خطوات غير خطواتها. توقفت، ثم تحرَّكت فسمعتها ثانية وقدَّرت أن جمال خلفها. قال: «نور، خفت ألا تأتي».

وقع الكلمات كان متطفلا سمجا، فصمتا وتركا الكلام للغة الجسد. لهث الظلام وتقطَّعت أنفاس نور. أحست برحيق فمه وبشفتيه تتسللان إلى رقبتها. هاجت أنفاسهما بحريق كأنه اللظى. شعرت بنهديها عاريين فوق صدره فعبَّت من عبق بدنه ملء رئتيها. وعندما عبر إلى جسدها المحتدم رغبة وشوقا، ندَّت منها شهقةٌ صغيرة إيذانا بلحظة عثورها على وطن.

خالد

«وهكذا سيتحوّل الظلام إلى نور والسكون إلى رقص.»

ت. س. إليوت

أغلقوا عينيَّ في ذلك اليوم، فلفَّني الظلام كالبطانيَّة في الشتاء. ظننتها النهاية وأنني لن أستطيع العودة ثانية إلى الجسد الساكن فوق الكرسي. ولكني كنت قادرا على سماع ماما وهي تتكلم عن مرضها وعن الخوف والحب. أعتقد أنها هي الأخرى لن تمكث هنا لأجل طويل. فقد أصبحت الآن تجلس على الأرض وتلعب مع رِنْشَلْ لساعات طويلة، ولم تعد في عجلة من أمرها كما كانت في السابق. فلو لم تكن مقبلة على الموت، لصفعت نور عندما حدَّثتها عن ذلك الرجل المتزوِّج وما فعلاه عند الشاطئ. اضطرت نور لإخبارها لأن ماما عرفت بخروجها بعدما استيقظت في الليل ووجدت باب البيت غير مقفل بالمفتاح. لكنها لم تصرخ في وجه نور، ولم تخبر ستي، ولم تتَّهم نور بتخريب البيوت أو تصفها بالعاهرة. بل اكتفت بالقول إنها أنانيَّة ولا تهمُّها حياة الآخرين مثل كلِّ الأمريكان. ثم أمسكت عن الحديث معها لأيام، ولما كان يتعذر عليها أحيانا أن تتحاشاها كانت تخاطبها بلهجة جافَّة.

طلبت نور منها السماح، لكن ماما رفضت بشدَّة. كانت قد انتظرت عودة نور، فلم تعد إلا قبيل شروق الشمس بقليل. كنت أشعر باليأس ينمو داخل نور كما ينمو السرطان داخل ماما، وكانت الاثنتان تلجآن إليَّ للفضفضة عما بداخلهما. أصبحت وبلا قصد منهما مستودع أسرارهما ومخاوفهما الصامتة.

كنت الجليس الذي ينصت بتفهم تام وبلا مقاطعة أو إطلاق للأحكام. قالت نور: «ما أحبني أحد في حياتي مثل ما أحبني جمال». وقالت ماما: «الأميركان يتعلمون من صغرهم أن لا يفكروا بأحد إلا بأنفسهم وبس». كانتا تفتحان مغاليق قلبيهما لي أثناء تغيير أكياسي وتنظيف أنابيبي، أو مسح لعابي وبرازي، أو معالجة تقرحات جسدي لطول قعودي أو استلقائي على ظهري.

ماما لم تعتبر نور عديمة الأخلاق. وسواءٌ أحبت ذلك أم كرهته، فإنها تظل ابنة أمها فيما يخص هذه المسائل. ولهذا لم يكن بمقدور ماما تجاهل الدرس القاضي بأن من يخونون زوجاتهم هم من يخربون بيوتهم لا عشيقاتهم. لكنها اعتبرت نور أنانيَّة لأنها لم تكلِّف نفسها عناء التفكير في ما لأفعالها من عواقب على سائر أفراد العائلة. وتحديدا، على رِتْشَلْ لأن ألسنة الناس لن ترحمهم وسيشيرون إليهن ببيت العاهرات. كما سيلام إخوتها ويوصمون بالعار لحملهم على تطهير شرفهم مما لحق به. قالت لي: «أنا داري يا بني، الكل سيتأذى من هذا الموضوع»، ثم تنهّدت: «ومن أجل ماذا؟» قاطعها السعال فصمتت. ثم قالت: «رحمتك يا رب! يا الله بحق السما وجاه محمد أن تحفظ أولادي». تمترست ماما هناك إذًا، في الجانب المعقول للأمر حيث تخطط وتدعو وتقلق. شغلت نفسها بمتطلبات الخوف وأشد تفاصيله تفاهة.

أما نور فكانت كنبتة هجينة لم تضرب جذورها في أي أرض، عواطفها فجَّة وضياعها أكيد. لم أر أحدًا يعاني من وحدة قاتلة مثلها. كانت تصيبني بعدواها فأضطر إلى تركها وحيدة لتتكلم إلى جسد خاوٍ. تحاشاها الدكتور وامتنع عن الكتابة لها أو الرد على مكالماتها، فمادت الأرض بها. شعرتُ بلوعة قلبها وبتلك اللجة من الدموع المحتبسة في صدرها بلا قرار تشفطها عميقا إلى داخل نفسها. دفعها إعراض ماما عنها إلى البعيد الذي لا يمكن الوصول إليه. مَن ذا يصدق في غزة أن هذه المرأة التي تملك أسباب كل شيء: القدرة على السفر حيث تريد، حرِّية العيش بأمان، الحصول على ما تشتهي من التعليم، العمل وكسب ما يكفي لحياة كريمة، التمتع بالصحَّة وبمستقبل واعد، يمكن أن تعاني على هذا النحو غير المفهوم؟

أفصحت لي رِتْشَلْ عن مكنون صدرها هي الأخرى: «نور حزينة لأن ماما زعلانة منها». وأخيرًا أمسكت ستي بذراع كلٍّ منهما وقالت بلهجة آمرة: «أقعدن هنا واحكين لي بالتفصيل عن خربان البيوت الذي بينكن وإلا والله العظيم لأشلح صرمايتي وأقطعها على جلودكن».

أما أنا فتركتهن. جاء سليمان وذهبنا سوية إلى النهر. انتقلت مريم من الفجوة داخل البئر إلى الكوة خلف جدار بيتنا القديم في بيت دراس. بعدها مكثت أنتظر رفع العصابة عن عيني حتى أنقل رسالتها إلى ستي نظميَّة.

أزيلت اللفافات والأشرطة اللاصقة عن عينيَّ بلا أي حفاوة. كنا في العيادة ثلاثة فقط، أنا والممرضة وماما، هكذا أرادت لهذه المناسبة أن تكون. قالت الممرِّضة إن عينيَّ لم تموتا، ولكنها لا تدري إن كنت قادرا على الإبصار بهما. طلبت مني أن أرمش، ففعلت. غطَّت إحدى العينين ثمَّ الأخرى، وطلبت مني أن أرمش إن كنت أرى يدها.

قالت: «الحمد لله، لا يزال يستطيع الرؤية بعينه اليمنى».

فسألتها ماما: «وعينه اليسرى؟» فردَّت عليها بأنها تعتقد أن اليسرى عاجزة. لكنَّها طلبت من ماما أن تتوكل على الله، ثم تساءلت إن كان ذلك مهما في الأساس.

لم تقل ماما شيئًا وغادرت. دَفَعَت بي إلى الخارج فضربني وهج النهار رغم نظارتي الشمسية. عدت لحظتها لأقبع مرتاحا في الظلمة خلف عيني.

(53)

كلنا لنا بشرةٌ داكنة وشعرٌ أسودُ جعد، لكن أختي كانت أشدنا اسمرارا وأجعدنا شعرا وأكثرنا برهنة على ما لنا من أصول إفريقية. كان بعضهم يناديها بـ «العبدة» تحببًا، يقولون «العبدة الحلوة»، وقلما اعترض أحدٌ على هذه التسمية. لكن نور لما أتت اتَّخذت موقفًا صارما ضدها، حتى أن ستي ورغم ما لها من إرادة لا تكسر انصاعت لأمر عدم استخدامها مطلقا. كانت تلك واحدة من المرات التي كان فيها منطق نور الأمريكي سديدا، فغيرنا وجعلنا أفضل من ذي قبل. ولو سمعت ستي فيما بعد وهي تهدِّد وتتوعد من يستعمل تلك الكلمة لظننت بأنها لم تستخدمها في حياتها أبدا. كانت نور تفتح حاسوبها وتعرض على رِتْشَلْ صور ملكات وآلهة إفريقيات من بلاد مثل مصر وزنجبار والغابون، فبدأت رِتْشَلْ تحلم بتلك الأماكن البعيدة وأهاليها الذين يشبهونها جميعا.

كانت الجمعة يوم العطلة المدرسية وتنظيف البيت كله والصلاة في المسجد وأفضل المسلسلات التلفزيونية. لكن لهذه الجمعة نبضًا مختلفًا، إنه وئيد لطيف. استيقظت رِتْشَلْ قبل غيرها، أعدت قهوةً مرّة لأمِّها ولنور، وبسكر زيادة لستها. كانت رتشل لا تحتمل طعمها المر، ولكنها تحبُّ رائحة القهوة المطحونة والمغلية للتوِّ.

وضعت الصينية وفوقها فنجانَيْ القهوة على الأرض بين أمها ونور. كانتا تنامان على فرشتين متجاورتين، أما ستها فتشخر في الزاوية الأخرى من الغرفة.

هزَّت أمَّها أوَّلاً ثمَّ نور وطلبت منهما الاستيقاظ.

لمّا استفاقت رِتْشَلْ من نومها كانت عازمة على إسعاد أمها ونور، فقد بدتا حزينتين جدا ليلة أمس. لقد حاولت قبل أن تنام التقاط الهمهمة الدائرة في الغرفة المجاورة، لكنها لم تفهم سوى أن ستها لم تكن راضية عن أيٍّ منهما، وأن لا طاقة لها على العيش في بيت لا يكلِّم أهلُه بعضهم بعضًا.

قالت نور: «آه يا رِتْشَلْ ما أحلاكِ! ما الذي سأفعله في حياتي من غيرك؟ يسلمو إيديكِ يا عيوني، بعمري لم أستيقظ على فنجان قهوة أطيب من هذا الفنجان».

كانت تلك الكلمات من أجمل ما سمعته رِتْشَلْ في حياتها إلى أن جذبتها ماما وقبّلتها على خدّيها المكتنزين وقالت: «أنا أحب هذه البنت أكثر من أي بنت في العالم».

فقالت الحجّة نظميّة باسمةً: «الله يسترنا من كل هذا الحب!» ثم تظاهرت بالزعل: «وأين قبلاتي أنا؟» فقفزت رِتْشَلْ وغمرت ستها بوابل من القبلات.

«سأحضر خالد ليكون معنا ونحن نشرب قهوتنا»، قالت ألوان وهي تجد صعوبة في الوقوف. لاحظت رِتْشَلْ أن الصفير الذي يصاحب تنفُّس أمّها صار أعلى. ولمّا التقطت الحجة نظمية تلك السحابة التي غشيت عيني حفيدتها قالت: «رِتْشَلْ يا ستي قومي أحضري لكِ كوب حليب وتعالي اشربيه معنا».

تبادلن أحاديث الصباح وهن جالسات على الفراش الممدود أرضا. رِتْشَلْ تحتل حضن ستها، ونور تحتسي قهوتها بجوارهما، بينما تنشغل ألوان بتغيير ملابس خالد وترتيب أموره. وعندما كانوا جميعا في الغرفة قالت رِتْشَلْ: «من زمان كنت أريد أن أريكم شيئًا». عدّلت رأس خالد لتكون في مرمى بصره وقالت: «هل ترى جسمي كله يا خالد؟ ارمش»، رمش خالد مرَّة واحدة. تردَّدت رِتْشَلْ للحظة وقالت: «ارمش مرَّتين حتى أتأكد أنك لم ترمش رمشة عادية»، فرمش مرَّتين بعينه السليمة. فرحت رِتْشَلْ ثم كوَّرت نفسها وأخذت تتشقلب على أرض الغرفة. ثم اعتدلت وأدَّت بإتقان حركة العجلة الجمبازيّة، شقلبت جسدها جانبيا فحطَّت على ساعديها ثم هبطت على رجليها في دورة جانبية كاملة.

«ما رأيكم، أعجبتكم؟ ظللت أتدرب طول الأسبوع الماضي. إحدى صديقاتي علمتني إياها». صفَّق الجميع لها، فصعدت إلى حضن خالد وطبعت قبلة على شفتيه: «هل أعجبك يا خالد؟» فرمش بعينه مرات كثيرة، فازدادت

ابتسامتها اتساعا. ثم نزلت وحشرت نفسها بين ألوان ونور لتشرب كوب الحليب. تظاهرت بأنه فنجان قهوة، احتسته وهي تشعر بالرضا لأنها نجحت في طرد الحزن عنهم جميعا.

(54)

في إحدى المرات، وقعت إحدى صاحبات ستي من أيام بيت دراس فريسة للمرض. كانت تلك الختيارة التي لم تنجب البنات بحاجة ماسة إلى الرعاية. لكنها رفضت رفضا قاطعا الانتقال للعيش مع أيٍّ من زوجتي ابنيها لأنهما «كلبتان» على حد تعبيرها. وعندما حاول ابناها إجبارها على الانتقال وبَّختهما ستي وعابت عليهما، حتى أنهما عندما انصرفا كادا يبكيان خجلا ثم عادا لاحقا ليقبِّلا قدمي أمهما. تركتنا ستي وذهبت للعيش معها حتى تعتني بها، فطبخت لها الطعام وحمَّمتها ونظفتها بعد قضاء الحاجة. كلتاهما كانتا تعلمان أن أيام تلك المسكينة معدودة، لكن ستي بقيت إلى جانبها حتى النهاية. كما كانت بعض من كن في صباهن يغسلن غسيلهن عند النهر في بيت دراس، ومن أصبحن جدات أو أمهات لجدات يأتين يوميا ويتحلقن حول سرير صديقتهن في آخر أيامها. يجلسن ويتذكَّرن الأيام الخوالي «أيام السعد»، ثم يندبن حظهن: «والله لم يكن على البال ولا على الخاطر أن نموت هكذا! لاجئات مسخمات». وعند انصراف سمع صاحبتهن العليلة بعيدا عنهن، كنَّ يستغبن «الكلبتين» وزوجيهما اللذين كان كل واحد منهما على استعدادٍ لـ «بيع أمه من أجل تبع مرته!» وبالطبع، لم تكن صاحبة هذه التعليقات سوى ستي، فيضحكن كلُّهن ويتلذذن بجرأة صاحبتهن كما كان حالهن دائما.

ظل المرح الذي شهده صباح تلك الجمعة العادية يتراقص طيلة ساعات النهار على إيقاع اللحن الذي بدأ به. وبعد الاستعراض الجمبازي الذي أدته رِتْشَلْ، انهمكت نسوة البيت في تقشير وتقطيع ونقع مكونات طعام الغداء، ثم ذهبن إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة. وفي طريق العودة إلى البيت الذي سيكتظ لاحقا ببقية العائلة الكبيرة، داهمت ألوان رغبةٌ في «الكزدرة» على شاطئ البحر.

تملكت السعادة رِتْشَلْ، ركضت جيئة وذهابًا على الشاطئ. كررت استعراضها الذي أدته في الصباح، فتابعته النسوة الثلاث وموج البحر يداعب أقدامهن. جلست الحجَّة نظميَّة ومدَّدت ساقيها على الرمل ثم لحقت بها ألوان ونور. وبين الفينة والأخرى، تركض رِتْشَلْ إلى خالد فتعدل رأسه لتبقى في مجال بصره أثناء لعبها.

«كان أخي الله يرحمه، سيدك يا نور، يحضرنا دائمًا إلى هنا عندما كنا نعيش في بيت دراس»، استهلت نظمية الحديث وعيناها تسبحان في الأفق: «لا أدري لمَ أحسسنا أن البحر سيتغير بعدما صرنا لاجئين. ربما اعتقدنا أنه صار هو الثاني لاجئا مثلنا. كنت أنا وأخي حبيبي ممدوح فقط. جئنا هنا وكزدرنا ونحن نشبك أيدينا مثل العُشّاق. ممدوح استحى». ضحكت وأشارت إلى بعيد بيد طافحة ببقع الشيخوخة: «في ذلك اليوم اكتشفنا أن إحدى رجليه فقط كانت تكبر أما الثانية فتوقف نموها». وهنا استرجعت نور وقع أنغام مشية مترنحة لختيار.

أنصتت نور وألوان بهدوء لذكريات الحجَّة نظميَّة. «كان زلمة ولا كل الزلام، يعيل ويحمي ويعتني بالكبير والصغير. الله يرحمه قديش كان مليح. مثل الذهب العصملّي إن كان أخًا أو ابنًا أو زوجًا أو أبًا أو جدًا». التفتت الحجَّة نظميَّة نحو نور بعينين مبلَّلتين رقيقتين: «كان يحبك بحجم الدنيا وأكثر. كنتِ صغيرة وربما لا تذكرين أنه أعطى أمك الذي فوقه وتحته من أجل أن يبقيكِ معه. ولما مرض كان قد اشترى تذاكر السفر لكما بنية الرجوع إلى هنا. كان ينتظر بيع سيارته لكي يرجع وفي جيبه بضعة قروش».

التمعت الدموع على وجه الحجّة نظميّة المتغضّن: «لعنة الله على المصاري. كان يجب يا نور أن تنشأي هنا مع أهلك. سامحيني لأنني لم أستطع إحضارك. منذ أن أتيتِ وقلبي لا يطاوعني أن أسألك كيف كبرتِ في الغربة. كان يجب أن تكبري وتتربي في حضن أهلك. وقتها كنت أنا سألمّك تحت جناحي وأصبح مثل أمك».

شعرت نور برغبة في البكاء، لكن دموعها تجمعت في حلقها وخنقتها عندما حاولت الكلام. دفنت يديها في الرمل، قبضت على حباته الدافئة، وأحست بها تنسرب من بين أصابعها. تابعت الحجّة نظميّة كلامها: «معلش يا بنيتي الله يرضى عليكِ، دعيني أقول لكِ إن عليكِ التفكير جيدًا بما تفعلين مع ذلك الدكتور. نحن هنا لسنا في أميركا، يعني نحن هنا لا توجد عندنا مثل تلك الأمور، ويجب أن تفهمي هذا بسرعة. ربما تحبينه وربما هو يحبك أيضًا، لكن يا خوفي أنه سيخرب حياتك. ويا ويلنا عندما يدري الناس بما حدث، وهم دائمًا يدرون، سيعيبون عليكِ ولن يرضى أحد منهم أن يتزوجك. هل خطر هذا ببالك وأنت طول النهار تكتكتين الرسائل على الجوال؟» وهنا نظرت الحجّة نظميّة في عيني نور المختلفتين في اللون، ثم قالت: «أنا لست غبيّة يا بنيتي»، ابتسمت ابتسامة مقتضبة: «خاصة عندما أشم رائحة حب بالموضوع. والآن، قولي لي، ما الذي يقوله لكِ في رسائله؟»

تردّدت نور وخفضت عينيها: «يقول إنه يحبُّني وسيترك امرأته».

طرقعت الحجّة نظميّة بلسانها: «مليح، هنالك تقدم عن الأسبوع الماضي. من يدرى ما الذي سيقوله له عقله الأسبوع القادم؟»

نظرت نور إلى الأسفل وسحبت نَفَسًا كما لو أنها تريد أن تجيب، لكن الحجّة نظميّة تابعت: «لا تقولي شيئًا، أصلًا لا يوجد ما يقال. لقد شاب شعر رأسي وأصبحت ختيارة مكحكحة وأعرف جيدًا كيف ستنتهي هذه القصة. مرته ستقطع له تبعه قبل أن تسمح له أن يتركها أو يجلب لها ضرة، هؤلاء الناس ليسوا مثلنا.» قطبت ألوان حاجبيها وقالت: «يُمّه لا داعي لهذه الألفاظ وخالد هنا».

لكن الحجَّة نظميَّة تجاهلتها وتابعت: «اسمعي يا نور، أنا لا أستطيع لومك على طباعك الأمريكية، لأنه كان عليَّ أن أسعى أكثر حتى أرجعك إلينا. لكن طالما أنتِ هنا بيننا يجب أن لا تفعلي أي شيء حرام. وهذا الزلمة لا أريد رؤية وجهه في الدار إلا إذا دق الباب وجاء يطلب يدك على سنة الله ورسوله. فهمتِ؟»

مدَّت ألوان يدها وأمسكت يد نور. راحتا تتمليان الأفق وتتنشقان عبير المتوسط، تراقبان معجزتين متمثلتين في طفلين، وتحاولان الهرب من التفكير بقابل الأيام. أما الحجَّة نظميَّة فنقَّلت نظرها بين حفيديها، رِتْشَلْ تلعب مع أطفالٍ آخرين وخالد يجلس على كرسيه في الظل. ثم مدت يدها نحو ابنتها وضغطت عليها: «احكِ لي يا بنيتي»، قالت وهي تشعر بما يعتمل في صدر ابنتها: «هل حددوا موعد العملية؟»

جلسن قبالة الأفق الأزرق الممتد وكلٌّ واحدة منهن تمسك يد الأخرى. ترهبهنَّ تلك المساحة الضيقة بين الطمأنينة والألم الوشيك، فيما رِتْشَلْ تتقافز في صميم أفكارهن جميعا.

لم تجرؤ أيٌّ منهن على قولها، ولكنهن يعرفن أن خالد يتلاشى أكثر فأكثر. تنفسُّه صار أصعب من ذي قبل وزاد اعتماده على جهاز التنفس. كما كان الأطباء مجمعين على أن حالته ليس لها من حلٍّ داخل غزّة. قالوا إن مصيره بيد الله، فردت ألوان أن «مصيرنا كلنا بين يديه».

(55)

تظاهرت أختي بقراءة إحدى رسائلي من قائمة الأحرف لماما، لكنها كانت تخبئ معظم تلك الرسائل بعيدًا عن الأنظار بين أوراقها ورسومها المدرسية. لعلها كانت تفعل ذلك خجلا من معرفتهم بعدم قدرتها على القراءة بعد. أو ربما لأنها

لا تريد مشاركة أحد بما أمليه عليها من كلمات. لكنها عندما تكبر ستجد تلك الرسائل وتقرأ عن عالمي الداخلي الذي لا يطاله الزمن أو الموت، أجالس فيه بابا ومريم وجدو ممدوح، أسبح في المحيطات، وأحسُّ بالناس دون أن أراهم أو أسمعهم. ولعلها ستظن أن كلَّ ذلك من صنع الخيال والذاكرة. ولكنها ستقرأ أيضًا كم أحببتها وستعلم حينها أن كلَّ شيءٍ كان حقيقيًا.

جرت أحداث هذا اليوم كما تجري في العادة. وصلت رِتْشَلْ على عجل من صفها الأوَّل فوجدت في انتظارها قبلة على الجبين من أمها التي هرولت بإجهاد إلى عملها. بعد وداع أمها، لا بد لِرِتْشَلْ من إلقاء نظرة على خالد. صعدت إلى حِجْرِه وقبَّلته قائلة: «سأرجع بسرعة يا خالد». ركضت إلى الحمام للتبوُّل. ستي نظميَّة منهمكة في إعداد الطبيخ في المطبخ، ونور لم ترجع بعد من عملها.

قالت الحجَّة نظميَّة لحفيدتها: «لا يوجد غيرنا في الدار اليوم، أنا وأنتِ وخالد بس. نور قد لا ترجع للدار لأنها ذهبت إلى الجنوب. عندها عمل مع أطفال وقد تقضي الليلة بفندق هناك. والماما لن تصل هنا قبل العشاء. قالت لي إنهم في المركز باعوا الكثير من الأثواب، وأراهنك على أنها سترجع حاملة علبة حلويات زاكية كثيرًا. صاحت رِتْشَلْ من الفرح وراحت تنطنط هنا وهناك. ذكَّرتها ستها بصلاة الظُّهر: «صليتِ الظهر يا حبيبتي؟» ركضت لتؤديها، وبعد لحظات عادت وتكومت في حضن أخيها. قالت له وهي تدير وجهه نحوها: «لقد رجعت يا خالد. نور لن ترجع اليوم للدار». لم يرمش خالد، أمرته: «ارمش يا خالد». فرمش مرَّتين. «يلا نشتغل على لوحة الأحرف»، وقفزت لتأتي باللوحة. كان بإمكانها الآن أن تقرأ بعض الكلمات، لكن معظم ما أملاه عليها خالد لم يكن مفهوما لها. انزعجت من فكرة اللجوء إلى إخفاء رسالة أخرى. «طيب هذه الرسالة لي أنا؟» لم يستجب خالد. «الماما؟» لا شيء. «لنور؟» لا شيء أيضًا. «لستي؟» فرمش. «ارمش مرَّتين إذا كنت تقصد أن الرسالة لستي»، فرمش خالد مرَّتين.

تخيّلت رِتْشَلْ نفسها وهي توصل رسالة من خالد إلى ستها فشعرت بالزهو وحاولت جهدها فكَّ ما استغلق عليها من كلمات. إنها بضع كلمات ليس إلا لكنها لا تفهمها أبدًا. استسلمت لعجزها وسلَّمت الورقة إلى ستها. فقالت لها: «اذهبي امسكي لي أول ولد تلاقيه بعرف يقرا وهاتيه إلى هنا».

عادت رِتْشَلْ بعد لحظات مع صبي في الصف الخامس. لوَّحت الحجة نظميَّة بشيكل أمام عينيه، ما ستعطيه له من أجر لقاء حل المشكلة التي وضعته فيها. ارتسمت أمارات التفكير على وجه الصبي وراح يشخبط على ورقة محاولا ترتيب الأحرف والكلمات. نظر بضع مرات في وجه الحجة نظمية بأمارات تشي بعدم الفهم. عيل صبرها فصرخت فيه: «أنت لا تستطيع القراءة وله؟» ردَّ مضطربا: «أعرف أعرف». ثم كذب عليها وقال: «الرسالة تقول، مريم تريد منكِ أن تعدي لحفلة. وإنها...وإنها، تقول إنها بعمرها لم تتركك وأنها... في بيت دراس». رأى الصبيُّ ورِتْشَلْ هول الصدمة التي اعترت وجه الحجَّة نظميَّة. اختطف شيكله وفرَّ مبتعدًا بأقصى سرعة.

حاولت رِتْشَلْ أن تُهَدِّئ من روع جدَّتها التي انخرطت في عويل مرير. بكت الحجَّة نظميَّة كل ما في مآقيها إلى أن تفجرت شلالا من الضحك. مالت لتبدد ذعر حفيدتها بالقبل وقالت: «يلا يا حبيبتي سنعد لحفلة أخرى». ثم نهضت ومشت إلى كرسيٍّ خالد وقالت لرِتْشَلْ: «اذهبي يا حبيبتي أحضري لستك الختيارة كرسيا». ثم راحت تهمس في أذني خالد، في عينيه، في جبينه، في شعره، وفي خدَّيه. كانت تغرس قبلا أينما همست. سمعت رِتْشَلْ ستها تقول: «كنت عارفة، والله كنت دائمًا عارفة». ثم سمعتها تنهمك في الكلام مع شخص غير موجود معهم، كلام له أول وليس له آخر: «أنا جاهزة يا أختي. هذه المرة سأحميكِ من الموت».

ثم خاطبت رِتْشَلْ قائلة: «جهزي نفسك يا حبيبتي، أنا وأنتِ وخالد سنذهب للسوق لنشتري حاجات الحفلة للغد. نادِ صديقاتك ليأتين معنا ويحملن معنا الأكياس. اندهي على خمسة، كل واحدة تساعدنا لها عندي حلوان».

حاولت نور إنهاء تلك العلاقة، لكنَّ نيران فؤادها المتأججة كانت تسحبها عميقًا إلى هونها. لم تجد أيَّ مُسكِّنٍ لتباريحه في الرسائل النصية أو المكالمات أو حتى اللقاءات السرِّيَّة. بل على العكس كانت كلها تغذي أوار تلك النيران المستحكمة في قلبها. ولما كان تواصلهما مثقلا بالرغبات كان النصر حليف قلبها ضد إرادتها. كذبت على أمِّي وعلى جدَّتي. قالت إنها ستعالج مرضى في الجنوب وإنها ستبيت في فندق كي تتجنب السفر في الليل. ولكنها قضت تلك الليلة معه في شقَّة سرِّيَّةٍ رتَّب أمرها بنفسه. قال إنه يريد أن يستيقظ في الصباح ليجدها غافية على صدره، لكنهما لم يناما أبدا، وعندما تركها وذهب كان القمر ما يزال يتربع وسط حلكة سماء معتمة.

حاولت نور أن تتسحَّب وتدخل البيت بهدوء. لكن جوقة من الأصوات كانت تعلو وتهبط وفق القيادة المركزية لمزاح الحجَّة نظميَّة وضحكها. تريثت قليلا قبل الدخول وأصاخت السمع. تلوَّن الجو وازدان بعبارات البهجة وترقب ما في الغد. وما إن استدارت عند الزاوية حتى سمعت صراخ رِتْشَلْ: «خالتو نور! ستي! خالتو نور وصلت!» ثم ركضت إلى أحضان نور. كلُّ كنائن الحجَّة نظميَّة كن موجودات ومعهن عدد من الجارات وأطفالهن. بعضهن كنَّ يحتسين القهوة، والبعض الآخر يتحلق حول الحجَّة وهن منهمكات في إعداد الطعام، يقطِّعن ويفرمن ويبكين من رائحة البصل، يقمن بحشو هذا النوع أو ذاك من الخضروات، يرقِّقن العجائن بالمرقاق، ويخلطن الأرز بالبهارات وزيت الزيتون.
نظرن إلى نور، حيَّيْنها بحبور وأفسحن لها مكانًا في الغرفة المزدحمة.

قالت رِتْشَلْ وهي متفطنة إلى عدم إفشاء رسالة خالد السرِّيَّة: «عندنا غدًا حفلة من غير سبب!»

توجهت نور إلى الحجة نظمية، ركعت على ركبتيها وقبّلت يدها. فقالت الحجَّة: «أهلين يا حبيبتي نورت الدار بقدومك. الله يعطيك العافية، أنت تتعبين نفسك كثيرًا بالشغل. اللهم احفظ لي بناتي وارحمهن وارزقهن. آمين!»

رغم أن أحدا لا يعرف سر هذا الاحتفال المفاجئ إلا أن أحدًا لم يُبدِ اعتراضه. فهو وإن كان بلا مناسبة فيكفي أن تكون وراءه الحجة نظمية. اكتظت الطاولات المستعارة بصنوف شتى من الأكلات: أرز ساخن بالبهار ومزين بالصنوبر المحمص، دجاج مشوي، محشي البطاطا، كوسا وورق عنب. ساهمت نساء الحي بنصيب منه، لكن القسط الأكبر جلبته أرملة نحّال بيت دراس.

قال الناس: «لا أحد في المخيم بيطلع بإيده أن يرتب في يوم واحد حفلة كبيرة مثل هذه غير الحجة نظميَّة». رقصوا، فوقف كبار السن والعجائز يتفرجون ويصفقون لشباب المخيم. استعادوا عهودا خلت وأيامًا ولّت، وتمايلوا على أنغام الموسيقى وهبات النسيم. اصطحب شباب متزوِّجون زوجاتهم وأطفالهم إلى الحفلة، وتبددت المخاوف والهموم طيلة يوم وليلة من الفرح والانبساط. لم يكترثوا للعتمة التي داهمتهم والكهرباء المقطوعة، فتناثرت الشموع سريعا من حولهم على حوافِّ الأشياء وأكوام الأنقاض والشبابيك. اصطف الرجال للدبكة، شبكوا أذرعهم وألصقوا أكتافهم ودبكوا دبكة إثر دبكة. وانضمت إليهم النساء، وشكّلت أخريات حلقة دبكة خاصَّة بهن. سأل الجميع الحجة نظمية عن المناسبة، وتقبَّلوا ردها رغم ما فيه من غموض: «لأنه ياما في الدنيا معجزات، وكلما استطعنا تصويب شيء فعلناه علينا أن ننبسط ونحتفل». أيدها كثيرون وأضافوا أن الحفلة الجيِّدة أفضل وصفة شعبية لهم في سجنهم الضيق. «نحن نخلق شكلا جديدا من الحرية. وما الذي سيفعله الصهاينة أولاد القحبة لفرحتنا؟ هل سيسجنونها هي الأخرى؟» وافقتهم نظميَّة وهي تدفع كرسي حفيدها حيثما ذهبت وتهمس له بين فينة وأخرى. سمعها بعضهم تقول: «عرفت دائمًا أنك خالد مريم. كنت أعرف أنك هو»، فظنُّوا أن الخرف بدأ يداهم عقل المرأة المسنَّة القويَّة.

رغم التقائها بأرملة النحَّال من قبل، لم تعرف نور إلا في تلك الحفلة أن النحَّال كان جدَّ أبيها وأن هذه المرأة كانت زوجة أبِّ جدتها ياسمين. قالت نور للحجة نظميَّة باستغراب: «لكنها لا تبدو أكبر منك بكثير».

فردت الحجة نظميَّة ضاحكةً: «صحيح، هي ليست أكبر مني لأن النحال العجوز كانت شهيته مفتوحة على الصبايا. تزوجها بعد أن هدَّ حيل زوجتيه الاثنتين قبلها. لكن هذه كانت بضاعة خسرانة ولم تنجب. كانت تحب ستك ياسمين كثيرًا واعتنت بها مع أنها كانت أكبر منها بسنوات قليلة فقط. كل الناس يحبونها لكنها لا تحب إلا الجلوس وحيدة في بيتها. ظلت تعيش وحدها منذ أن تركت ستك وسيدك غزة. تترزَّق من بيع وصفات وأعشاب للبرد والحبل. لكن لا أحد يطهو طعامًا أزكى من أكلها ولا حتى أنا. انظري إليها، قوية وسمينة وبسيطة مثل بغل».

تمنَّت نور لو أن جمال كان موجودًا. كانت تود أن تخبره عن هذا الاكتشاف الجديد، عن هذه القطعة الجديدة من أحجية حياتها. حاولت الاتصال به دون جدوى، فاستغرقت في خيالات عن حياة معه يخرجان فيها ويرقصان معًا في حفلات كهذه. عادت إلى ضرب رقمه مرة ومرتين حتى أرسل نصًّا قال فيه إنه سيتَّصل في الغد. قال: «زوجتي ستتركني. لا تتَّصلي حتى أتَّصل أنا».

لمّا حان وقت الوداع، طُبعت القبل على الخدود وحُمل الصغار النائمون إلى البيوت. رِتْشَلْ وقعت فريسة النوم أول الليل رغم جهودها المستميتة في البقاء مستيقظة. لحقت بها ألوان سريعا من فرط التعب بعد ذهاب آخر الضيوف. خالد مستلقٍ ولكن من الصعب دوما معرفة إن كان نائما أو مستيقظا، فهو عادة ما يغلق عينيه عندما يكون صاحيا ويفتحهما عندما يكون غائبا في عالم آخر. أما نور فإن الإرهاق كلمة تعجز عن وصف ما كان يعتمل في نفسها. ليس ثمة من أوصاف وليس ثمة من كلمات.

تحت إلحاح شديد من صديقتها القديمة الحجة نظميَّة، لم تذهب أرملة النحال إلى بيتها. مكثت عندهم وفتحت خزائن ذاكرتها أمام نور لتتجول فيها

كيفما تشاء. أخبرتها قصصًا عن زوجها النحّال وعن تلميذه في الصنعة الفتى ممدوح. كيف كان يسترق النظر إلى ياسمين ظانًّا أنها لم تكن تراه. حدثتها عن نباتات وأشجار بيت دراس، عن ياسمين التي لم تَمِلْ لها في البداية، ثم صارت فيما بعد أفضل صديقاتها وبمثابة ابنتها حين لم يبقَ لهما أحد بعد النكبة. روت لها حكايات عن ممدوح، الرجل الناضج ذي العرج الخفيف، كيف ذهب إلى القاهرة ليجمع ما يكفي من مال كي يتزوّج ياسمين. ثم كيف اصطحبها في البداية إلى الكويت، ثمَّ إلى أمريكا، وبعدها لم يتمكَّنا من العودة إلى البلاد إلا للزيارة. أخبرتها عن الحب الذي طفح به صوت ياسمين وهي تخبرها على الهاتف عن حفيدتها نور.

غير أن الشموع في غزة ذابت وانطفأت واحدة تلو أخرى، كما لو أن الليل نفسه راح في سبات عميق بعد انتهاء الحفلة. تثاءب صمتٌ نقيّ في السماء وبقيت نور على سهادها. مكثت إلى أن سطا النوم على صخب أفكارها وأغلق عينيها اللتين لم تنقطعا عن النظر إلى شاشة جوالها.

(57)

بقيتُ من أجل رِتْشَلْ. كم آلمني عجزي عن نفخ الحياة في جسدي لأجلها. بل كم تألّمتُ لأنها كانت تقنع برمشة من عيني. لكنْ حان الوقت. كنتُ إلى جانب نهر سُكرير مع جدُّو عطيَّة عندما أتت مريم مع ممدوح وهي تحمل شمعة. عرفت أن إطفاء الشعلة قد آن أوانه، فأخذتُ نَفَسًا عميقًا، ونفخت.

استيقظت ألوان قبل غيرها واستهلّت جمعة ظنَّت أنها ستكون يوم كسل بعد حفلة الأمس. كانت نور نائمة على حافة السرير تكاد تسقط عنها، بينما

رِتْشَل نائمة بالعرض ويستأثر جسدها الصغير بالمساحة الأكبر. ابتسمت ألوان وغطتهما جيدا وهي تنهض من الفراش. ذهبت بخطى ما زالت ناعسة إلى المطبخ، ووضعت غلاية الماء على النار لإعداد القهوة ثمَّ ذهبت كالعادة إلى خالد. فحصت كيس البول أوّلاً ثم انحنت لتقبيل جبينه. وما إن لمست شفتاها بشرته الباردة حتى أحسَّت يدها فورًا ذراعه المتصلِّبة. لم تتحرَّك، تجمدت في وقفة غريبة كان من المفترض أن تكون جزءًا من سلسلة حركات اعتادتها يوميًا. ارتجف قلبها في صدرها وبكت. سقطت دموعها على جبينه وبللته. ارتعشت عيناها ثم جسدها كلُّه. خشيت أن تعتدل أو أن تحرِّك شفتيها أو يدها. تمتمت في سرها بدعوات وحارت فيما ينبغي عليها فعله. فهي إن اعتدلت وتحركت لا بد لها من مواجهة موت ابنها وتحطُّم قلب ابنتها.

التفَّت حولها ذراعان قويَّتان جرَّتاها بحنان إلى كرسي. كانت أرملة النحَّال. وما إن ابتعدت ألوان عن ابنها حتى شهقت بصرخة مهولة. اعتدلت الحجة نظميَّة في فراشها مذعورة، ولم تحتج إلى أكثر من نظرة إلى ابنتها لتدرك ما حدث. «الله أكبر... لا إله إلا الله»، راحت تدعو وتنتحب. لم تستطع النهوض، فقد خذلتها رجلاها من جديد. كان إناء الماء يغلي ويفور في المطبخ بينما أرملة النحَّال تهدئ من روع نساء البيت. جلبت الماء لكلٍّ من الحجَّة نظميَّة وألوان وعادت إلى المطبخ لتعدَّ القهوة. أحرقت شيئًا من الميرمية لتبدد بعبقها الشافي شيئا من الصدمة والحزن. أخرجت الحجَّة نظميَّة قصاصة الورق التي كتبت رِتْشَل عليها رسالة خالد، وغمغمت وسط دموعها: «ظننت أنني أنا التي سأموت. ظننت أنه يطلب مني أن أعد حفلة لأن عمري انتهى وجاء أجلي. لا إله إلا الله».

ضيَّقت ألوان عينيها وهي تحاول إدراك ما ترمي إليه أمها وسط ما يلفُّ رأسها من ضباب: «يُمَّه، ماذا تقصدين؟»

دخلت نور بينما أخذت ألوان من الحجة نظميَّة قصاصة الورق. «انظري. أترين؟ خالد أملى هذه الرسالة على رِتْشَل من لوحة الأحرف وأنا عملت الذي

طلبه. اعتقدت أن عزرائيل سيأتيني وأن مريم أرادت أن أعد حفلة من أجل ذلك. الله أكبر... لا إله إلا الله».

فتحت ألوان الورقة وحاولت فكَّ ما فيها من طلاسم. رأت خرابيش ابن الجيران الذي حاول ربط الأحرف العشوائية. لكن كل ما هو مكتوب في تلك الرسالة لم يكن له معنى، مثل كلِّ محاولات التواصل مع خالد. كان ابنها قد رحل منذ زمن بعيد، وهي تشعر الآن بشيء من العزاء لأنه سيرقد أخيرا بسلام. لا حول ولا قوة إلا بالله.

عاودت الحجة نظميَّة القول من وسط دموعها: «شفتي يا بنتي؟ خالد يا ويلي عليه بعث لي أنا بهذه الرسالة».

«صحيح يمّه، هذا ما تقوله الرسالة. لقد أعددتِ له حفلة الوداع التي كان يتمناها». دسَّت ألوان الورقة في جيبها وجلست إلى جانب أمِّها، بينما انشغلت نور في الاتصال بالإخوة حتى تبلغهم بالخبر.

وفي تلك اللحظة سمعن رِتْشَلْ وهي تصعد للجلوس في حجر خالد: «ارمش يا خالد».

رمت نور التلفون وركضت لترفع رِتْشَلْ، لكن العالم بأسره غرق في الصرخة التي دوَّت من أعماق رِتْشَلْ. حاول الجميع تهدئتها، لكنها كانت ما إن توشك على التوقف عن البكاء حتى تجهش فيه من جديد عندما يقع بصرها على أخيها في كرسيه. ظلت على هذه الحال إلى أن حضر الإخوة وأخذوا جثمان خالد. غصَّ بيتهم ثانية بالناس، حضر أولا أفراد العائلة الذين كان النوم ما يزال عالقا بأهدابهم، ثمَّ الجيران وغيرهم ممن توافدوا للقيام بواجب العزاء.

خالد

«الألم الذي لا ينسى يسقط قطرة قطرة على القلب حتى
في أثناء نومنا، وتدركنا الحكمة في يأسنا، رغما عنا، مع
الرحمة الإلهية التي تثير الوجل في القلوب.»
- إسخيلوس

صبيحة اليوم الذي رحلتُ فيه، استيقظ جيراننا على ترتيل حزين لآي القرآن. خرجوا بملابس النوم ليتبينوا مصدر الصوت. ثم انتشر الخبر سريعا بأن شيئًا ما قد وقع في بيتنا. انتبه بعضهم إلى أن أخوالي وأبناءهم، الذين لم يتركوا حفلة الأمس إلا قبل ساعات قليلة، يفدون على البيت وهالات داكنة تحيط بأعينهم. قالوا: يا ساتر؟ راجين أن تكون الأمور بخير.

قال أحدهم: «الصبي أعطاكم عمره، الله يرحم روحه». فردت إحدى الجارات: «الله أكبر ما هذه العائلة المسخمطة! يعني هل هذا ما يحدث إذا تجرأ أحدهم وعمل حفلة بدون مناسبة؟ هل يجب أن تظل عيشتنا خراء؟ ألا يمكننا أن نفرح من دون أن يعقب فرحنا سخام البين؟»

«قصري لسانك يا امرأة! لا تعترضي على إرادة الله وإلا كان جزاؤك جهنم».

ظلَّ الناس يأتون على مدار ساعات. غسَّل أخوالي جثماني، كفنوني بالأبيض، جهزوني للدفن، ثم صلوا عليَّ. اتشحت ماما وستي ونور بالسواد. وكرَّست نور نفسها لرعاية رِتْشَلْ التي شاغلها أبناء أخوالنا وذهبت معهم للعب في الخارج.

كان ثمَّة فضول إزاء نور ينتاب كثيرا من المعزيات. فلن إن عثورها على

أهلها وعودتها لهم بعد حياة قضتها مع الأمريكان أشبه بالمعجزة. ثم تلفتت بعضهن ذات اليمين وذات الشمال وتهامسن عنها وعن «الدكتور».

«الدكتور جمال؟»

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أستغفر الله! لا تطعني في شرف الصبية! ومتى؟ الآن وهم في عزاء؟ أستغفر الله».

لكن أولئك كنّ قلّةً وسط الكثرة التي جاءت للمساعدة عن حق. كان قد تبقى من طعام حفلة الأمس ما يكفي لإطعام المعزين، كما جُلب المزيد منه طيلة أيام العزاء، فيما بقيت تلاوة القرآن تصدح في جنبات البيت. امتنع الجيران عن سماع الموسيقى وأبقوا أصوات تلفزيوناتهم منخفضة. جاء الناس وذهبوا على وقع كلمات الله، دخلوا برؤوس مطأطئة وشربوا القهوة «السادة». وقد جرى استقبال الرجال والنساء في غرفتين منفصلتين. وغابت مظاهر الزينة من مساحيق التجميل وطلاء الأظافر، وغابت كذلك الألوان جميعا وحضر الأسود فقط. بقيت أرملة النحال حتى تقدم المساعدة لأن ساقي ستي ما زالتا كسيحتين. تولّت أمور المطبخ، وبذلت جهدها لأن يبقى الطعام وفيرًا والأواني نظيفة.

ثم جاءت امرأة لا يعرفها أحد. لاحظتها كل الحاضرات لأنها كانت حاسرة الرأس. ومع أنها بدت متواضعة في ملبسها الأسود إلا أن الكِبرَ في مشيتها واضح ويدل على وفرة في المال وعلوٍّ في المنزلة الاجتماعية. سرت همسات: «هذه زوجة الدكتور جمال». سمعنها وهي تعزّي ستي وماما. وأخيرًا خرجت نور من غرفة النوم فتفاجأت ميساء من عينيها المدهشتين. لكنها تمالكت نفسها بسرعة وعبرت عن تعازيها هي وبالنيابة عن زوجها العزيز. قالت إن جمال مسافر وإن من المؤسف حقا أن وظيفة نور في المركز شارفت على الانتهاء. وأضافت: «الوقت يمر بسرعة عجيبة!»، وأن زوجها كان مسرورًا لحماس نور. وأضافت بلهجة لا التواء فيها: «قال إنكِ كنتِ مسلية»، ثمَّ مضت في حال سبيلها.

كان من يعيشون في مِلْزْ هوم، دار الرعاية التي قضت فيها نور سنيَّ مراهقتها، ملزمين بحضور الصلاة في الكنيسة ثلاث مرات في الأسبوع. ولم يكن في تلك الدار من مسلمة سوى نور. وعندما ضُبِطَت وهي تدخِّن الحشيش في الطابق السفلي من الكنيسة مع صديقة لها عوقبت لمخالفة تعاليم دينها. وراح العاملون في الدار والمشرفون على أمور المقيمين فيها ينظرون إليها بقرف. ضاعفوا ما عليها من واجبات ومنموها، إلى أجلٍ غير معلوم، من الذهاب إلى أيِّ مكان سوى المدرسة والكنيسة. لم تجد من حل للفكاك من ذاك السجن إلا طريقة واحدة. سارت ذات أربعاء في ممر الكنيسة إلى أن وصلت المذبح، وهناك أعلنت أمام القسيس قبولها المسيح مخلِّصًا. ولمَّا عُمِّدت في يوم الأحد التالي فرح الجميع بها، قالوا: «الآن نجوتِ»، وغفروا لها ذنبها وأنهوا عقوبتها. لكن نور خشيت في سرها على مصيرها الروحي وظلت تتوجه بدعائها إلى الله ولا أحد سواه.

غيَّرت وفاة خالد نمط الحياة في البيت وما فيه من طاقة وحيويَّة. لم يدرك أحدٌ منهم في الماضي حجم الحضور الكبير والصامت لخالد. كم كانت حياتهم تتمحور حول ملء أكياسه بالغذاء وتفريغها من الفضلات، أو مقدار الوقت الذي كانت رِتْشَلْ تقضيه مع لوحة أحرفه. كما أدركت نور أن رِتْشَلْ تعلَّمت القراءة والكتابة الى درجة تفوق سنَّها بسبب محاولاتها في فك أسرار جلساتها مع خالد. بقي كرسيُّ خالد مركونًا لبعض الوقت في مكانه كغصن ذبلت وغابت وردته، لكن العائلة باعته في نهاية المطاف. راح مكان خالد يتقلص رويدا رويدا مع بدء رِتْشَلْ في عقد صداقات جديدة وقضائها مزيدًا من الوقت في اللعب خارج البيت. أخذت نور إجازة من عملها تحت إصرار الحجة نظميَّة. قالت وهي

توبِّخها للمرَّة الأولى: «ترى أنا طنَّشت أشياء كثيرة بخصوص هذا الرجل، لكن يكفي، خلص. يكفي ولدنة مثل بنت صغيرة. يا حيف، رغم سنِّك وتعليمك إلا أنك انفجعتِ على الحب مثل هجين وقع في سلة تين. ابن الرقاصة هذا يخون زوجته ويتسلى بك. لم يحترم حبك واعتدى على شرفك وشوه سمعتك. وقسما بآيات الله إن وقعت عيني عليه مرَّة ثانية لأقطع تبعه». توقَّفت الحجة نظميَّة لكي تستجمع مزيدًا من الغضب: «هذه ليست أميركا التي ينام فيها الكل مع الكل منى ما أرادوا من أجل الكيف. هذه غزة، بلد مسلم. كان عليَّ أن أكون شديدة منذ البداية وأمنع الذي صار بينكما».

تقوَّست أكتاف نور، طأطأت رأسها وثبتت بصرها في الأرض. جوالها يشهد على الرسائل النصية والمكالمات التي لم تلق ردا منه، إنها أكثر من أن تعدَّ أو تحصى.

ثم لانت الحجة نظميَّة وقرَّبت نور منها: «اسمعي يا بنتي. أنا لن أرضى أن تصبحي مَضْحَكة. يعني هل صدقتِ مثلًا أن زوجته أتت هنا لتعزينا؟ طبعا لا. نحن أساسا لا في البال ولا في الخاطر، سواء عشنا أو متنا لا يهمها. لكن سبب قدومها هو أن تتفرعن عليكِ وتقول لكِ إنها هي التي فازت». عدَّلت نظميَّة جلستها كأنها لا تعرف ماذا تفعل بجسمها: «والله العظيم كنت أريد أن أهجم عليها وأنتِّفها تنتيف. لكن لم أستطع فعل ذلك في عزاء. كنت أغلي من الداخل رغم أنكِ أنتِ الغلطانة. صدقيني لو حدث ذلك في أي وقت آخر لدعست في بطنها، لأنك من لحمي ودمي ولأنها تعدت علينا بتصرفها الوسخ ونحن مفجوعون بموت واحد من أولادنا».

شحنتها كلماتها بالغضب من جديد ولم تستطع التوقف عن الكلام. شعرت أن الغضب الشديد يريحها بعض الشيء. أمالت جسمها يمينا وشمالا وتابعت: «أراكِ طول الوقت مبحلقة في الجوال. اطمئني، فلن يكلمك أو يكتب لكِ. العقي جروحك بينك وبين نفسك، لكن أمام الناس أبقي رأسك مرفوعًا دائمًا». تململت الحجة نظميَّة وقد شحنتها قناعاتها أكثر: «هذا هو الدرس الأول، أما

الثاني فهو أن ما تفعلينه هنا في بلدك وأرض جدودك ووسط عاداتهم وتقاليدهم يؤثر على كل أهلك. وحماية العائلة تضعينها فوق رغباتك».

فككت كلمات الحجة نظميَّة جذور نور المهلهلة وأعادتها إلى أصلها. هل بات عليها الآن الاختيار بين المرأة التي كانت وبين تلك التي تريد أن تكون؟ أهي المرأة الطليقة التي عاشت كما يحلو لها وركنت إلى حرية منفلتة من الضوابط والقيود؟ أم أنها سليلة عائلة جذورها ضاربة في الأرض، وهي مسؤولة عن تصرفاتها أمامها، ومصونة بما تقدمه لها من الحب والولاء؟ بينما كانت نور تقف هناك والدرس الذي سمعته من نظميَّة يبهت في ضوضاء صراعها الداخلي ورغبتها الجامحة في لقاء جمال، ظهر نصٌّ على شاشة جوالها فتوقَّف العالَم عن الدوران.

«لا تكتبي لي رسائل نصِّيَّة رجاءً. الأمور سيئة جدًا في البيت. إنني أحاول المحافظة على عائلتي، وأنا ورغما عن أنفي مجبر على كتابة رسالة لك ستستلمينها في وقت لاحق من اليوم. لكن أرجوك أن تعرفي أنني لا أعني أيَّ حرف فيها».

(59)

كانت أرملة النحَّال قد تزوَّجت قبل زواجها من النحّال لكنَّها تطلقت لأنها لم تنجب. ولما تزوجها النحال كان في الستين أما هي فصبية في العشرين. وهذا يعني أن الفارق العمري بينها وبين ابنة زوجها ياسمين هو خمس سنوات فقط. لكن هذا الفارق البسيط لم يحل دون أن تصبح بمثابة أم لياسمين بعد نكبة عام 1948. لقد كانت امرأة بسيطة لطيفة يعرف عنها عشقها للتراب والطبخ. تقضي وقتها في النبش والزَّرع والحصد والطهي. وعندما تنام كانت تأخذ الأرض معها، تحت أظافرها وبين أصابع قدميها.

لاحظت أرملة النحال خلال الأيام التي قضتها في بيت العزاء تراجع حالة ألوان الصحِّيَّة، فحاولت جسَّ نبضها: «شوفي يا بنتي، صحيح أن نظري صار بالكاد يكفيني إلا أنني لا يخفى عليَّ المرض. أحس به في أضلاعك ينهشها نهشًا. قولي لي ما الذي قاله لك الدكتور؟» سألت وجسدها الضخم يتدفَّق بأمومة جيَّاشة.

قالت ألوان وهي لا تصدق ما تقول: «هو المرض الخبيث إياه. سأستأصل الثديين قريبًا».

«توكلي على الله يا أم خالد ودعيني أساعدك. نحن تعودنا على طبنا العربي وتطبينا به من قديم الزمان. برضاي عنكِ دعيني أساعدكِ يا بنتي. نحن أهل وأصحاب منذ وقت طويل».

«الله يطوِّل عمرك يا حجَّة. أنا متوكلة على الله ومستعدة لفعل أي شيء أجده. فقط قولي لي ماذا أفعل».

أعطت أرملة النحال تعليماتها لحفيدة ياسمينها. رسمت لنور صورَ ما تحتاجه من نباتات وأماكن وجودها في بستانها. قالت: «إن شاء الله يكون البستنجي من دار أبو شَنَب موجودا. أريه الرسومات وقولي له إنك من طرفي وسيساعدك. خذي رِتْشَلْ معك ولا تخبري أحدًا عن هذه الحاكورة!»

وعندما همَّت نور بالمغادرة، تابعت أرملة النحال كلامها: «بعدها سنجلس ونتحدث عما يحزنك أنتِ. ماشي؟»

سمعتها الحجة نظميَّة ووافقتها الرأي: «الله يعمر بيتك يا خَيْته. قديش إجوا عالم لِينصحوا صغيرتنا زيادة الخير خير».

سُرَّت نور بعبارة «صغيرتنا» فوجدت ابتسامة طريقها إلى شفتيها بينما أخذت الرسوم بيد وأمسكت رِتْشَلْ بالأخرى. سارتا في أزقَّة تضيق بحيوات لاجئين حكم عليهم باللجوء مدى الحياة. نظرت نور إلى ما هو مرسوم فوجدته يشبه نبات القِنَّب. اتَّسعت ابتسامتها وأسرعت في مشيها. كان البستان في الطرف الغربي من غزة وعلى مقربة من الألغام والمواقع العسكرية الإسرائيلية، وهذا يعني

أن الوصول إليه وفلاحته أمر لا يخلو من المخاطر. ورغم ذلك فإن أرملة النحال تمكنت من فعل ذلك على مرِّ سنوات طويلة. فتحت نور البوابة فدهشت من الصفوف الكثيرة لأنواع شتى من النباتات المشذَّبة بعناية. ميَّزت بين الخضروات وأصناف الأعشاب شتلات المارجوانا التي لم تر مثلها من قبل إلا في لقطات القبض على تجار المخدرات. كانت تلك الشتلات مكسوة بطبقات من صمغ دبق ومفصولة عن غيرها بممر صغير. راحت نور ورِتْشَلْ تقطعان وتجمعان أكبر قدْرٍ منها. ثم ذكَّرت نور رِتْشَلْ بألَّا تخبر أحدًا عن بستانهم، فازدادت رِتْشَلْ حماسة لتلك المهمة السريَّة. واصلت الاثنتان التقطيع وتعبئة ما تحملانه من أكياس بشعور من التواطؤ المتبادل. ولمَّا شارفتا على الانتهاء ظهر أبو شنب. بدا قلقا من وجود متطفِّلتين في البستان وحذَّرهما مثل أرملة النحال من إخبار أحد عنه. وعدته رِتْشَلْ وهي تنظر في وجهه العبوس: «أقسم بالله العظيم لن أخبر أحدا، صدقني أنا أحفظ الأسرار جيدًا». ركعت نور أمامها، نقَّلت بصرها في وجهها، ثمَّ قبَّلتها واحتضنتها، قالت: «خبِّئي الأسرار عن كل الناس إلا عنا يا روحي. قولي لنا كل شيء يحدث معك»، وعادتا أدراجهما إلى المنزل.

عادتا بعد ساعات. كان آذان المغرب يعلو من مآذن كانت تمد أعناقها إلى سماء غزة تسندها خوف أن تقع. قالت أرملة النحال: «أتيتن في وقتكن، هاتي لنرى ما أحضرتن». أفرغت نور ورِتْشَلْ أكياسهما، وسألت رِتْشَلْ بزهو: «هل هذا يكفي يا حجَّة؟»

«يكفي ونص يا حبيبتي. إن شاء الله سيخفف هذا عن أمك كثيرًا. أولا يجب أن نجفف هذه الأعشاب. أنا نظفت السطح وفردت عليه بطاطين. ما علينا الآن غير أن نفردها لتضربها الشمس غدًا وتجففها. بعد أن تجهز سنبدأ العمل ونركّب الدواء».

وفي عصر اليوم التالي، ساعدتها نور ورِتْشَلْ. كانت عملية تحضير الوصفة العلاجية غير هيّنة، فهي تتطلب الدقة وتتضمن خطوات متكررة ومملة. تبدأ بخطوة نقع الأوراق الناشفة في محلول مذيب حصلن عليه من محل لِلَّحْمِ

المعادن، ثم خطوة استخلاص الزيت، وبعدها خطوتي الغسل والتصفية. انكبَّت أرملة النحال على إنتاج الدواء بتفانٍ لا يقل عن تفانيها في الطبخ. لم تحتج إلى وزن أيٍّ من المكونات، كما كانت تميز من الرائحة أو اللون أو الشكل أوانَ إضافة مكون آخر أو البدء في خطوة لاحقة.

كانت ساقا الحجة نظميَّة قد عادت لهما العافية فذهبت لزيارة الجيران. لكن أرملة النحال شكَّت في أن الكساح الذي يصيبها لم يكن يقعدها بالقدر الذي تدَّعيه.

وعند حلول المساء، كان فريق العمل جاهزا لتبخير بقايا الماء من آخر مرحلة من مراحل الغسل ثم فصل الزيت الطبي في قوارير صغيرة. لكن رِتْشَلْ ملَّت وذهبت لتلعب مع صديقاتها. كما كانت ألوان قد تركتهن قبل العصر وذهبت إلى عملها. وهكذا، لم يبق أحد في البيت سوى نور والأرملة. قالت الأرملة وهي تسكب سطلاً من المحلول المذيب في قُمْعٍ مغطى بشاشة لتصفيته: «نور، حبيبتي، أنا داري بعيدة وبدني ثقيل وحركتي صعبة. يا ريت لو تأتين لزيارتي أكثر».

«أكيد. عقدي في العمل في نهايته، و...» ولم تعرف نور بماذا تنهي جملتها وترد على تلك المرأة التي تشعر تجاهها بما للجدات الكبيرات من حب ومهابة.

قالت زوجة النحال بلهجة لينة ولكن صارمة: «أيوه، بخصوص العمل. قولي لي إنه لا يوجد شيء بينك وبين ذلك الدكتور».

نظرت نور إلى جوالها وقالت: «لا أدري»، لكنها تردَّدت عندما التقت عيناها بالعينين المندهشتين اللتين تحملقان فيها: «قصدي ...»

تركت الأرملة ما كان بيدها وتفحصت وجه حفيدة ياسمين الأميركية. بدت نور كما لو أنها ابنة ممدوح وياسمين لا حفيدتهما.

«يا بنتي، أنتِ حلوة ومتعلمة وأهلك ناس محترمون. كل الصبايا في غزَّة يحسدنك على طولك وقوتك وشخصيتك. غدًا يأتيكِ ابن الحلال الذي يستاهلك ويستاهل قلبك. شاب أعزب وليس متزوجًا. لكن هذا الدكتور متزوج

وعنده عائلة لن يتركها. إلا إذا رضيتِ أن تكوني زوجته الثانية...»

قاطعتها نور: «لا، لا أرضى».

«مليح، وهذا بالضبط ما ستقوله زوجته أيضا. أنا متأكدة أنه يحبك، لكن حتى لو كان فلن يطلق زوجته، كبار عائلته سيمنعونه ويقفون في طريقه. ولا تنسي أيضًا كم أن سمعة أولاد نظمية ستتسخ. هذه الأمور صعبة كثيرا في غزة. الكل سيتأذى وأولهم أنتِ. اسمعي كلام الكبار يا بنتي»، قالت ذلك وهي تربت على وجه نور. «الآن ناوليني ذلك الأنبوب وكرة الشفط».

(60)

عندما كانت نور في الثانوية وقعت في الحب. عشقت شابًا من جيلها يدعى كْلاي جارِدْ الذي بادلها بدوره حبا بحب. لكن السيدة وِتَر، أمّها بالتبني، منعتها من مقابلته. إلا أن نور لم تستطع عصيان قلبها. وعندما قبضوا عليها وهي تتّصل سرًا بِكْلاي جارِدْ، صادرت السيدة وِتَر التلفون منها وحبستها ثانيةً. قالت إنها «طالبة مهملة محبة للزنوج، حتى يسوع نفسه يعجز عن خلاصها».

أصغت نور لأرملة النحال ونفَّذت إرشاداتها خلال تحضير الوصفة العلاجية التي بثّت رائحة سيّئة في أرجاء البيت. نظرت ثانية إلى جوالها علّها تجد رسالة من جمال، وتمنت عودة التيار الكهربائي لترى إن كانت رسالته الإلكترونية قد وصلت. كانت تعرف أنها لن تحمل أخبارًا طيّبة ولكنه قال إنه مرغم على كتابتها.

راقبت نور الزيت الأسود وهو يصعد في الأنبوب كلّما ضغطت أرملة النحال على كرة الشفط. قالت الأرملة: «يجب أن تأخذ ألوان ستَّ جرعات يوميا من هذا العلاج، طعمه مقزز مثل زبل الغنم». تذكّرت نور أيام تدخينها

الماريجوانا في الكلّيّة، وندمت على أنها لم تخبئ بعض الأوراق لتدخنها سرا فيما بعد.

عاد التيار الكهربائي وأضاء الغرفة، فنهضت نور على عجل لفحص بريدها الإلكتروني. فتحت الحاسوب فوجدت رسالة جمال في انتظارها:

«عزيزتي نور،

لقد كان ما فعلناه خطأً، وأنا أعتذر لأنني لم أقل ذلك مباشرة. إنني متزوِّج من المرأة الوحيدة التي أحبها في حياتي، وألزم نفسي الآن بترميم علاقتي معها إثر خيانتي لحبِّها ولعائلتنا التي كوَّناها معًا. وبما أن تاريخ الانتهاء الرسميٍّ لعملك المؤقت أُجِّل بسبب وفاة أحد أفراد عائلتك، فإنني أرجوك أن تذهبي لجمع أغراضك من المكتب عندما لا أكون هناك. أي حين أكون في البيت مع زوجتي ما بين الثانية عشرة والثانية ظهرا.

مع فائق الاحترام،

د. جمال مسمار».

قرأت نور الرسالة، ثم أعادت الكرَّة مرة ومرتين وثلاثًا. ركضت إلى مقهى قريب للإنترنت لتطبع نسخة ورقية منها قبل انقطاع التيار الكهربائي. كان لا بد لها من أن تطعن نفسها بكل كلمة من تلك الكلمات ولأطول وقت ممكن. يجب أن تنزف دمًا حتى تتوقف عن مكالمته أو الكتابة إليه.

طوت الرسالة ثم فتحتها ثم أعادت طيَّها بينما كانت تسير وحيدة فوق الشاطئ. لم يخفف وطأة ما تشعر به من وحدة وجودُ كل تلك العائلات التي تتنزه من حولها. افترش البعض الأرض، وجلس البعض الآخر فوق كراسٍ بلاستيكية. تحلَّق آخرون حول نيران أشعلوها من الحطب، بينما سبح شباب وأطفال في بحر التمع تحت ضوء القمر. مشت في غبش المساء تبحث عن طيف جمال علَّه يكون في الانتظار. لكنها كانت تدري أنه لن يكون هناك. وشيئا

فشيئا تحولت إلى سراب، لم يتبَّقَ منها إلا حذاء بالٍ يحمل رسالة ويبكي. وأخيرًا يبكي! وحيدة في ضباب الليل، كسيرة فوق شاطئ يتلألأ بأشعة القمر، بكت نور وتحطَّم كيانها الواحد إلى ثلاثة أجزاء: حذاء بالٍ، رسالة مجعدة، ودورة شهرية فات ميعادها.

(61)

رغم أن ستي ما كانت لتعترف، لكنها كانت بحاجة إلى أرملة النحال. كانت ترى أن الله بحكمته المطلقة وحسن تدبيره أتى بها إليهم.

مرَّت الأيام على بيتهم وقد تخللها مشهدٌ سرياليٌّ رتيب. تقف أرملة النحال في مختبرها الذي يفيض على البيت بروائح تثير الغثيان. تعبِّئ وتفرِّغ المحاليل والأوعية والمصافي والأقماع وأواني الغلي وكرات الشفط. تظل تعبئ وتفرغ إلى أن تمتلئ قنينة الزيت الأسود بالجرعات الكافية لذلك اليوم. وبعدها تتناول ألوان الدواء الكريه دون نقاش وهي تضع ثقتها في الله. نظمية أيضا رضخت وقبلت أن تكون أرملة النحال صاحبة السيادة في مطبخها، والحاكمة المطلقة على كل صحونها وطناجرها ومغارفها. أصبحت العجوزان اللتان تجرعتا مرارة الحرب والهزيمة معًا وجمعتهما أواصر المصاهرة والنسب من أعز الصديقات. ورغم أن كرامة الحجة نظمية تأبى عليها إلا أن تكون حسنة الضيافة، إلا أنها لم ترتح للانقلاب الأبيض الذي وقع في مطبخها. لكن ذلك سرعان ما تبدد لما رأت الحياة تدبُّ في عيني ألوان من جديد.

في بداية الأمر، اقتصرت أحاديث الحجتين على مجاملات فارغة بلا طعم سرعان ما كانت الحجة نظمية تملُّ منها. لكن وبعد حين، بدأت الذكريات

والحكايات القديمة تنسل من عظامهما وتتسلل إلى أحاديثهما. أطياف ممدوح وياسمين وغيرهما من الأحباب صارت تهب مثل النسيم العليل من كلماتهما. تذكرت أرملة النحال أيام أم ممدوح وسليمان. ضحكتا كثيرا عندما روت أرملة النحال ما دار في المخيم من شائعات خلال سنوات كُساح نظمية وكيف ظلت رغم ذلك تنْجب الأطفال. وأحيانا تسقط دموعهما ندمًا على اليوم الذي ترك فيه ممدوح وياسمين غزة.

اعترفت الحجة نظميَّة: «شوفي، صحيح أنك أنتِ أشطر واحدة بالطبيخ. ولا أحد يستطيع إنكار ذلك. لكن بذمتك ألم أكن أنا أحلى صبية في بيت دراس؟»

ضحكت الأرملة العجوز وقالت: «أنتِ جننتِ الكثير من الشباب. ويا ويلي كم حطمتِ منهم لما تزوجتِ عطية!»

كانت تلك التزكية كافية لأن تتخلى نظميَّة بطيب خاطر عن مطبخها لملكته الجديدة. تلك الملكة التي كانت على استعداد لتعليمها أسرار تركيب الوصفات العلاجية. قالت لها الأرملة العجوز: «أريد أن أقول لك سرًّا يا نظمية». وهنا أنصتت التلميذة بكلِّ جوارحها لما ستقوله المعلمة: «هل تعرفين الشتلات التي أصنع منها دواء ألوان، هذه شتلات حشيش».

اندهشت الحجة نظميَّة وعدَّلت من جلستها: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!» حارت فيما تردُّ به على أرملة النحال، فطالما اعتبرتها امرأة تقيَّة متدينة أشد ما تكون بعدًا عن ممارسات أخلاقية ملتوية مثل تدخين الحشيش.

ضحكت أرملة النحال: «مثل هذا السر يجعل نظمية الصبية أيام زمان تطمع أن تجربه لتعرف ما هو». حملقت الحجة نظميَّة فيها بدهشة وشهية مفتوحة بالفعل. امتلأت عيناها بشقاوة قديمة وارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة، ثم انفجرت بضحك صاخب وصل إلى مسامع الجيران. وبعدما ضحكتا سوية وتخلصتا من كل ما في نفسيهما من تعاسة وشقاء، همست الحجة نظميَّة بنبرة تآمرية:

«يعني طول السنين التي عرفتك فيها كنتِ يا مقصوفة العمر تدخنين الحشيش؟ كيف مر عليَّ ذلك ولم أعرفه؟»

فقالت الأرملة: «اسمعي يا أم مازن، أنا أيضًا امرأة تخاف الله. لكنه هو الذي خلق هذه النبتة لعبيده ولم يحرمها عليهم». فوافقت نظميَّة على هذا الكلام.

ورغم تقارب الحجتين في العمر إلا أن الأرملة نجحت في إشعار نظمية بعاطفة من الأمومة. حينها ساد نوع من النظام في البيت، وشكَّلت الحجتان حلفًا واحدا لتحضير العلاج، والتمتع بجلسات «الكيف»، والتآمر والتدبير، والصلاة والدعاء لأجل إعادة الحياة إلى بيتهما. عملتا كتفا لكتف لأجل أن تستعيد ألوان صحَّتَها، ولعودة نور إلى صوابها، واستمرار رِتْشَلْ في تفتُّحها.

(62)

كانت ماما صادقة الالتزام بدينها ولم تخفِ امتعاضها ممن هم ليسوا كذلك. لكن الموت الزاحف من ثدييها غيَّرها وخفف من تشددها في المسلكيات الاجتماعية. فما كان منها إلا أن تمسكت بنور وأصبحت أكثر قربًا منها. ولما اكتشفت كلٌّ من نور وماما القاسم المشترك بينهما، أي خوفهما من الفقدان والوحدة والحاجة إلى الحب، تشكَّلت بينهما علاقة أخوَّة.

بعد ستَّة أسابيع من تناولها وصفة أرملة النحَّال الفظيعة وشعورها العام بالتحسُّن، ذهبت ألوان في الصباح الباكر لمراجعة الطبيب. ركبت هي ونور باص المواصلات البنِّي الصغير، جلستا فيه وتدثرتا بغطاء مشترك من العزلة. في العيادة، وبينما سحبت الممرِّضة عيِّنة دم من ذراع ألوان، تتبعت الاثنتان معا كل ما تفعله بصمت. قالت: «هذا الفحص يكشف لنا علامات المرض ويبين نسبة ارتفاعها أو انخفاضها. لكن للأسف، لم يعد بإمكاننا الاعتماد على نتائج هذه الفحوصات بنسبة مئة بالمئة يا أم خالد، لأن مواد الفحص تأتينا عبر الأنفاق من

دون تبريد ولا التزام بالمعايير. لذلك فنحن لا نعرف إن كانت صالحة أو فاسدة. على كل حال، سنفعل ما باستطاعتنا والباقي على الله. والآن اذهبي للأشعة من أجل الصورة. أمامك طابور طويل، ستنتظرين ثلاث ساعات تقريبًا قبل رؤية الدكتور». تمتمت ألوان: «الحمد لله على كل حال».

أثناء انتظار الطبيب شبكت ألوان يديها، ثم فردتهما على جنبيها، ضغطت على أصابعها، ثم طرقعت مفاصلها. فمدَّت نور يدها وضغطت على يد ألوان، انزلقت من عزلتها إلى عزلة ألوان. وهكذا جلستا، يجمعهما شوق واحد وصامت للحياة، للمزيد المزيد منها، ومهما بلغ عذابها.

عندما جاء موعد الفحص خلف الستارة أصرَّت ألوان على بقاء أختها نور معها. تحسَّس الطبيب جسد ألوان العاري والمغطى بشرشف مزخرف بالزهور. أبقت المرأتان يديهما متشابكتين.

قال الطبيب: «حسنًا. ارتدي ملابسك ودعينا بعدها نتكلم». ارتدت ألوان ملابسها على عجل بمساعدة نور وخرجتا. وجدتا الطبيب يمسك بصورتي أشعة ويقارنهما تحت الضوء. رأت كلتاهما الصورة التي يحملها في يسراه، ويبدو فيها وَرَمَان بحجم حبَّة الفستق في منطقة الثدي.

نطقت شفتا الطبيب قائلة: «ألوان، أنا لست واثقًا تماما مما يحدث»، ولكن عينيه كانتا تقولان شيئًا آخر. لقد قالتا لألوان إن الصورة في يمناه، الخالية من الفستق، تُظهر أن الوَرَمَيْن بالكاد يُريان.

قالت ألوان ويد نور لا تزال في يدها: «أصبحت أحس بتحسن». فردَّ الطبيب: «مثلما تعرفين ليست لدينا إمكانيات تصوير متطورة غير صور الأشعة التي ليست دقيقة بما يكفي. لكن مقارنة بالصور الأولى قبل أشهر من الواضح أن الأورام تقلَّصت. يحدث أحيانا مع بعض الناس أن المرض يمر بحالة كمون وعندها تتوقف الأورام عن النمو. لكن نادرا جدا ما أرى أورامًا تتقلص لهذه الدرجة. على كل حال، الورمان لا يزالان موجودين لكن حجمهما أصغر بكثير من السابق».

تبادلت ألوان ونور النظرات وضغطتا على يدي بعضهما، وتمتمت ألوان بنبرة حريصة على عدم الإفراط في الثقة: «الحمد الله، وحده يعلم الغيب».

وبينما كانتا تنتظران مجيء باص المواصلات الصغير، وجدت ألوان رقعة من الأرض أدّت عليها صلاة الشكر. وفي الباص، تحدثت نور بحماس عن دواء الأرملة، وكيف ستنقلان إلى العائلة الخبر السعيد. كما قالت إن غداء الجمعة المقبلة سيكون رائعًا بحضور الإخوة وزوجاتهم وأبنائهم جميعًا. عندها زجرتها ألوان: «لا تظلي تطنطنين بهذا الموضوع يا نور. الحديث الكثير عن نعم ربنا أمام الناس ليس بالأمر الجيد، فعين الحسود تفلق الحجر. كما أنني أريد الحديث معك في موضوع ثانٍ».

خفّضت ألوان صوتها وغلّفته بنبرة من المحبة والتعاطف: «أنا لاحظت يا نور أنك من مدة لم تستعملي الفوط النسائية و...»

بهتت نور، إذ لم تتوقع أبدا أن ألوان متنبهة لأمر كهذا: «ماذا؟»

«نور، أريد منكِ أن تعرفي أنني في صفك». اقتربت ألوان أكثر عندما رأت نور تجهش بالبكاء. منذ ذلك المساء الذي قرأت فيه الرسالة فوق الشاطئ أصبحت دموعها سريعة الانهمار. ساد الصمت لبعض الوقت ثم قالت نور: «بحياتي لم أشعر بأي قيمة لوزني الزائد إلا عندما اكتشفت... اعتقدت أنه سيساعدني في إخفاء الموضوع لمدة من الوقت».

أدارت نور رأسها وراحت تتطلع إلى الشارع، لكن ألوان تمكنت من رؤية صحراء من الوحدة في عينيها. اعترفت بأنها كتبت لجمال وأخبرته بوضعها لكنه تجاهلها. قالت إنها ظنت في البداية أنه بحاجة لبعض الوقت كي يُفكر في الأمر، ولكن أسبوعا مضى دون أي رد. ثم تهيأ لها أنه ربما لم يتلقَّ رسالتها الإلكترونية ولذلك أعادت إرسالها مرة ثانية. وبينما راحت نور تتكلَّم كانت ألوان ترى ضباب الاكتئاب في عينيها.

قاطعتها ألوان: «ابن الكلب، ما تصورت أبدا أنه خسيس لهذه الدرجة!» ثم

قالت ما تعرفه نور جيدا: «هنا في غزة لا تستطيعين أن تخلفي ولدًا من غير أن تكوني متزوجة. يجب أن نجد حلا ويجب أن لا تدري أمنا بالموضوع».

شيء ما في الطريقة التي قالت بها ألوان «أمنا» جعل نور تجهش بمزيد من البكاء.

مازحتها ألوان بمزاح لا يخلو من حقيقة: «ماشي، عيطي وفشي خلقك، لكن كثرة البكاء أيضًا ليس مسموحًا بها في غزة».

عندما دخلتا البيت ظنّت ألوان أن شيئًا ما يحترق، لكن نور عرفت تلك الرائحة. كانت عيون الحجة نظميَّة والأرملة محمرَّة ولم يبدُ عليهما أنهما لاحظتا دخول ألوان ونور.

«يمّه، شو هالريحة؟ ما الذي يحدث هنا؟ أين رِتْشَلْ؟» سألت ألوان وذعرها يزداد مع كلِّ سؤال.

«أهلا يا حبيبتي أهلا»، ردت الحجة نظميَّة ورفعت ذراعيها بحب لتشير لابنتها بالاقتراب: «رِتْشَلْ مع أولاد أخوالها، الليلة لا أحد بالدار غيرنا. اقعدي وخرفينا عما قاله الحكيم، لا تخافي يمّه، سنسمعه معًا مهما كان».

ما زالت ألوان غير واثقة مما يجري وإن اطمأنَّت بعض الشيء. ووسط حيرتها لحال العجوزين أدلت بالخبر على نحو عابر. استدارت نحو أرملة النحال وافترَّ ثغرها عن ابتسامة كبيرة وقالت: «وصفتك المقرفة جابت نتيجة». صرخت نظميَّة وصارت تغني على نحو غير مفهوم ثم أطلقت العنان للزغاريد. ضحكت الأرملة حتى اهتزت طبقات شحمها، ثم قرَّعت الحجة نظميَّة محذرة: «روقي يا امرأة! وإلا سيفزع علينا الجيران. أترضين أن يرونا على هذه الحال؟»

«دخيلك لأ لأ»، وراحت تحاول كبح جماح نفسها.

«ماذا تدخنّ؟» أشارت ألوان بنبرة اتهامية إلى سيجارة ملفوفة.

وضعت نور يدها على كتف ألوان: «ألم تحزري بعد ما الذي يجري هنا يا حبيبتي؟»

لكن ألوان حقا لم تكن قد فهمت. ففهّموها.

زاد ضحك الحجة نظميَّة علوًّا. ولم يطل الوقت بألوان حتى راحت تجرِّب هي الأخرى. سعلت بقوَّة تكفي لإفراغ ما في بطنها، ودار رأسها بعدما سحَبَت نفسين فقط.

قالت: «الله يغفرلي! هذا جنون!»

فردَّت الأرملة العجوز: «ما الذي تقولينه يا بنتي؟ لم تفعلي شيئًا حتى يغفره الله لك. الله خلق هذه العشبة مثلما خلقك وأعطاكِ إياها لتعالجي مرضك».

رفضت نور أن تدخن وراحت بشكل غريزي تحرك يدها على بطنها. لكن تلك الحركة ومحاولة ألوان المضطربة إلى النظر بعيدا لفتت انتباه الحجة نظميَّة. توقَّفت عن الضحك تمامًا وقالت: «هنالك شيء تخفيانه عني وبدي أعرفه».

عندها بدأت نور بالبكاء.

قالت الأرملة العجوز بحماس: «لا تخافي، أنا سأساعدك. سأصنع لك دواء يساعدك على ما في الموضع الذي وضعتِ يدكِ عليه».

(63)

افتقرت شخصية نور إلى توخي الحذر وأخذ الحيطة. كانت تخوض غمار هذا العالم بساحة مكشوفة بلا أسوار أو تحصينات. وهذا ما أغرى بها الطامعين وجذب إليها الحُماة من الطيبين. كانت تفوقنا جميعا في مستوى التعليم وما ناله من حظوظ في هذه المجالات، كما كانت أفضلنا كذلك فيما هو متاح لها من فرص ومستقبل واعد. لكن آلامها من بين آلامنا جميعا كانت هي الأشد. لقد استمدت قوتها من شعورها بحاجة الآخرين إليها. ولهذا عرفنا أنه لا بد لنا إن أردنا حمايتها من أن نكون بحاجة لها.

تعاقبت الأيام وراح بطن نور يتكوَّر شيئا فشيئا. راقبته النسوة في البيت بقلق متزايد، وحاولت هي جهدها أن تتحاشى الحديث معهن حول ذلك، لأنه تحول إلى سؤال واحد ملح: «ماذا ستفعلين؟»

ذهبت يوميًّا إلى مقهى الإنترنت، وجلست هناك مع خطيئتها السرِّيَّة. أمِلَت استلام رسالة من جمال، أو التقاط إشارة من نَزِنْغا عبر سكايب. كانت تكتب رسائل إلى جمال، ولكنه لا يرد عليها أبدا. جرَّبت الاستعطاف أولا، ثم صبَّ اللعنات ثانيا، علَّها تستفزه للرد أو لفعل أي شيء يحد من اتساع صحراء قلبها القاحلة المترامية. لكم كانت حمقاء! كيف توقَّعت من رجل أن يحبَّها في حين أن أمها نفسها لم تستطع ذلك؟ لا يمكنها أن تلومه. ليس فيها أصلا ما يستدعي الحب، ما هي إلا امرأة تتسبب في هدم بيوت الآخرين، سمينة بساقين أشبه بجذع شجرة وعجز كبيرة، فلا أحد يستطيع إنقاذها. ذهبت إلى الحمام، انحنت فوق فتحة المرحاض، وضعت إصبعيها في حلقها، ولكنها توقَّفت، احتضنت بطنها ونهضت.

ذهبت مرَّتين إلى مكتب جمال وانتظرت في الخارج، لكنه لم يدخل إلى البناية أو يخرج منها. كان ما هو متاح من وقت قبل افتضاح الأمر يوشك على النفاد. وكذلك ما تملكه من نقود وأفكار لتدبر الموضوع. ذهبت إلى حي الرِّمال، حيث يسكن، ولكنها لم تره يدخل بيته أو يخرج منه، ولا حتى زوجته.

اتجهت إلى البحر المتوسط، مشت على شاطئه حيث زحف غزاة كثيرون منذ فجر التاريخ. لطالما كانت غزة موطنا للمحاربين والناجين من قبضتهم. لملمت نور بقايا شجاعة منثورة في الرمل وعادت إلى حي الرمال. صعدت درج البناية وطرقت باب بيته. لم يجب أحد، طرقت ثانية، فانفتح باب الجيران. أطلت شابَّة في العشرينات تحمل كتبا في يدها، لا بدَّ أنها في طريقها إلى مدرسة أو جامعة.

قالت: «مرحبا! تريدين زوجة أخي؟»

«هل أنتِ أخت الدكتور جمال؟»

«لا، أبدا. الدكتور جمال رحل من هنا وأهلي استأجروا شقَّته حتى يسكن فيها أخي وعروسه».

سقط شيءٌ داخل نور من مكانه، لعلَّه قلبها، ولكنها أمسكت به قبل أن يصطدم بقاع حياتها ويتكسَّر: «أتعرفين أين ذهب مع عائلته؟»

«هاجروا إلى كندا. كانوا منذ مدة قد تقدموا للحصول على الهجرة، وأخيرا قبلوا واستلموا الأوراق. أقاموا حفلة كبيرة من شدة فرحهم، يا بختهم! يا أختي تبدين تعبانة، هل أحضر لك كأس ماء؟»

«لا، شكرًا. أنا صديقة للعائلة وكنت مسافرة ولم أعرف أنهم هاجروا. على كل حال شكرا جزيلا لك، والله يوفقك في دراستك، بخاطرك».

حذاء بالٍ، حائر وفي جوفه طفل، عاد إلى الجلوس على الشاطئ من جديد. الحمد لله على نعمة البحر. اعتقدت حينها أنها ستشرع في البكاء ولكنها لم تفعل. قذفت الأمواج بأغنية فانبثقت كلماتها من داخل نور وراحت ترقص فوق الشاطئ:

جذْني
أنا في الأزرق
بين السماء والماء
حيث الزمان كلُّه الآن
ونحن الأبدية
نجري كنهر.
ابحث عني
حيث النهار لا ينتهي
حيث الليل لا ينقضي
ليس من ساعات هنا
في الأزرق

ما بين السماء والماء
ليس من بلاد هنا
ليس من جنود
ليس من عذاب أو فرح
بل فقط ذاك الأزرق
ما بين السماء والماء

عندما بدأت الشمس بالمغيب مشت نور إلى البيت. توقفت في طريقها ودخلت مقهى الإنترنت. وأخيرًا، الأيقونة التي تحاذي اسم نْزِنْغا على سكايب تلمع. راحت نور تكتب بسرعة:

«نْزِنْغا! لكم أنا سعيدة أن أجدك على الخط. مشتاقة كثيرًا».

«أهلا حلوتي! أنا مشتاقة أيضًا. هل ما زلتِ في غزة؟»

«أجل. هل لديك وقت للحديث؟ بإمكاني استعارة سمَّاعات للأذنين، ولكن لا مجال لرؤية وجهي لأن تشغيل الكاميرا يستهلك كثيرا من الطاقة. كما أن الكهرباء قد تنقطع في أي لحظة وهناك أمر ضروري لا بدَّ أن أخبرك به».

«طبعًا يا حبيبتي. هدِّئي من روعك، هل أنت بخير؟»

أخذت نور نفسًا عميقًا وانهمرت الدموع من عينيها بينما كانت تحاول تثبيت السماعات في أذنيها، قالت: «نْزِنْغا، أنا بحاجة ماسَّة لأن أكلِّمك. أنا في ورطة، وأنا... »

«هل يتعلَّق الموضوع بالمنحة؟»

كانت نور قد أسَّست مكتبًا صغيرًا في مخيَّم النصيرات لأجل جلسات علاجية فردية وجماعية للنساء والأطفال. ولهذا سعت وراء الحصول على تمويل لذلك المشروع. تلقَّت وعدًا بمنحة صغيرة من الاتحاد الأوروبي، لكنها لم ترغب في قبول أموال أوروبية أو أمريكية. بل راسلت نْزِنْغا للحصول على تمويل من مصادر إفريقية.

«كلا، أقصد أجل ولكن...لا...الموضوع هو...» فجأة تبددت الكلمات من رأس نور.

«حسنا. اهدئي وأخبريني بكلِّ شيء. لو انقطع الخط، اعثري على أي وسيلة واكتبي لي رسالة إلكترونية. كنت بصدد الكتابة إليك لأنني سأحضر مؤتمرًا للدول الإفريقية سيعقد في مصر الأسبوع المقبل، وظننت أنها فرصة لرؤيتك لأننا سنكون قريبتين من بعضنا. لكن قولي لي حبيبتي، ما الذي يزعجك؟»

«إنه جمال».

هنا ندَّ عن نْزِنْغا صوتٌ عرفت منه نور أنه صدر من شفتين مزمومتين وحاجبين مقطَّبين وأن نزنغا كبتت لعنات أرادت صبَّها على ذلك الاسم. كانت نور قد كذبت عليها من قبل وقالت لها إن العلاقة انتهت وإنها تركته ومضت في حياتها على نحو طبيعي.

بدأت نور حديثها بالقول: «ترك غزة إلى الأبد...مع عائلته».

«لا أعاده الله! نور، إنني أعرف أنك قد تكونين كسيرة القلب، لكنني حذرتك من أن هذه العلاقة لن تنتهي على خير. لحسن الحظ أنها لم تدم طويلا، وأن بمقدورك الآن تخطيها ومواصلة حياتك بشكل طبيعي. لديَّ أخبار عن المنحة، والآن...» توقفت نْزِنْغا عن الكلام، ثم قالت: «نور؟»

تحرك شيء داخل نْزِنْغا، داخل ذاك المكان الذي تحتفظ فيه بذكريات بدأت حينما وقع بصرها وهي عاملةٌ اجتماعيَّةٌ شابَّةٌ على صغيرة سمراء قمحية ذات شعر أسود جعد تتشبَّث بجدِّها المحتضر. وعلى مرِّ السنين، امتلأ ذلك المكان بذكرياتٍ ومعرفةٍ ومحبَّةٍ نمت بينهما. ومن هناك تحركت كلماتٌ لم تلحظها نْزِنْغا حتى سمعتها وهي تخرج من فمها: «نور، هل أنت حامل؟»

تكلمت معي أختي في تلك الهنيهات التي تسبق الاستغراق في النوم. ثم تزاورنا في أحلامها. عَرَفَتْ أنني سأكون معها على الدوام، حتى وإن لم تتذكَّر تلك الأحلام عندما تستيقظ.

كان عود المصاصة يتدلى من بين شفتيٍّ رِتْشَلْ، وأصوات المصِّ تتعالى وهي تراقب قطع الملابس المطويَّة تصطف واحدة فوق أخرى.

قالت: «خالتو نور، أتسمحين لي أن أذهب معكِ إلى مصر؟»

فتوقَّفت نور عما هي فيه وابتسمت معتذرة: «ما بقدر آخذك هذه المرَّة يا حبيبتي».

«لماذا ستذهبين لمصر؟»

«لأنني أريد أن أزور واحدة من صاحباتي كانت تعتني بي عندما كنت بنتًا صغيرة مثلك. وأيضًا أريد أن أعرف أخبار منحة مكتبنا الجديد الذي سندهنه أنا وأنتِ عندما أرجع».

فابتسمت رِتْشَلْ وقالت: «أتسمحين لي أن أختار لون الدهان؟»

«طبعا! سأخصص حيطة كاملة ليخربش عليها الصغار».

اتَّسعت عينا رِتْشَلْ من الدهشة: «يااااي! ستسمحين لكل الأولاد أن يكتبوا على الحيط؟»

اندهاش رِتْشَلْ من تلك الفكرة أسعد نور: «أيوه! وتستطيعين أن تختاري اللون الذي يعجبك لندهن باقي الحيطان».

«متى؟»

«بعد أن أرجع من مصر على طول».

«متى؟»

«بعد أيام قليلة فقط».

«طيب وإذا حجزكِ المصريون أو الإسرائيليون؟»

«أنتظر حتى تفتح الحدود»، توقَّفت نور وقبَّلت خدود رِتْشَل: «أؤكد لكِ أنني سأرجع».

«وعد؟»

تردَّدت نور ثم ابتسمت: «وسأحضر لكِ هدايا أيضًا».

(65)

انتقلت أرملة النحال للعيش في بيت الحجة نظميَّة بشكل دائم. لم يتذكر أحد متى حدث هذا أو كيف، لأن وجودها هناك كان طبيعيًّا جدا. ساعدهم جسدها الضخم في سدِّ الفجوة التي خلَّفها غيابي. اقترحت علاجا لورطة نور، فلم يخف على الجميع ارتياع نور منها. بل إنها أرعبتهم هم كذلك. لكنهم ظنوا أن الجانب الأميركي من نور يمنعها من استيعاب كافة عواقب إنجاب ابن بالحرام. كانت ماما هي من فاجأتهم بقولها: «الحرام صارِ وخلصنا، أما الذي ستخلفه نور إن شاء الله فهو ولد من لحمنا ودمنا». أما ما اقترحته الأرملة بقولها إن الناس لن يكترثوا كثيرا لأن نور نشأت في أمريكا حيث لا ضير من مثل هذه الأمور فكان كلامًا فارغًا. نظرت ستي إليها بطرف عينها وقالت: «لأول مرة تكون ابنتي صحّ وأنا غلط. إجهاض جنين من لحمنا ودمنا هو أيضًا شيء حرام. حتى لو لم يعرف الناس، يكفي أن الله يعرف». بعد ذلك، انفتحت شهيتهن على المؤامرات والدسائس. لم لا تلد نور خارج غزة ثم تعود بالطفل وتقول إنها تبنَّته؟ أو لتسافر إلى أي مكان وتعود متظاهرة بالزواج وفي إصبعها «دبلة». حينئذ سيقلن إن زوجها حاول المجيء لكنه منع من دخول غزة. ولم لا يقلن إنها كانت متزوِّجة أصلا

عند قدومها إلى غزة، ويبررن حملها بزعم أنها زارت زوجها في مصر قبل وقوع الطلاق بينهما. كيف يستطيع أيُّ شخصٍ أن يثبت عدم صحة هذا الكلام؟ وهكذا بدأت كلٌّ من سني وأرملة النحال وحتى ماما تخيُّل وجود طفلٍ في البيت.

راقبت ألوان نور وهي تدخل إلى غرفة العائلة تحمل حقيبة كبيرة. بدت لها مثل من ينوء بحمل خطيئته فتنحني هامته راجيًا الخلاص. إنها تعتزم الخروج باكرا في الغد، قالت نور: «لقد انتهيت. وضعت القليل من الأغراض في الشنطة وتركتها شبه فارغة، إن شاء الله ستمتلئ في طريق العودة. لكن، لم تقلن لي بعد، ماذا تردن مني أن أحضر لكن معي من القاهرة؟»

قالت ألوان: «لا نريد منكِ إلا أن تسافري وترجعي بالسلامة».

أما الحجة نظميَّة فردت معترضة: «لا تتكلمي إلا باسمك وبس! أم إسحاق أعطتك عمرها الشهر الماضي، رحمة الله عليها، وربما أبو إسحاق يبحث الآن عن عروس. يجب أن أجهز نفسي»، كركرت بالضحك وتابعت: «أحضري لي معك قمصان نوم يفتحوا النفس، لا تدرين، ربما يبعث الله لي بعريس». ضجَّت الحجة نظمية والأرملة العجوز بالضحك، سيما وأن ألوان، وكما هو متوقع، طار صوابها اشمئزازا. عندما استردت الحجة نظمية أنفاسها قالت لألوان: «يمَّه يا حبيبتي، أنا أمزح فقط. أساسا طابقي التحتاني مهجور من زمان، وربما أكله الصدأ». كاد يغمى على الحجتين من الضحك وفقدت الأرملة السيطرة فبالت على نفسها، قالت: «شوفي يا سافلة ماذا فعلتِ! وتسمين نفسكِ حجَّة!»

لم تتمالك نور وألوان نفسيهما فراحتا تضحكان وهما تساعدان الأرملة على النهوض لتغيير ملابسها. وهنا قالت الحجة نظميَّة: «لولا هذه الشْخاخة التي تشرشر منا شرشرة لنسينا أساسا أنه موجود!» أسرعت الأرملة نحو الحمام وهي تصيح على الحجة نظميَّة من بين أنفاسها المتقطِّعة من شدَّة الضحك: «لعنة الله عليكِ! جعلتيني أشخ أكثر!»

«أنتِ تعرفين جيدًا أن كلامي مزبوط. يعني أنا ترملت نصف المدة اللي

ترملتِها أنتِ، ورغم ذلك فإن طابقي التحتاني هابط من زمان ولم يعد ينفع لشيء». فلت المزاح من زمام سيطرة الحجة نظميَّة.

همست ألوان: «الحمد لله لا أحد يسمعك غيرنا!»

عادت أرملة النحال وقد أشعلت بخورًا في وعاء صغير. بقين في عالمهن الخاص حتى المساء، عالم من النساء والمرح والبخور. حضَّرن العشاء، وعادت رِتْشَلْ متعبةً بعد ساعات من اللعب. تناولنه معًا، رِتْشَلْ تضحك كلما ضحكن حتى ولو لم تفهم السبب. حكت لهن نكاتًا سخيفة بلا معنى، ولكنهن ضحكن حتى لا تبتئس. بعد تنظيف صحون العشاء، حمَّمت ألوان ابنتها. ورغم إجهاد رِتْشَلْ إلا أنها رفضت الذهاب إلى فراشها، فقد شعرت بأن الكبار سيقضون وقتًا ممتعًا بدونها. راح جفناها يهبطان ثم يخفقان كلما تغيرت طبقة صوت الجالسات إلى أن غلبها النوم فالتصقت بأمِّها. أما نور فتمنت للجميع أن يصبحن على خير وبكَّرت في الذهاب إلى النوم.

بعدما عمَّ هدوء الليل أركان البيت، التفتت الأرملة نحو ألوان التي أسندت ظهرها إلى الحائط واحتضنت ابنتها الغافية: «متى ستستأصلينهما؟»

بوغتت ألوان بهذا السؤال لكنها استجمعت نفسها وذاكرتها: «علَّمت التاريخ على الروزنامة. قال لي الدكاترة أنه سيكون هنالك مكان فارغ لي بعد أسبوعين إن شاء الله، إلا إذا هاجمتنا إسرائيل قبل ذلك وامتلأت المستشفيات من جديد».

«لا تحزني، هذا أحسن لك»، قالت الأرملة العجوز وتابعت: «ما دامت الأورام صغرت فيمكن بعد الاستئصال أن تشفي تماما إن شاء لله».

قالت الحجَّة: «وما الفائدة منهما يا حسرة بعد أن لم يعد هنالك صغار يرضعونهما وزوج يمصهما!» كان الكيل قد طفح بألوان من مثل هذا الكلام فقاطعت أمها بلهجة حازمة: «يُمَّه، بكفي!»

فردت الحجة نظميَّة بلهجة اعتذارية يلوح فيها التعب: «طيِّب يا حبيبتي! لكن لا تزعلي، لم أقصد إلا أن أضحككِ».

قالت ألوان: «سامحيني يمَّه، أنا تعبانة. تصبحوا على خير».

قالت الحجة نظميَّة: «طيِّب...طيِّب. تصبحين على خير يا حبيبتي». تقلَّبت في فرشتها علَّها تشعر بالراحة ثم أمسكت مخدَّة صغيرة وقذفتها نحو الأرملة لقطع شخيرها. قالت: «يا باي كم أكره أن تغفو قبلي! شخيرها مثل صوت المجرشة!»

ردت ألوان وهي تحمل رِتْشَلْ إلى غرفة النوم: «يُمَّه لمِ لا تأتين للنوم معنا على التخت؟ ثم هل تحسبين أنك تشخرين بأغاني أم كلثوم مثلا؟».

فأجابت الحجة نظميَّة وهي تتناول مزيدا من المخدات: «أحب أن أنام هنا. أنتِ اذهبي نامي على التخت ولا تحملي همي. لكن أحضري لي أشياء أرميها عليها ساعة اللزوم».

وضعت ألوان رِتْشَلْ على السرير بجانب نور. انتابها شعور رائق في تلك الليلة فخرجت لتتمشى قليلا. كانت الأزقَّة مزدانة بضوء القمر. رغبت في الذهاب إلى البحر، لكن وقع خطاها أزعج سكينة الليل، فجلست على عتبة الدار واتَّكأت على الباب الحديدي. وهناك وسط ما في عتمة الليل من صمت، التقطت أذناها دندنة هوام تزحف وترفرف وتصرُّ وتسعى بأمان في جنح الظلام. رحَّبت وسلَّمت على كل تلك الكائنات الصغيرة وهي تتسلقها، وشكرت الله على دواء الأرملة، ثم دعته أن يبقيها على قيد الحياة مدة أطول.

(66)

نِزْنغا كانت متزوجة ولديها ثلاثة أطفال عندما أنهت نور متطلبات شهادة الماجستير. وقد حضرت حفل التخرج الثالث في حياة نور الدراسية مع سائر أفراد عائلتها. كانوا وسط بحر الحضور مثل جزيرة صغيرة تضج بصخب عارم.

لوَّح أطفال نُزِنْغا بلافتات عليها اسم نور، وصفَّروا وصفقوا عندما نودي على اسمها لاستلام الشهادة. ابتسمت نور ابتسامة عريضة وأرسلت لهم قبلة من فوق خشبة المسرح.

كان سفرها إلى القاهرة طويلا ومضنيا، ولكنه أسهل مما توقَّعت. كان معبر رفح مفتوحا وعبوره جرى بلا متاعب تذكر تقريبًا. وكالعادة، لم تستغرق إجراءات رجال الأمن التابعين لحماس سوى دقائق معدودة. كما أنها لم تنتظر على الجانب المصري أكثر من ساعتين. وبعدها مضت في طريقها إلى القاهرة وهي تتأرجح فوق مقعد خلفي في باص صغير مع غيرها من المسافرين. وضعت يدها على بطنها ومسَّدته، فدندنت راحتها بتهويدة للسر القابع في بطنها. لم تكن الوحيدة التي مرت بمثل هذه الورطة في غزة. ومهما كان عددهن، قلَّ أم كثر، فإنهن جميعا قصدن مصر حين استطعن إليها سبيلا، ثم عدن بأرحامٍ خالية وعيونٍ خاوية.

نظرت نور إلى ساعة جوالها وهي تتلهف للوصول إلى الفندق الذي تقيم فيه نُزِنْغا. كان لا يزال أمامها ساعتان على الأقل. لفَّها صمت سيناء الهائل والمغرق في القدم فيما كانت كثبانها الرملية تسرع مهرولة في تخطي نافذتها. أغلقت عينيها وإذ بأفكارها تهيم وتتحول إلى أحلام.

وهناك، كان خالد يلتقط الكلمات عن الأرض، خرزات صغيرة متناثرة هنا وهناك، وينظمها معا ليصنع منها عقدا. سألته: هل هذا لي؟ فأجاب: طبعًا. هل كنتَ أنت دائمًا في أحلامي؟ ردَّ ثانية: طبعًا. ماذا عليَّ أن أفعل يا خالد؟ قال: «ساعديني في التقاطها جميعا». نظرت نور إلى الخرزات الكلمات: «حلوة»، «نور حياة جدُّو»، «ذكية». انحنت كي تلتقطها، ولكنها وقعت. كان السائق قد داس فجأة على مكابح الباص. ارتطم رأس نور بالمقعد الأمامي، ليس من راكب سواها. قال السائق: «فندق غولدن توليب».

كانت نور لا تطيق الانتظار وتتلهف لرؤية نُزِنْغا. لكن صاحبتها كانت

مشغولة في ورشة عمل حتى السابعة. نظرت في ساعتها فوجدتها تشير إلى السادسة. خرجت وتجولت في شوارع الزمالك. غطست الشمس وراء الأفق وسرعان ما بدأ الظلام بالتمشي معها. في غزة، كانت تحب حلكة الليالي المظلمة لأنها طيبة ومريحة. أما هنا فإن الليل قلق وعتمته تخفي مخاطر لا قدرة لها على تبينها. هل هي مخاطر حقيقية أم أن الحمل يجعل النساء أشدَّ يقظة وحرصًا على أجسادهن؟ عجَّلت الخطى باتِّجاه أضواء «غولدن تيوليب».

وجدت نْزِنْغا بانتظارها في ردهة الفندق تسأل عنها موظَّف الاستقبال.

«زنغي!»

تعانقتا بشوق شديد وسط دموع الفرح التي انسكبت على خدودهما. انهارت كل العواطف المأزومة داخل نور وخرجت كلها من حبسها. لم يبق من شيء سوى فتاة صغيرة في بطنها جنين تتشبث بيد نْزِنْغا.

*

تحدَّثتا أحاديث لها أول وليس لها آخر، وحتى بعد عشائهما المتأخر لاحقا، كان ما يزال في جعبة كل منهما المزيد والمزيد. شرَّقتا وغرَّبتا، استهلتا حديثهما بالكلام عن العلاقات ثم قفزتا من قارَّة إلى أخرى حتى وصلتا إلى الماضي. قالت نور: «أتدرين، لقد اكتشفت أن دور الرعاية لم تكن ذلك الشرَّ المطلق الذي كنت أحسبه. فأنا لم أواجه أو أشهد طيلة مكوثي فيها قصص الرعب التي أسمع عنها الآن. بل كانت توفر لي ما يكفي من طعام وحماية واحتياجات أساسية. كما أنني لم اتعرض فيها لتحرش أو إيذاء جسدي. ومع ذلك فإن الحياة فيها كانت تخلِّف جروحًا عميقة».

أصغت نْزِنْغا بحرص شديد وعينين فيَّاضتين بالأمومة، بينما تابعت نور كلامها: «خلال رحلتي عبر سيناء، اتضح لي سبب شعوري هذا. إنه السبب

الذي يجعلك الإنسانة الوحيدة في العالم كلِّه التي احتجت إلى رؤيتها في هذا الوقت من حياتي». توقَّفت نور، ثم راحت تعبث بالطعام في صحنها بشرود: «ما يخفف وطأة عيش منكوب هو أن يتوفر للمرء خيط ينظم سنيِّ عمره، أن يكون لديه شخص يعرفه حقَّ المعرفة، شخص عرفك ورآك منذ نعومة أظفارك. هذا ما أفتقده في غزة. إنهم يحبونني هناك، لا أشك مطلقا في محبتهم الأصيلة. لكنني أتساءل عن مدى معرفتهم بي. إنهم لا يرونني كما ترينني أنت يا نزنغا، إنسانة معطوبة وخائفة و...»

اعترضت نزِنْغا: «أنا لا أراك هكذا».

«أعني...لست أدري. إنني لا أعرف ماذا أفعل. لا أستطيع ولادة هذا الطفل في غزة، ولا أستطيع إجهاضه أيضًا. أما الولايات المتحدة فليس لي فيها ما يعيدني إليها، صِلاتي هناك تقتصر على مؤسسات وعدد قليل من الأصدقاء الذين لم تعد علاقتي بهم وثيقة».

«لنتناول الأمور بروِيَّة. أولا، أنا لا أراك إنسانة معطوبة وخائفة. بل أرى فيك القوَّة والتصميم، الفطنة والجرأة، الطيبة والحب، والقائمة تطول. لكنني واثقة من أن هذا ما يراه أهلك فيك أيضًا. ثانيًا، أنا أعرف أنك خائفة وأدرك أنك في وضع يبدو لك مستحيلاً. ولكنه ببساطة ليس كذلك. لقد عشت حياتك دوما بالطريقة التي رغبت بها. وهذا أمر كان متاحا لعدم وجود عائلة في حياتك. وطيلة ذلك الوقت توفرت لك فرصة اتخاذ قراراتك بنفسك واختيار ما تحبين من قواعد وضوابط تعيشين بحسبها. أما الآن وقد أصبحت لديك العائلة التي طالما اشتهيتِ، فإنك تشعرين وكأنك على مفترق طرق. وأن عليك الاختيار بين الانحياز إلى الشخص الذي أنت عليه والذي صنعتِه بنفسك، أو العيش وفق قواعد اجتماعية جديدة لصون وحب العائلة التي هي بدورها تحبك وتصونك. ما رأيك في هذا الكلام؟»

فقالت نور: «تجعلين الأمر يبدو بسيطًا، لكنه ما يزال خيارا مستحيلا».

تابعت نزِنْغا استخلاص عصارة فوضى نور الداخلية: «هل أنا محقَّة عندما

أقول أوّلاً إنك تريدين البقاء في غزة؟ وإنك ثانيًا تريدين الاحتفاظ بطفلك وتربيته؟»

«أجل».

«نعلم أنك لا تستطيعين ولادة طفل في غزة بلا زواج. لكن هل من المقبول أن تتبني طفلا وتربيه بنفسك دون أب؟»

كانت ألوان قد ألمحت إلى إمكانية ذلك وإلى خيارات أخرى يبدو أن نْزِنْغا قد فكَّرت فيها أيضًا. ناقشتا الاحتمالات المختلفة حتى بدا العالَم أقلَّ قتامة مما تصورته من قبل.

كانت نزنغا قد تمكنت من تأمين منحة حكومية لنور بفضل تاريخ عائلتها المشرف في الكفاح ضد نظام التفرقة العنصرية، وما حققته نزنغا نفسها من إنجازات باهرة في مجال العمل الاجتماعي. وهذا هو الخبر الذي أرادت نزنغا أن تزفَّه لنور، قالت: «كما تعرفين فإن المؤتمر الوطني الإفريقي طالما ساند نضال الشعب الفلسطيني، ولذلك فإن حكومته تخصُّ الفلسطينيين بالدعم من خلال كثير من برامجها الدولية».

تحسَّست نور بطنها وقالت: «ربما هذه هي المرَّة الوحيدة في حياتي التي أشعر فيها بالسعادة لأني سمينة. شكلي سيساعدني في التعمية على وضعي لشهر آخر أكون قد اهتديت فيه إلى حلٍّ. إنني عاجزة عن شكرك لمساعدتي في الحصول على منحة تمكِّنني من الاستمرار في مشروع الإرشاد النفسي. أشعر بالرضا لأنني أفعل شيئًا له معنى. إن المنحة تعطيني ما أحتاجه من وقت للمكوث في غزة دون الاضطرار للعودة إلى الولايات المتحدة».

«وماذا عن الشيء الآخر؟ أنت تدركين أنه لم يعد في مقدورك الآن الاستمرار في الإقدام عليه». وقعت كلمات نْزِنْغا ثقيلة على أسماع نور. «أوه! نور. لا داعي للنظر إلي بملامح الحيرة هذه. هل تعرفين لماذا أطلب منك دائما على سكايب أن تريني أظافرك؟»

زادت حيرة نور.

«لم أكن أنظر أبدا إلى أظافرك يا عزيزتي. بل كنت أبحث عن تلك العلامات فوق أصابعك من أثر العضّ عليها بأسنانك».

فردت نور كفها أمامها فرأت آثارا صغيرة لتكلُّسات جلدية اسودَّت فيما كانت سابقا حمراء متسلِّخة. لم يخطر ببالها قطّ أن أحدهم كان منتبها إلى تلك البقعة التي كانت تغرز أسنانها فيها عندما تجبر نفسها على التقيُّؤ.

أمسكت نْزِنْغا يد نور بحب وحنان: «وهكذا أيضا اكتشفت حقيقة مشاعرك عندما ذهبت إلى غزة وكيف بدا عليك أنك في وطنك وبين أهلك. لم يعد من وجود لتلك العلامات على أصابعك، اختفت تماما».

فقالت نور والدموع تجري من عينيها: «صحيح، لم أعد أفعل ذلك».

ردت نْزِنْغا: «ربما لا تتبصرين الآن ما سأقوله، ولكنني أظنُّ أن لذلك الرجل يدًا في إقلاعك عن تلك العادة. مجرد الشعور بحب حقيقي من رجل، حتى وإن كان لمدة قصيرة، شيء لم تألفيه أو تشعري به منذ وفاة جدك».

قالت نور: «ربما. وربما هو أيضا من جملة الأسباب التي دفعتني دوما للبحث عن خالي سانتياغو». وعندما أخذت الساعات بالتثاؤب، سألت نْزِنْغا عن آخر لقاء بين نور وأمها. فقالت نور: «لا أريد تكرار شرح موقفي بخصوص هذه المسألة الآن».

ردت نْزِنْغا: «الحقيقة يا نور أنك لم تتناولي هذه المسألة أبدًا. بل ظللت تبحثين عن مبررات كل مرة، كما تفعلين الآن، بأنك لا تريدين تكرار موقفك منها. ستصبحين أمًّا عما قريب، وقد يكون من المفيد أن تناقشي هذه المسألة الآن. لا بد لك أن تسمعي رأي شخص آخر بخصوص ذلك النوع من الأمهات الذي لا تريدين أن تكوني مثله. حدثيني عن تلك الأم التي لا تريدين أنت نفسك أن تكونيها. الليل كلُّه لك، لكن دعينا أولا نطلب فنجانين من القهوة».

(67)

كان سانتياغو، خال نور، مصدر حبٍّ حقيقي في حياتها، حتى وإن كان حضوره فيها قصيرا ومتقطعا. فعندما كانت نور ما تزال في المدرسة، كان أحيانا يتّصل بنْزِنْغا ليسأل ويطمئن عليها، ثمَّ يختفي لفترات طويلة، فتعرف نْزِنْغا أنه إما في إحدى دور إعادة التأهيل أو في السجن، أو في فترة من التعاطي الشديد للمخدرات. وعندما التقتا في القاهرة، أخرجت نور الهارمونيكا القديمة فرأتها نزنغا وقالت: «كان رجلًا طيِّب القلب مسكونًا بأشباح الماضي».

صبَّ النادل فنجانين من القهوة العربية للمرأتين.

«العرب بكل تأكيد يجيدون صنع القهوة»، قالت نْزِنْغا وهي تلاطف الشاب الذي قدم لهما الفنجانين. ابتسم لها بطيبة وقال: «العرب اخترعوا القهوة، يا مدام».

«حقا؟» سألته وهي تثبته حيث هو بعينيها البنيتين الكبيرتين: «دعني أسألك سؤالا يا بنيّ»، تفحَّصت بشرته السمراء وشعره الجعد: «هل تعدُّ نفسك عربيًّا أم إفريقيًّا؟»

«أنا مصري يا مدام».

«وهل المصري عربي أم إفريقي؟»

«كلاهما يا مدام»، ثمَّ تابع بعدما رأى بوضوح أن لديها مزيدا من الأسئلة: «إنني بصفتي مصريًّا أفتخر بكوني إفريقيًّا وعربيًّا، وهاتان صفتان لا تلغي إحداهما الأخرى».

فقالت وهي تواصل ملاطفتها له: «هل تقول ذلك لأنني سوداء؟»

فركل النادل الكرة وأعادها إلى شباكها: «وهل تعدّين نفسك سوداء أم إفريقية؟ أليس السواد تصنيفا قائما على اللون اخترعه تجار العبيد البيض ليقلِّصوا تنوع الثقافات وتعداد السكان في قارتنا؟»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه نزنغا فبدت الفرجة الواسعة بين ثنيتيها وكأنها باب لما في داخلها من طيبة: «ووووو! وسيم وبالغ الذكاء أيضا. لو كنتُ في سن الصبا لكان عليك أن تحذر! ما تقوله صحيح، ولكننا حجزنا الآن كلمة «أسود»، وبتنا نضع وحدتنا فيها، ونستمدُّ قوَّتنا منها». ضحكت، ولوَّحت له بالقبضة التي ترمز لقوَّة السود. «هل التقيت بصديقتي الشابَّة نور؟» في تلك اللحظة، احمرَّ وجهاهما وهزَّ كلٌّ منهما رأسه بأدب للآخر. ثم خاطبته نور بالعربية: «شكرًا أخي على هذه القهوة اللذيذة.» فردَّ: «أهلا وسهلا بالأخت»، وانصرف.

ما إن ابتعد عن مرمى السمع حتى همست نزِنْغا: «عليك أن تلاحقي هذا الأخ الوسيم يا نور!»

«نزِنْغا، أنت تذكِّرينني جدا بعمتي نظميَّة. لم يخطر ببالي هذا الأمر من قبل، ولكنكما فعلا تتشابهان كثيرا».

قالت نزِنْغا: «يبدو أنها امرأة رائعة. ينبغي لك أن تتعلمي قليلا من الملاطفة والمغازلة، لا ضير في ذلك».

تنهدت نور: «هذا آخر ما يخطر في بالي الآن».

«سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام. القرار الأوَّل الذي عليك اتِّخاذه هو ما إذا كنت تريدين الاحتفاظ بالجنين. أنت تعرفين شعوري نحو هذا الأمر، ولكن هذه حياتك وجسمك أنت».

«أظنُّك تعرفين ماذا أريد يا زنغي».

«قوليه إذًا».

تردَّدت نور، وخفضت صوتها وقالت: «أريد الاحتفاظ به».

«ماذا تريدين؟»

«الاحتفاظ به».

لكن تعابير وجه نزِنْغا طالبت بالمزيد. «أريد أن أكون أمًّا»، وانحدرت دمعة من عين نور. وكانت فاتحة للمزيد من الدموع الصامتة ثم المزيد من الكلمات.

«أريد شخصًا أحبُّه ويحبني. شخصًا يكون لي. لا بمعنى التملُّك، بل بالمعنى الروحي. أريد أن أعرف كيف يكون هذا الشعور».

قالت نِزِنْغا: «الحبُّ أفضل ما يدفع المرء لإنجاب طفل يا صغيرتي. وهذا الطفل غيَّرك حتى قبل أن يولد. لقد عرفتك معظم سنيِّ حياتك، وهذه هي المرَّة الأولى التي أراك تبكين فيها منذ أن كنت طفلة صغيرة. هذا أمرٌ جيِّد. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام. هذه هي نقطة البداية، حتى وإن كانت بداية صعبة. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام، ستكونين بخير أيتها الفتاة الجميلة». هذا الكلام جعل نور تبكي أكثر، لكن بصمت، وبشيءٍ من السعادة والارتياح.

سألتها نِزِنْغا: «هل يشغل بالك شيءٌ آخر؟» وانتظرت طويلا قبل أن يأتيها جواب.

«ماذا لو كنت أما سيِّئة...؟» تمكنت نور أخيرا من الكلام ولكنها ابتلعت تلك الكلمات في حلقها وشهقت بالبكاء.

أخذت نِزِنْغا يدها وقالت: «ليس فيك شيءٌ يشبه والدتك من قريب أو من بعيد». لم تقل نور شيئًا، فتابعت نِزِنْغا: «دعيني أسألك هذا السؤال: هل تحبين رِتْشَلْ؟ أعني، هل تشعرين عندما تنظرين إليها أنك تتمنين لها أفضل ما في الحياة؟»

«طبعًا».

«هذا هو الدليل الذي يبرهن لك أنك لست مثل أمِّك ولن تكوني مثلها أبدًا. لا بدَّ أنك أدركت منذ وقت طويل أن ما تعاني منه أمك هو الحالة الكلاسيكية التي تصفها الكتب المتخصصة بالنرجسية».

«سأحدِّثك عن آخر مرَّة رأيتها فيها»، أشاحت نور ببصرها بعيدًا، ثمَّ عادت وحدقت في فنجان القهوة. رشفت رشفةً، ثم أعادت الفنجان بأناة إلى الصحن. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. غطى الليل القاهرة الغافية بردائه بينما دخلت نور معمعة صدمة أليمة في ذاكرتها.

كنا نعيش في غزة داخل قفص كبير مقفل بإحكام. لا يستطيع في اليوم الواحد سوى خمسة أو ستة منا، ونحن مليون ونصف مليون إنسان، من الدخول إلى مصر أو الخروج منها. فاض البؤس في الشوارع واختمر مع تراكم سنين عجاف. لكن لقاء نور ساعدني على فهم الحرية التي تمتعنا بها رغم كل ما نحن فيه. لقد كنا نتحرَّق شوقا لرؤية العالم خارج حدودنا، أن نتشرَّب شمس شاطئ آخر، نفتح عيوننا على قمر سماء أخرى، ونمشي فوق تراب أرضٍ جديدة. أردنا أن نعيش، نتحرَّك ونسافر، نعمل، ننتج ونصدِّر. كان سجننا يقتصر على عدم قدرتنا على رؤية العالم أو فعل ما نريد، فكنا نهرب منه عبر إيجاد وسائل تمكننا من تذوق حلاوة العالم المحرم علينا. أما نور التي كانت وخلافا لنا غير ممنوعة من الحركة والسفر، فقد كانت تذهب إلى كل مكان، وبدلا من أن تمتص كلَّ رحيقه، كانت تجوب العالم محاوِلة إفراغ ما في نفسها. كان سجنها في داخلها، وما من مهرب لها سوى سلخ جلدها وطرحه عن عاتقها. هكذا كانت إلى أن نبت الحبُّ في بطنها وراح يكبر هناك.

لم يكن صعبا على نور أن تعثر على عنوان أمِّها. كانت قد انتقلت هي وسام للعيش في سان دييغو مع ابنيهما التوأمين، إدواردو وتوماس، اللذين كانا في الإعدادية. وفي ذلك الوقت، قررت نور أن تزور العائلة وهي لما تزل طالبة في الجامعة.

قبالة بيت أمِّها في ضاحية كْليزمونْت جلست نور في السيارة التي استأجرتها وانتظرت. بدأ الصبح يتنفس ويضيء الشارع على مهل. لاح اللون الأحمر للباب الأمامي وسط غبش الفجر، وتجلَّى سياج من أوتاد خشبية مهترئة كانت بيضاء ذات يوم، ويطوِّق السياج بيتا صغيرا مهلهلا. تذكَّرت نور أن أمَّها كانت

تريد دائما أن تعيش في بيتٍ يحيطه سياج من الأوتاد البيضاء. وطنّت في أذنيها كلمات انبعثت من مقبرة الذاكرة: «لم لا نستخدم صندوق الائتمان لشراء بيت؟ لماذا لا يتحقق ولو أمر لعين واحد في حياتي وفق ما أشتهي؟»

مرَّ عجوز يُمشّي كلبا عجوزا من جانب سيارتها فحملق نحوها بنظرات مرتابة. وشغل صوت خافت لقطة كانت تنبش سطل زبالة أحد الجيران انتباه نور. وعندما عاودت النظر إلى البيت رأت نسخة مأساوية لسام خرجت من البيت وسدَّت الباب وراءها. شعره الأصفر معفَّر برماد السنين، بنطاله الجينز رثٌّ وقميصه القطني أسود كأنما نسج من الهمّ. ورغم المسافة وصعوبة تبين معالم وجهه، إلا أن العين لا تخطئ هول الغمّ الجاثم في طياته. ترهّلت الحياة واضمحلت في جسده، كما لو أنها على عجلة من أمرها لتركه والفرار منه. مشى بخطى ثقيلة خاوية من أي تعبير. وراقبته نور إلى أن ابتلعه منعطف في آخر الطريق. استغربت من نفسها لأنها لم تشعر بالغضب. حاولت ولكن لم تفلح. فكلُّ ما أحست به هو الشفقة والرثاء فحسب.

فتحت أبواب البيوت الأخرى وأغلقت، وخرج منها رجال ونساء وأطفال في طريقهم إلى العمل أو الدرس. بعد وقت قصير أطل صبيَّان، لا بدَّ أنهما إدواردو وتوماس. كانا نحيلين، شعرهما بني منكوش، وفوق ظهريهما حقيبتان مدرسيتان. وحين حدقت نور في ملامحهما أبصرت خلفهما امرأة صغيرة الحجم في بنطال ضيق وسترة مشمشيّة جميلة. استدارت المرأة مباشرة لإغلاق الباب، لكن الولدين طبعا قبلتين على خديها، فارغتين من العاطفة وتبدوان بحكم العادة لا أكثر. ركضا بأقصى سرعة ثم اختفيا عند زاوية الشارع حيث اتجه بقية التلاميذ. عدلت المرأة عن إغلاق الباب واستدارت ثم وقفت. رأت نور وهي جالسة في السيارة وجه أمّها، شعرها مشدود إلى الوراء بإحكام. كانت السنون رحيمة بها، إذ بدت أصغر من عمرها حتى أن نور تفاجأت مما بدا عليها من جمال. اجتاحها إحساس دافئ وانتابها ضعف وإحساس بالصفح والغفران. تعثّرت يدها وهي تحاول العثور على مقبض الباب لتفتحه. وخرجت ووقفت

بجانب السيارة قبالة والدتها مباشرة. مدت المرأة رقبتها لتتبين هوية من يحملق فيها على الطرف الآخر من الشارع. ثم بهتت وظلت واقفة مثل صنم. حينها أدركت نور أن تلك المرأة قُدَّت من صخر، ولم يخف عليها ما ألَمَّ برأسها من أفكار جمَّدتها على ذلك النحو المفاجئ. ما همَّت به من ركض إلى ما تصورته ذراعين مفتوحتين لتلك المرأة سقط عليه سطل من هواء الصباح البارد، داسه حذاء بالٍ كبر وتضخَّم داخل نور. جمُدت في مكانها، وقدرها القاضي بحرمانها من نعمة الأم حبس أنفاسه وهو ينتظر على مفترق الطريق.

استدارت أمها على عقبيها نحو الباب الأحمر، عكس اتجاه حركتها السابق. راقبتها نور التي لم تعد قادرة على الحركة ولاحظت نحافة خصر أمها. باغتتها ذكرى مؤلمة:

«لم ترثي هذا القرف مني يا نوبيا»، قالت لها أمها ذات مرة وهي تقرص شحم بطن نور، «انظري إلى خصري كم هو نحيف». تلقائيا شدَّت الصغيرة نور بطنها إلى الداخل لتواري ما استطاعت من نفسها.

انفتح الباب الأحمر أخيرًا واختفت أمُّ نور خلفه. وحينها، تقيأت نور نفسها المحبوس في زفرة طويلة، انهارت ركبتاها وكادت أن تخرَّ أرضا. التجأت بسرعة إلى السيارة، وتشبثت بالمقود علَّها تخفف وطأة انتفاض بدنها. بقيت على تلك الحالة كأنما إلى الأبد. وعندما استجمعت شيئا من القوة لتحريك رجليها ويديها، لم تكن واثقة مما تريد فعله. هل تشغل السيارة وتمضي في حال سبيلها أم تفتح الباب وتخرج ثانية؟ لكنها انتبهت بفزع، ورفعت عينيها فاصطدمتا بشرطي. سألها بعض الأسئلة باقتضاب ثم طلب منها تحريك سيارتها.

بدأت في تشغيل السيارة وصوّبَت عينيها باتجاه بيت أمِّها. رأت زاوية ستارة النافذة العلوية مرفوعة وخلفها توارى أحدهم. ثم أُسدلت الستارة. نظرت نور إلى الشرطي ثم انطلقت مبتعدة.

قالت لنزِنْغا: «هنالك شيء فارق يحدث عندما تتخلى أم عن ولدها وتهجره بملء إرادتها. شيءٌ يصيب الروح بالجدب، فتغدو أرضا ضربها الجفاف

وامتلأت بالشقوق. وأنت تجهدين نفسك وتقضين حياتك بطولها تحاولين سدَّ تلك الشقوق بالطعام، أو المخدرات أو الكحول، برجال تافهين تعلمين أصلا أنهم سيهجرونك، ولكنك تفعلين علَّهم يصيبونك بنفس الوجع الأول. تقدمين على ذلك لتحسي بالقطيعة والهجران مرات ومرات، لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي عرفته عن أمك. وهو أيضا كل ما تعرفينه لتقريبها منك».

«آه يا نور، يا صغيرتي!»، قالت نزنغا وهي تعجز لأول مرة في حياتها عن إيجاد كلمات تناسب المقام.

«لا عليك يا زنغي. لقد تصالحت كيفما أمكنني مع هذا الوضع. لكن الجانب الأهم منه هو الالتزام بأن أكون الأم التي طالما تمنيتها لنفسي. ليس لي من خيار سوى محبة هذا الجنين وإنجابه مهما تطلب مني ذلك من جهد».

قالت نْزِنْغا: «منذ طفولتك يا نور وأنت تتميَّزين بنوع من الوعي بالذات. أناس كثيرون يعيشون ويموتون دون التعرف على ذواتهم كما تعرفين أنت ذاتك. قولي لي: هل هذا هو سبب إصرارك على العودة إلى غزة؟»

«قد يكون هذا هو السبب. لكنني أيضا أفكِّر كثيرًا بِرِتْشَلْ. لست أدري كم ستعيش ألوان، وعمَّتي نظميَّة في سن لا تسمح لها بإيلاء رِتْشَلْ العناية الكافية. لديها عائلة ممتدة وكبيرة، أعمام وعمات، أخوال وأبناء عمومة وخؤولة. لكنها ستضيع وسط هذا الحشد الهائل من الناس. لديهم جميعًا أطفال كثر، حتى أنني لم أستطع في البداية أن أتذكر أسماءهم ومن هم آباؤهم إلا بشق النفس. لن تحظى رِتْشَلْ بنفس الحب والرعاية وهي تستحق ذلك».

أخذ موظفو الفترة الصباحية يحتلون أماكنهم في الفندق. وكانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحًا عندما استسلمت المرأتان للتعب. استلقت نور على سريرها وشخصت ببصرها إلى أعلى فبدأ حلم يتقافز فوق بياض السقف.

كان هناك نهر، وجاء الصبيُّ الصغير الذي يعلمها اللغة العربية. «خالد!»، صاحت نور. «لقد كنت أنت هو طوال الوقت!»

فقال: «طبعًا».

«أين مريم؟»

رد عليها صوت رجل: «تنتظر أختي نظميَّة في بئر الماء».

«جدُّو!»

ثم استيقظت نور على صوت آذان الظهر.

VII

كابدنا مرارة القطيعة في ذلك الطوق المحكم من العزلة، فأدركنا صَغارَ شأننا وهوانَ أمرنا، وكيف صارت ديارنا مستباحة مهيضة الجناح. لكن تلك الأنفة الرهيبة همست في آذاننا بكلمات عجوز قالتها منذ أمد بعيد: «هذه الأرض ستحيا وتعمر من جديد».

لم تعرف نور طعما للاستقرار. لعل ذلك يعود للطابع المؤقت لدور الرعاية التي نشأت فيها، لفكرة إمضائها حياتها كلها وهي تتنقل بين دور الرعاية. لانعدام الخيارات عند خروجها من إحداها. لم تكن لها من مرساة في هذا العالم، فظلّت دوما هائمة فوق الدروب والطرقات، تبحث عن ذاتها وعن طريق يفضي إلى الخلاص، تحاول العثور على لفة، على شيء صلب قادر على أن يسندها في وجه الريح.

كانت العودة إلى غزة صعبةً وتنوء بسفاسف ما تتطلبه الدوائر الرسمية من معاملات وأسئلة قمعيَّة. أغلق المصريون الحدود، ثم فتحوها، ثم عادوا فأغلقوها. أوراق نور غير وافية تنقصها نقطة أو شحطة، أجوبتها غير كافية. طلبوا منها الانتظار، فدردشت مع بعض الناس، وغنَّت لمن في رحمها، ثم وجدت هي وبعض المسافرين طريقها إلى الأنفاق. قادهم شباب عفَّر بطن الأرض وجوههم وأرواحهم، وجرّوا متاعهم في عربة فوق سكة خشبية. أمسكت نور المسند الحديدي بيد وبطنها باليد الأخرى، ثم هبطت على الدرجات التي أفضت بها إلى عالمٍ سفليٍّ بارد ورطب. وداخل بطن النفق اعتادت عيناها على العتمة. كان هناك مصابيح صغيرة على مسافة أمتار فيما بينها علقت على سلك معدني وامتدت على طول النفق، وبدت كدرر متلألئة في فراغ مظلم همهم بأصوات جرذان وأفاعي وحشرات تدبُّ وتلدغ. تابعت المشي مدَّة عشرين دقيقة، ثم ظهر ضوء ووجدت نفسها على الجانب الآخر في غزة.

ذهبت نور إلى أقرب سيارة أجرة بلا ركاب عند الحدود. «هل يمكن أن تأخذني لمخيَّم النصيرات؟» وعندما انطلقت السيارة شاهدت عددا كبيرًا من الأشخاص هرولوا لاستقبال أم وأطفالها الذين قطعوا النفق معها. تبادلوا

الأحضان والقبل. وتخيَّلت نور نفسها محاطة بألوان ورِنْشَلْ وكل أبناء أخت جدها وزوجاتهم. لم تكن قد اتَّصلت لتخبر أيًا منهم أنها عبرت الحدود. «أكيد أنهم سيتفاجأون» قالت في نفسها. دقَّ قلبها بعنف واستبدَّ بها شوق للوصول.

قالت للسائق: «لفّ من هنا لو سمحت». وبينما سار السائق ببطء وأطلق بوق سيارته ليفسح الأطفال الطريق، رمى صبي كرته نحو السيارة وصرخ على السائق حتى يتوقف عن إطلاق بوقه. حينها قالت نور: «دعني أنزل هنا مش مستاهلة، كلها خطوتين مشي. والسيارة لا تستطيع الدخول في الأزقة أكثر».

ركض عدد من الصبية لمساعدتها في نقل حاجياتها. وحاول أحدهم أن يكلِّمها بما في جعبته من كلمات إنجليزية قليلة، فسمعت نور شابًا يصرخ فيه: «هذه ليست أجنبية يا حمار! هذه قريبة الحجَّة نظميَّة». عرفته نور وحيَّته بيدها: «سلام، كيفك وسيم». هزَّ رأسه وأسرع لمساعدتها في حمل أغراضها. كانت الشمس ما تزال طالعة والمخيم يضج بالحياة. فغذَّت نور السير.

صرخ صوت طفولي: «خالتو نور! خالتو!»، ركضت رِنْشَلْ من بين مجموعة من الصغار ووثبت فتلقفتها نور وضمتها إلى صدرها. تبادلتا العناق والقبل إلى أن تمكَّنت من التملُّص منها كي تسبقها وتُعلن نبأ عودتها. وعندما لحقت نور بها كانت نسوة حياتها قد هرعهن لاستقبالها أمام باب الدار. حتى الأرملة العجوز، ورغم ما تعانيه من ثقل في الحركة، كانت في انتظارها.

جلست نور وسط هذا الدفء الذي أحاطتها به عمَّتها نظميَّة، وألوان، والكنائن، واثنان من أبناء الحجّة، ورِنْشَلْ، والجيران، وأطفال يصعب عدُّهم. كانت تنظر إلى الجميع بسعادة وقد وضعت يدها على بطنها. راحوا يضحكون ويتحدثون بلا توقُّف. احتفوا بقدومها بتقديم الشاي والقهوة وأصناف عديدة من الحلويات والتسالي. إنه أول استقبال تحظى به بمناسبة عودتها إلى بيت في حياتها. وتلك هي أوَّل مرَّة تعود إلى مكان فيحتضنها. لقد كانت مجبرة دائمًا على التنقل والرحيل، تغادر وترجو أن يكون المكان الآتي أفضل.

يدها ما زالت مستقرة فوق مهجة عالمها، ونظراتها تسجل كل ما يدور

في الغرفة بعينين تغمرهما السعادة. ولكنها عبر تلك اللحظة الممتدة من الزمن لم تسمع غير نبضات اليقين. نظرت الحجة نظميَّة إلى يد نور، ثم إلى وجهها، وبعدها شدَّتها نحوها. مالت نحوها وهمست في أذنها: «سنلاقي حلًا يجعل الناس تضع أيديها على رؤوسها عندما تنطق باسمك أو اسم ابنك. لا تخافي، هذا لحمي ودمي. لكن الآن ارفعي يديك عن بطنك حتى لا يكثر الكلام وأفكارهم تودي وتجيب». التفتت نور لتنظر في وجه الحجة نظمية الذي صنع فيه الدهر ما صنع، فطالعتها عينان ممتلئتان شقاوة وعشقا للحياة.

جلبت نور معها من القاهرة العديد من الهدايا، ولكنها جميعا تضاءلت أهميتها أمام بيوض الشكولاتة السحريّة. قدمت واحدة منها لِرِتْشَلْ قائلة: «وهذه بيضة كندرا!»، فطارت فرحًا ولم تصدق كم هي محظوظة في تلك اللحظة. خافت أن تفتحها أو تأكلها أو ترى أي لعبة تخبئ في جوفها مخافة أن تبتلعها وينتهي الأمر. لكنها لما عرفت أن هناك صندوقا كاملا منها يقبع في حقيبة نور طارت لتتقاسمها مع أبناء أخوالها. قشروا الغلاف الرقيق بعناية، ثم التهموا بنهم لحظة من الشوكولاتة تذوق حلاوتها كلُّ من كان حولهم. ظل البيت عامرا بسحر ذلك اليوم إلى أن خلع على مهل ضيوفه وارتدى حلّة النوم. غفيت رِتْشَلْ في حِجْر أمها، وعلا شخير الأرملة العجوز.

«لِمِ لا نقيم غدًا لَمَّة حلوة على الشطّ على شرف نور»، قالت الحجة نظمية وهي ترمي على الأرملة العجوز مخدة لتوقظها من نومها. «لكننا لن نعزم حضرتها». ردَّت عليها الأرملة دون أن تعبأ بفتح جفونها: «سمعتك وله لا تلطشي كلام. أساسا لن يستنظف أحد أن يأتي إذا لم يكن الأكل من تحت يدي أنا».

فقالت الحجّة نظميَّة ضاحكة: «ما فشرتي! أبو إسحاق يأتي».

«وَلِه»، لوحت الأرملة بإصبعها في وجه الحجة نظميَّة وهي تحاول كبت ضحكاتها: «هل يمكن أن تقولي لي لماذا تحشرين أبو إسحاق في أي موضوع؟ أنا أقول إما أنكِ تذوقتِ نتفة صغيرة من ذلك الشيء أو لأنه جاي على بالك وريالتك سايلة».

نظرت ألوان ونور نحو رِتْشَلْ لتتأكّدا من أنها نائمة.

أما الحجة نظميَّة فضحكت وقالت: «والله سمعت أنه لا شيء صغير عند أبو إسحاق!»

قذفت ألوان مخدَّة نحو أمّها وقالت: «يُمّه. أبوس إيديك ورجليك توقفي عن هذا الكلام!».

فضحكت الحجة نظميَّة والأرملة العجوز ضحكة تآمر، وقالت نظميَّة: «حاضر يا بنيتي. لكن لا تقلقي أبدا، والله الحيّة الوحيدة التي رأيتها في حياتي كانت حيّة أبوكِ».

«حسبي الله ونعم الوكيل! يا ربي اهدِ هذه الحرمة لصراطك المستقيم»، قالت ألوان رافعة يديها مغلوبة على أمرها ثم حملت رِتْشَلْ إلى الفراش.

أمّنت الأرملة على دعاء ألوان: «اللهم آمين. والله دائمًا أدعو لها الله ليصلح لسانها الأعوج».

«أفّ! ومن قال إنك أحسن منها»، ردت ألوان على الأرملة التي حاولت الاصطياد في الماء العكر.

أما نور فنهضت أخيرا لتذهب وتنام مع ألوان ورِتْشَلْ وقالت للحجتين: «بحبكن من قلبي».

استدارت الحجة نظميَّة بوجهها نحو أرملة النحال وقالت: «عزا! هذي كمان تتظاهر بأنها لا تبالي للحديث عن أبو إسحاق ثم تفري معدتي بهذه الـ «آي لف يو» تبعة الأميركان التي تحكيها على الطالعة والنازلة وتظن أنها ستسكتنا».

استقرَّت شظايا المزاح لذلك اليوم، ثم تعالت إيقاعات شخير الحجتين، فهدهدت البيت ليخلد إلى النوم ويقع أسيرًا للأحلام.

عندما كنت حديث السنّ أسر مقاتلو حماس جنديًّا إسرائيليًّا اسمه جلعاد شاليط. بحثت إسرائيل عنه في كل مكان وقلبت الأرض رأسا على عقب ولكنها لم تعثر له على أثر. قتلت منا كثيرين لتستردَّه فلم تظفر بغير الفشل. هاجت وراحت تتصرف كطفل عربيد اجتاحته نوبة حادة من العصبية. ثم صبَّت إسرائيل جحيمها فوق رؤوسنا جوا وبحرا وبرا. قطَّعت أوصالنا، ودمرت بيوتنا، وحرقت أرضنا، وتركتنا حطاما وأشلاء. ورغم كل ذلك، لم ترجع إلا بُخفيّ حنين. عجزت بكل ما في ترسانتها من عنف أن تنال من حماس.

استأنفت الحجة نظميَّة والأرملة العجوز المزاح ثانية في الصباح. تراوحت نكاتهما بين البذاءة والهزل أثناء لفّ ورق العنب وتنظيف الدجاج لإعداد المسخَّن، ونقع الأرز وحفر الكوسا.

وعندما استيقظت ألوان للذهاب الى العمل، كانت الحجة نظميَّة قد جهَّزت لها فطورا وشايا ساخنا.

قالت: «لا تزعلي من أمّك العجوز يا حبيبتي».

فردت ألوان وهي تبتسم: «والله هذا يعتمد على ما إذا كان الفطور زاكي أم لا».

فجاوبتها الحجة نظميَّة: «أنتِ بنتي عن حق وحقيق يمّه. لم يدللكِ أحد عندما خلفتك».

أصدرت ألوان أصوات استحسان بينما أكلت البيض المقلي بالطريقة التي تحبُّ (بيض عيون)، وغمَّست الخبز المحمَّص في الزيت والزعتر، وارتشفت الشاي الحلو المعطَّر بالكثير من النعناع.

«يُمَّه، يسلموا إيديكي على هذا الفطور الطيب. لا تنسي أن رِنْشَلْ عندها

درس موسيقى في الساعة العاشرة. تركتها تغفو قليلا مع نور». ثم اتَّجهتْ نحو الباب حتى تسلِّم ثوبين انتهت من تطريزهما. لكن الأرملة العجوز اعترضت طريقها: «أين تذهبين؟ نسيتِ أن عليكِ أن تشربي هذا كلَّ يوم»، وناولتها زجاجة زيت المارجوانا المقرف.

ابتلعت ألوان السائل وهي تغصُّ به: «طعمه مثل الخرا». هزَّت رأسها بشدة من حدة مرارته.

كانت رِتْشَلْ في طريقها على مضض إلى درس الموسيقى لمَّا عادت أمها، رجتها أن تبقى في البيت لئلا تفوتها الحفلة.

«يا حبيبة قلبي ليست حفلة. سنذهب فقط إلى الشط لنتغدى. أعدك أننا لن نذهب قبل أن ترجعي للدار».

اعترضت رِتْشَلْ: «لكن يجب أن أظل حتى أساعدكم في تحضير الأشياء».

«رِتْشَلْ يكفي يا حبيبتي. يلا اذهبي الله يسهل عليكِ». فذهبت وهي تتأفف. وبعد لحظات، عادت والذعر يطلُّ من عينيها. وعلى الفور، تعالت أبواق السيارات وهنافات صاخبة. هرعت نسوة البيت إلى عتبة الدار فوجدن جيرانهن يفعلون الأمر نفسه. هيَّج الفضول بعضهم وكبت بعضهم الآخر نفسه. وهكذا اندفع البعض ركضا في طرقات المخيم بينما راح الآخرون يزحفون زحفا. سيارات مكتظة بمن فيها من شباب أطلقت أبواقها ومرت. وسريعا بدأت الطرقات والأزقة تغصُّ بأفواج من الناس، ثم انفرجت عن سيل من الشبان يرقصون فرحين. بعدها انجلى الخبر اليقين: انتصرت حماس وسيبادل الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط بألفٍ من الأسرى السياسيين الفلسطينيين. وعلى عجل، رمت الحجة نظميَّة منديلها على رأسها وهرولت وهي تصرخ: «مازن!».

قلتها من قبل: كنا متعودين على أن نكون الخاسرين. ولهذا كانت الانتصارات الصغيرة تودي بصوابنا. عطَّل الجميع حياتهم وخرجوا ليحتفلوا معا. كان اسم خالو مازن ضمن قائمة المفرج عنهم، فهرولت ستي في الأزقة والطرقات رافعة وجهها وذراعيها صوب السماء وهي تصرخ: «الله أكبر!»، وهكذا فعل سائر أهل غزة. عمَّتهم فرحة واحدة، وغمرهم شعور مشترك بالنصر. أحسوا أن الله يتولاهم برحمته وأن كبرياء صبرهم ودفء عوائلهم هو معينهم الذي لا ينضب من القوة. لم تفهم رِتْشَلْ شيئا، لكن كان يكفيها أن تعرف أن الدراسة علّقت لأجل إقامة احتفال جماهيري.

بعدما هدأت فورة النشوة التي استبدت بالجميع، تجلَّت تفاصيل صفقة تبادل الأسرى. إنها ستنفذ على دفعات، وتشمل الأولى منها إطلاق سراح خمسمئة أسير قبل تسليم الجندي الإسرائيلي إلى مصر. وهذا يعني أن مازن سيكون بين أهله بعد سبعة أيام.

سألت الحجة نظميَّة: «اليوم هو الثلاثاء، مزبوط؟»

فأجابت ألوان: «صحيح يُمَّه. قالوا إن مازن سيصل الإثنين إن شاء الله».

عدّت نظميَّة ما تبقى من أيام على أصابعها: «يعني بعد سبعة أيام»، ثم عاودت العدَّ حتى تتأكد.

«إن شاء الله يمّه ترين أخي بيننا على الغداء الجمعة المقبلة»، وقبَّلت ألوان جبين أمِّها.

«سيكون الجميع اليوم على الشط، الكبار والصغار. معلش أنا أريد أن نذهب أيضًا يمّه. أحب أن أصلِّي بجانب البحر، أحس أنني أقرب إلى الله».

ارتعش ذقن الحجة نظميَّة وبدأت بالبكاء: «ابني راجع، حبيبي مازن جاي. لم

يخطر ببالي أنني سأعيش وأشهد هذا اليوم». وأتبعت القول في سرها: «سامعة يا مريم، سامعة؟»

*

ظلَّت أرملة النحال تطبخ دونما استراحة مستمدَّة العزم من نتيجة المباراة الأخيرة: إسرائيل 1، حماس 1000. وكملكة متوجة على عرش المطبخ أملت أوامرها على رعيَّتها، نور ورِتْشَلْ فقط. كلفتهما بجلب الخضراوات والأعشاب من بستانها الصغير، وطلبت منهما أن تُناولاها هذا الشيء أو ذاك، أن تُقشِّرا هذا وتفرما ذاك، وأن تقوما بالغَلي والقَلي والتمليح والتبهير. «الله رحيم. لا إله إلا الله. يقول لعباده خذ ولا يقول لهم قديش»، قالت الأرملة للحجة نظمية التي ذهبت إلى المسجد. عادت الحجة فوجدت الطعام جاهزًا ومغلَّفًا لحمله ونقله إلى الشاطئ. أما رِتْشَلْ فما عادت تطيق صبرا، فقد نفذت أخبار الصباح إلى مساماتها وبات فرحها معلقا في سماء روحها كضباب. افتقدت أخاها خالد، وتمنَّت لو أنه معها ومع نور في العربة الخشبية التي جرها حمار أبي مرزوق. لاحق الأطفال العربة وركضوا إلى جانبها فيما قرقعت صواني الطعام واهتزت فوق الطريق المحفَّر. وعندما وصلتا إلى الشاطئ، كانت كنائن الحجة نظمية قد فرشن البطانيات وجهَّز أبناؤها حفرة بقيت نيرانها متقدة حتى حلول الظلام.

بعد فراغهم من طعام الغداء انضمَّت إليهم عائلات أخرى. جلست الحجة نظميَّة وأرملة النحَّال معًا وتحلقت حولهن حجَّات المخيم. صارت قعدتهن صدر المجلس وعصب القيادة والتوجيه لما يحدث على الشاطئ. لاطفهن البحر بالرذاذ وداعب خدودهن النسيم. وكلُّ سنديانة معمرة منهن ارتدت ثوبا فلاحيا مطرزا بألف عام، وغطَّت هامتها بوشاح موشَّى يعود إلى ضحى الإسلام. دخنَّ النراجيل رغم منع حماس تدخينها على النساء في الأماكن العامَّة. فلا أحد يجرؤ على مساءلة الجدات وأمهات الجدات، وكان تحديهن للأوامر

بمثابة إصرار علني على ما للأمهات من كرامة وهيبة. كانت الحجة نظميَّة قائدة هذا التحدي، بل الزعيمة الأبدية لعصابة المتحديات تلك، فجلست وهي تعبّ رحيق البحر وتنتظر خلاص ابنها الأسير خلال سبعة أيام فقط. تحدَّثن عن ألف من أبناء وبنات الفلسطينيين ممن سيعودون قريبًا إلى أهاليهم، والحمد لله! كان لكلٍّ من الحجات قريب أسير في إسرائيل، وكل واحدة منهن تخيّلت لمَّ الشمل ودعت أن يتمَّ على خير. قالت الحجة نظميَّة: «إن شاء الله مازن ورفاقه وكل أقاربنا من الأسرى يكونون معنا المرة القادمة عندما نقعد مثل هذه القعدة». أمَّنت الحجات على دعوتها بسيل جارف من الدعوات.

طرأت فكرة على بال الحجة نظميَّة فأسرَّت بها للأرملة العجوز: «لمَ لا نزوج مازن لنور! هو يحتاج لعروس وهي محتاجة لعريس. والله لو وافقا على الزواج ستحل المشكلة من أساسها. يارب!»

ردّت أرملة النحال بهمس: «الأميركان لا يتزوجون مثلنا من أقاربهم. ثم هل تحسبين أن مازن سيوافق على أن يكون أبًا لولد من رجل ثانٍ؟ لكن الله كبير، ولما ربك يريد يسخِّر عبيده».

فقالت الحجة نظميَّة بانزعاج: «هي لم تعد أميركانية، وابني مازن طيب وقلبه كبير. لكن مثل ما قلتِ، إذا ربك بريد يسخِّر لك عبيده».

أخرج أحدهم طبلة، ففزَّ الرجال واصطفوا كتفا إلى كتف. ثم دبكوا على وقع الميجَنا والعتابا التي صدحت بها الحناجر من حولهم. لعبت رِتْشَلْ هي والأطفال، ثم تعاركوا، وبكوا، وضحكوا، ورقصوا. أما ألوان فتملّكها فرح لم تشعر بمثله منذ سنوات طوال. غمرها حبور مستغلق لم تألفه، لعله ما يصيب المرء عندما يطرق الموت بابه مرارا ثم يدعه وشأنه. رقصت مع بقية النساء حول حفرة النار المشتعلة. ولمَّا لم يكن مألوفا لبنات جيلها شبك أيديهن بأيدي الرجال خلال الرقص، ستر جمهور الحاضرين هذا التجاوز بالالتفاف حول حلقة الدبكة.

رقصت نور أيضًا، واستمرَّ الاحتفال إلى أن تعبت الشمس وشحب وجه النهار. ثم غشيهم الصمت لما اتشحت السماء بغلالات موشاة بالأحمر القرمزي

والأرجواني والذهبي. رأت نور دمعة تنسكب على وجه الحجة نظميَّة عندما بلغ قرص الشمس حافة البحر وطبع نفسه فوق ماء غزة. غطس إلى منتصفه ثم لم يبق منه سوى هلال رفيق قبيل لحظات اختفائه تماما تحت الماء. تابع الناس جلال المشهد بخشوع ووجل، وشعر كل منهم كم هو ضئيل وكم الكون عظيم.

تمتمت الحجة نظميَّة دون أن توجه كلامها إلى أحد على وجه الخصوص: «في يوم من الأيام قالت أمي إن هذه الأرض ستعمر من جديد».

استعرت ألسنة اللهب في الحفرة وعلت مثل قبضة تعلن التحدي. وحلَّ عليهم القمرُ بدرًا، ضيفًا عزيزًا استقبلوه بانبهار ودهشة، فهو ذات القمر الذي يطل من عليائه على بقية العالم خلف سجنهم الضيق، نظروا إليه فأنعم عليهم بشعور من الحرِّيَّة.

لم يعد ثمة مستحيل في تلك اللحظات. التحرر والخلاص ممكن. خلاص من مخاطر الشيخوخة ومن مرض كامن في جسد امرأة، من وضع آباء وإخوة بلا عمل وابن عائد بعد عمر خلف القضبان، خلاص لجنين في رحم امرأة غير متزوِّجة ولمستقبل طفلة صغيرة. خلاص يتحدى سجنهم الذي يطوقه من الغرب بحر وسفن حربية، ومن الشرق سياج مكهرب وقنّاصة، ومن الشمال والجنوب جيوش جرارة لا قبل لهم بها.

أمسى الوقت متأخِّرًا، وبينما هم يحزمون أغراضهم للعودة إلى بيوتهم، رقصت أغنية مألوفة في نخاع العظم منهم، ثم انسابت إلى حناجرهم. غنَّتها الحجة نظميَّة أوَّلاً، ثم رددها الآخرون:

جدتي
أنا في الأزرق
بين السماء والماء
حيث الزمان كلُّه الآن
ونحن الأبدية
نجري كنهر.

خالد

«في ذلك التعاطف الأصيل الذي إن وُجِد فلن يزول أبدا.»
وليم ويردزويرث: «أغنية: ومضات من عالم الخلود.»

وهناك كنتُ
مع سيدات الحياة
كنتُ في الألوان
في لبلَك التوت
وأرجوان الرمان
ومرجان شمس متعبة
وفي الأزرق
ما بين السماء والماء
وهناك كنتُ
أسمع وأرى
أحاديثهن وضحكاتهن
التي أرست أوتاد الأرض
ولفعت الشاطئ بموج البحر
فنام

علَّقت السماءَ وزيَّنتها
بالشمس والقمر والنجوم
كلُّ ذلك كان
في غزة
في فلسطين
وهناك بقيتُ
ما أمكنني البقاء

خاتمة

بعد فترة وجيزة من الانتهاء من كتابة هذه الرواية وتقديمها للنشر، هاجمت إسرائيل غزة بوحشية لا مثيل لها في صيف سنة 2014. وظلّت تقصف هذا القطاع الصغير طيلة سبعة أسابيع، رغم أنه يرزح أصلا تحت حصار محكم من قبلها. وبلغة الإحصاءات الباردة قُتِل 2191 فلسطينيًّا غالبيُّتهم العظمى (80 بالمئة تقريبًا) من المدنيين، وبينهم 527 طفلاً. في المقابل، قتل 71 إسرائيليًّا، 93 بالمئة منهم من الجنود. كما جرح 11239 من الفلسطينيين، وقصف 61800 منزل و220 مدرسة و278 مسجدًا و62 مستشفى، وكذلك محطة توليد الكهرباء الوحيدة في غزة. رغم كل هذا، صمد المقاتلون الفلسطينيون في الأنفاق على الخبز والماء والملح فقط. رفضوا الاستسلام وأصروا على التصدي لقوّة عسكرية تتفوّق عليهم بشكل هائل. أما أهل غزة، ورغم كل ما تعرضوا له من رعب وفجائع مهولة، فوقفوا إلى جانب المقاومة وساندوها لأنهم وعلى حد تعبير أحدهم: «نفضل الموت ونحن نقاتل بشرف على حياة ذليلة لا نكون فيها أكثر من فئران تجارب لإسرائيل حتى تختبر ما تملكه من أسلحة وعتاد».

تحية عز وإكبار لأولئك المحاربين الأبطال الذين لم يعبأوا بالموت طلبًا للحرية. كانت شجاعتهم أسطورية بكل ما للكلمة من معنى.



شكر وتقدير

كان الطريق لترى النسخة العربية من الرواية النور طريقا طويلا، وهنا لا بد من التسليم بما تنطوي عليه الترجمة الأدبية من فقدان جزء ليس باليسير من الرواية، بيد أنا حاولنا جهدنا لتخفيف هذه الخسائر قدر المستطاع، فإيصال المعنى اللغوي شيء، وإيصال الدقائق الأدبية التي تشكل مجتمعة روح الكتابة النثرية هو شيء آخر يختلف اختلافا جذريا. ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أعبر عن خالص امتناني وشكري لكل من آلاء حيمور وفخري صالح لما أدخلاه من لمسة تحريرية على المسودة الأولى للدكتور محمد عصفور، كما أشكر خلود عمرو التي أدخلت تعديلات قيمة على المسودة خاصة فيما يتعلق بالحوار.

أشكر ناشري الرواية في جميع أنحاء العالم، وأشكر كل من رافقني وشجعني في لحظات شككت فيها بقدراتي، كما أشكر سميحة علوان التي راجعت النص ونقحته بعين قارئ غزي، وأشكر أصدقائي أمل عبد الله وحنان عريق وجاكلين بيري ورنا بكر وآية الزيناتي وريتشارد فلك الذين قرؤوا المسودة الإنجليزية وأضافوا عليها، كما أشكر المؤلف رمزي بارود الذي قدم كتابه «أبي كان مقاتلا من أجل الحرية» المعلومات الأساسية لمكان أحداث الرواية (بيت دراس).

أقدم شكري وامتناني لهؤلاء الأشخاص، لحكمتهم ومعرفتهم وصداقتهم.

مؤلفة الكتاب

ولدت سوزان أبو الهوى لأبوين فلسطينيين من لاجئي حرب عام سبعة وستين. وهي ناشطة في مجال حقوق الإنسان ومعلقة على الشؤون السياسية في كثير من المواقع والمحطات الإخبارية. أسست في عام ألفين منظمة «ملاعب لأطفال فلسطين» وهي منظمة تكرس أنشطتها لمساعدة الأطفال الفلسطينيين في نيل «حق اللعب». نالت روايتها الأولى «صباحات في جنين» (التي ترجمت بعنوان «بينما ينام العالم» في نسختها العربية الصادرة في عدة طبعات عن دار جامعة حمد بن خليفة للنشر) ترحيبا شديدا وأصبحت من بين الروايات الأكثر مبيعا على نطاق دولي. كما بيعت حقوق ترجمتها إلى ست وعشرين لغة. وهي تعيش في ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية مع ابنتها.

"**رواية مثيرة وعميقة التأثير... إذا كان يصعب على المرء أن يعايش معاناة الحياة وتقلباتها، فإن هذه الرواية القوية والمشحونة سياسيًا توفر له ذلك برشاقة أدبية مثيرة. تتميز اللغة السردية التي تستخدمها سوزان أبو الهوى بالبساطة والوضوح**". «إندبندنت أون صنداي»

في العام ١٩٤٨، وفي قرية بيت دراس الفلسطينية، تعيش عائلة بركة، التي تضم نظمية البنت الكبرى، وممدوح الأخ، ومريم ذات الطبيعة الحالمة، وأمهم الأرملة. وحينما تداهم قوات الاحتلال الإسرائيلي القرية وتُشعل فيها النيران، تضطر العائلة لقطع الطريق الطويل وصولاً إلى غزة، في مسيرة سوف تختبر عزمهم وتمتحن صبرهم.

وبعد مُضيّ ستين سنة، في أمريكا، تقع حفيدة ممدوح نور في حب طبيب. وحينما تتعقبه إلى غزة، تلتقي ألوان، التي تساعد نور في اكتشاف علاقة القُربى التي تتخطى المسافات - بل وحتى تتجاوز الموت. ولأنها مفعمة بحس إنساني خالص، فإن رواية الأزرق بين السماء والماء تتميز بلغة شعرية وحبكة فنية آسرة في تناولها لأحوال عائلة بركة ما بين الهجرة والفقدان والنجاة والحب.



سوزان أبو الهوى روائية وشاعرة ومحللة سياسية وناشطة في مجال حقوق الإنسان، وعالمة أحياء وأم. أسست «ملاعب من أجل فلسطين» وهي منظمة مكرسة لمساندة حق الطفل الفلسطيني في اللعب. روايتها الأولى Mornings In Jenin (بينما ينام العالم) من بين الكتب الأكثر مبيعا، وقد ترجمت إلى ٢٨ لغة.





www.hbkupress.com
ISBN 978-9927118807
دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS